انتصار الحضارة

تاريخ الشرق القديم

تأليف

جيمس هنري برستيد

ترجمة

أحمد فخري

الكتاب: انتصار الحضارة.. تاريخ الشرق القديم

الكاتب: جيمس هنري برستيد

ترجمة: أحمد فخري

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

برستيد ، جيمس هنري

انتصار الحضارة.. تاريخ الشرق القديم / جيمس هنري برستيد،

ترجمة: أحمد فخري

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٣٤١ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٠٨ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٢١٧١٨ / ٢٠١٩

انتصار الحضارة

تاريخ الشرق القديم





تقديم

قابلت "برستيد" للمرة الأولى في حياتي في أوائل عام ١٨٦٢. وكنت إذ ذاك طالبًا أدرس الآثار، ورأى زملائي أن ندعو ذلك العالم الشهير إلى حفلة شاي صغيرة في فندق الكونتيننتال.

كنا جميعًا متشوقين لرؤيته، وكثيرًا ما سمعنا اسمه يتردد على ألسنة أساتذتنا، وكانت مؤلفاته بين أيدينا منذ الأسبوع الأول في دراستنا، ولكن هذا الشوق لمقابلة برستد لم يكن لأجل لقاء عالم عظيم فحسب، بل كان له مغزى آخر.

جاء برستد إلى مصر في ذلك الشتاء ومعه عرض من الثري الأمريكي جون روكفلر لتقديم مبلغ عشرة ملايين دولار إلى مصر لبناء متحف على أحدث طراز للآثار المصرية وما يلحقه من مكتبة ومن معامل لصيانة الآثار ووسائل المحافظة عليها.

ولم يشترط صاحب الهبة شيئًا أكثر من أن تقدم مصر الأرض اللازمة لإقامة المبنى عليها، وأن تشرف على المتحف وملحقاته لمدة ثلاثين عامًا لجنة مكونة من ثمانية أشخاص يمثل اثنان منهم دولة من الدول الأربع: مصر، وأمريكا، وانجلترا، وفرنسا. ثم يؤول بعدها كل شيء إلى مصر.

ولكن لأسباب لا داعي لذكرها رفضت حكومة مصر بعد مفاوضات دامت عدة شهور هذا العرض وانقسمت الصحافة بين محبذ وناقد، ولكننا شعرنا ونحن طلبة حديثو السن أن مصر خسرت خسارة كبرى من هذا الرفض، ولهذا أردنا أن ندعو الرجل إلى حفل بسيط لنعبر له عما نشعر به. وتحدث برستد إلينا مجملًا ما حدث، وشاكرًا لنا ما أحسسنا به. وأظهرت الأيام بعد ذلك أن مصر خسرت كثيرًا وأضاعت عليها فرصة كبيرة.

ودارت الأيام دورة أخرى وقابلت برستد مرة ثانية في ربيع ١٩٣٥ عندما كان في آخر زيارة لمصر، لم أره هذه المرة للحظة قصيرة، أو استمعت إليه وهو يلقى خطابًا، بل كان لي حظ لقائه مرات، وكنت في ذلك الحين مفتشًا للآثار في الأقصر، وكنت أكثر من الذهاب إلى مكتبة المعهد الشرقي لجامعة شيكاغو للاطلاع، فكان لي حظ لقائه والاتصال به ومصاحبته في الذهاب إلى كثير من مواقع الآثار.

كان يحدثني عن ذكرياته وهو طالب في أمريكا وفي ألمانيا، وكان يحب أن يحدثني عن ذكرياته في المناطق الأثرية وخاصة عندما زار آثار الأقصر للمرة الأولى في عام ١٨٩٤. وكان يحدثني عن نتائج حفائر بعثات المعهد في مختلف بلاد الشرق، وكان يسألني عن دراساتي وعن هواياتي، وكنت أحس بعد كل مقابلة أن الرجل فتح عيني على حقائق لم أمن أعرفها. وكانت له شخصية تحبب الإنسان في العلم والعلماء، وكان يؤمن بعظمة مدنيات بلاد الشرق القديم. وبالرغم من أن اختصاصه الأساسي كان في علم الآثار المصرية، إلا أنه كان يؤمن إيمانًا صادقًا أنه لكي نفهم دور

الحضارة المصرية على الوجه الصحيح يجب أن يبدأ الطالب بدراسة حضارة الشرق القديم عامة.

لم يكن هذا رأي برستد في عام ١٩٣٥ فقط أو أنه بدأ يؤمن به بعد أن اتسعت آفاق دراساته وأبحاثه ولكنه آمن به منذ أن كان طالبًا في شيكاجو، وبدأ يدرس اللغة العبرية استعدادًا لدراسة اللاهوت ليصبح رجلًا من رجال الدين. وزاد إيمانه به في يوم أقنعة أستاذه في اللغة العبرية أن ينبذ فكرة دراسة اللاهوت لأنه خلق ليكون مستشرقًا ونصحه بالاتجاه نحو الآثار المصرية. وكمل إيمانه عندما أتم دراسته في أمريكا وسافر إلى برلين رغم كل الصعاب المالية، وقرر أن يتخصص في دراسة علم المصريات.

حصل برستد على الدكتوراه من برلين في عام ١٨٩٤ ونشر أول أبحاثه بعد ذلك في عام ١٩٠٠ عن الملك تحوتمس الثالث. وفي عام ١٩٠٣ نشر كتابًا له عن موقعة قادش التي خاضتها الجيوش المصرية في سوريا، ثم نشر بعد ذلك كتبًا متعددة جعلت اسمه على كل لسان وخاصة كتبه عن تاريخ مصر.

وفي عام ١٩١٦ ظهر له كتاب جديد هو كتاب "العصور القديمة– Ancient Times" الذي لاقى نجاحًا لم يلقه كتاب من نوعه في جميع الدوائر العلمية، والذي انتشر بين أيدي الطلبة في كل أنحاء العالم وهو الكتاب نفسه الذي نقحه ونشره بعد ذلك بعشر سنوات تحت اسم انتصار الحضارة The Conquest of Civilizalion والذي زاد عليه

ونقحه مرة أخرى قبل وفاته ونشر بعد موته بثلاث سنوات، وهو أيضًا الكتاب الذي نقلنا منه الفصول الثمانية الأولى إلى العربية ونشرناها في هذا الكتاب.

وهناك قصة طريفة عن سبب قبول برستد وضع هذا المؤلف.

كان لبرستد جار صديق اسمه هيلتون من المساهمين الرئيسيين في إحدى شركات النشر الكبرى، حاول هيلتون كثيرًا في عام ١٩١٢ أن يغري برستد بكتابة مؤلف عن التاريخ القديم ليكون في أيدي طلبة المدارس الثانوية هناك ولكنه كان يرفض قبول كتابته رغم ما كان فيه من ضائقة مالية شديدة لأن ذلك سيضطره لتعطيل أبحاثه الخاصة مدى ثلاث سنوات على الأقل.

ولم ييأس هيلتون، وعمد إلى حيلة بارعة إذ جمع الكتب التي كانت في أيدي الطلبة عن التاريخ القديم وأرسلها إلى صديقه ليطلع عليها ويجيبه عما إذا كان ضميره يسمح أن تكون هذه الكتب مصدرًا لثقافة الطلبة الأمريكيين. ويذكر شارل برستد ابن المؤرخ العظيم في كتابه عن حياة أبيه أن تلك الكتب ظلت عدة شهور لدى أبيه دون أن يتمكن من فحصها، فلما فعل كان أثر هذه الكتب في نفسه هو ما أراده هيلتون. ورأى برستد أن كل هذه الكتب ما عدا اثنين أو ثلاثة كادت تهمل الشرق إهمالًا تامًا وكأن الفضل كله يرجع إلى اليونان والرومان، وفي تلك الكتب التي أشار فيها مؤلفوها إلى الشرق كانت كتاباتهم عنه قليلة وفيها الكثير من الغموض

بل والأخطاء الصارخة. وكتب في مذكراته اليومية في ذلك التاريخ عن مؤرخي حضارات اليونان والرومان فقال أنهم يريدون قتل حضارة الشرق عمدًا لأنهم يريدون إخفاء الحقيقة، ورد على هيلتون قائلًا: "إني أقبل أن ألبي طلبك وأكتب كتابًا لطلبة المدارس عن التاريخ القديم على شريطة أن تسمح لي أن أخصص ثلث صفحاته للشرق القديم"، وانقطع برستد نحو ثلاث سنوات لتأليف هذا الكتاب الذي صدر أخيرًا في يوم ١٤ أغسطس ١٩١٦ عندما كانت الحرب العالمية الأولى على أشدها.

آمن برستد أن الشرق القديم هو مهد المدنية والحضارات وأنه كان المعلم الأول للبشرية، وفي مختلف بقاعه بدأ الإنسان يخطو خطواته الأولى نحو المدنية. لم يكن هذا الشرق صاحب الفضل فيما وصل إليه من كثير من أسس مدنيته المادية فحسب بل كان له فضل أعظم وأكبر من ذلك لأنه كام مبعث ذلك النور الروحاني الذي أضاء نفوس الناس وهذب من صباعهم، فعلى ضفاف النيل بدأ الناس منذ آلاف السنين يؤمنون بالبعث ويدعون إلى حياة طاهرة، ووصلوا منذ آلاف السنين إلى أسمى ما يفكر فيه الناس من دعوة إلى الخلق الكريم، وكان في مصر كما في غيرها ديانات وأساطير وآداب انتشرت بين شعوب العالم القديم وتغلغلت معانيها ومراميها في النفوس، وكان أثرها الكبير عندما أخذت تلك الشعوب ترقى سلم المدينة وقدر لها أن ينتشر دينها وأدبها بين غيرها من شعوب العالم.

وزاد إيمان برستد بأهمية حضارات الشرق بعد أن بدأ يجوب بلاده منذ عام ١٩٢٠ وأخذ يعد العدة لتحقيق حلم قديم له وهو إنشاء معهد

للدراسات الشرقية في شيكاجو والقيام بحفائر في مختلف بلاد الشرق القديم، في مصر، وفي العراق، وفي فلسطين وفي سوريا وفي إيران، وفي تركيا. أخذت حفائر المعهد الشرقي تأتي بنتائج باهرة جديدة، وزاد اهتمام العالم كله ببلاد الشرق القديم، واهتمت حكومات البلاد الشرقية والمعاهد والمتاحف الأوروبية بدراسة آثار الشرق وحضاراته، فشهد العالم بين أعوام ١٩٢١، ١٩٣٩ نهضة أثرية لم يكن للناس عهد بها من قبل، وأدت بعثات المعهد الشرقي وعلماؤه واجبهم خير الأداء ونشروا أبحاثهم في مئات من المقالات والكتيبات والتقارير والكتب، وكان برستد شيخ المؤرخين حركة دائبة مستمرة بين شيكاجو وبلاد الشرق، وكانت أعماله الإدارية ومسئولياته كثيرة ولكن لم يمنعه ذلك من أن يفكر في اصدار طبعات منقحة جديدة أو بعبارة أخرى يعيد كتابة بعض مؤلفاته. ومنها كتاب "انتصار الحضارة" الذي أعد له كثيرًا من الزيادات والاضافات، ولكنه مات في ديسمبر سنة ١٩٣٥ وهو في سن السبعين دون أن يقدمه للمطبعة، فقامت بذلك مساعدته الدكتورة إديث وير Edith Willyams ware وظهرت الطبعة الأخيرة في عام ١٩٨٣ تحمل اسم مؤلفها وعلى صفحتها الأولى كتب الناشر: "طبعة جديدة. أعيدت مراجعتها وترتيبها إعادة كاملة. تحوي نصًا جديدًا فيه استدراكات وملاحظات المؤلف نفسه".

ولكن موت برستد لم يمنع معهده من الاستمرار في تأدية رسالته ولم يمنع مساعديه وتلاميذه من السير بالأبحاث الأثرية إلى الأمام، ونشر كثير منهم كتبًا عدة في تاريخ مصر وغيرها من بلاد الشرق القديم ولكن لم

يكتب واحد منهم كتابًا ليحل مكان كتابه عن "انتصار الحضارة" رغم مضي سبعة عشر عامًا على ظهوره.

وإني مؤمن أشد الإيمان بأنه لن يمكن لأي طالب من طلبة التاريخ في أي شعب من شعوب الشرق أن يفهم تاريخ بلاده القديم دون أن يدرس في الوقت نفسه تاريخ الأمم المعاصرة لها، ويعرف ما أخذته مدنية بلاده وما أعطته، ويجب عليه أن يدرس أولًا تلك الحضارة مجتمعة ثم يستزيد من أي واحدة منها كما يشاء.

وكتاب "انتصار الحضارة" من خير الكتب التي ألفت لمنفعة الطلبة، لم يقصد به مؤلفة أن يكون للمختصين أو للمتعمقين في البحث أو الذين يعنون بالتفاصيل ولكنه مكتوب للطالب المبتدئ الذي يريد أن يعرف كيف تطورت المدنية وكيف ارتقى الإنسان وماذا وصل إليه في حضارته في كل بلد من بلاد هذا الشرق. كتبه بلغة سهلة مقبولة، وهو موضوع في الأصل للطالب الأمريكي، ولكنه صالح دون شك لكل طالب في كل مكان.

ويحوي كتاب "انتصار الحضارة" ثلاثين فصلًا ومجموع ستمائة وخمسون لم يترجم منها في هذا الكتاب إلا الفصول الثمانية الأولى ومجموع صفحاتها مائتان وأربع وثلاثون وهي التي تتناول شعوب الشرق القديم فقط إذ يبدأ تاريخ اليونان وغيرهم من شعوب العالم بابتداء الفصل التاسع.

ولم أتردد كثيرًا في قبولي الاشراف على نقل هذه الفصول الثمانية إلى اللغة العربية لثقتي التامة بأن القارئ العربي وخاصة الطلبة في مسيس الحاجة إلى مثلها، وأسأل الله جل شأنه أن يستفيد منها أبناء الشعوب العربية ما استفاده زملاؤهم من الطلبة الغربيين. فإنها فصول كتبها رجل عالم عظيم آمن بحضارة أجدادهم وظل إلى يوم وفاته يعمل بجد وإخلاص لنشر فضل الشرق ومدنيته على البشرية جميعًا.

والله ولي التوفيق

أحمد فخري

القاهرة في ٢٩ شعبان سنة ١٣٧٤هـ

الموافق ٢٢ أبريل سنة ١٩٥٥م

الخطوات الأولى في تقدم الإنسان

الفصل الأول

كيف بدأ الإنسان حياته جامعًا للغذاء

أقدم أساليب المعيشة الإنسانية..

لم تمض غير قرون قليلة على الوقت الذي كان فيه منظر هجوم ذئب جائع من الغابة ليخطف طفلًا من الطريق في قرية من قرى شمال أوروبا أمرًا عاديًا، بل وفي أيامنا هذه ما زال النمر الآكل للبشر في الهند، والأسد المفترس في أفريقيا، مستمرين في قتل الإنسان ونهش لحمه.

وانقرضت تدريجيًا الحيوانات الكبيرة الثديية رغم قوتها العظيمة، ولم تستطع مقاومة القوى الطبيعية التي استطاع الإنسان أن يتغلب عليها، إذ ربى الإنسان في نفسه المقدرة على مواجهة الحيوانات الثديية التي كانت تنافسه في السيطرة على الأرض، وبهذا أصبح تقدمه ساحقًا لا يعرف الرحمة، فاختفت الزرافة والفيل من شمال وادي النيل في بداية العصور التاريخية، على الرغم من أن الأسلحة التي استعملها الذين عاشوا في عصر ما قبل التاريخ كانت أسلحة بدائية، وكذلك تسبب الملوك المحبون لصيد في بلاد الشرق القديم في القضاء على الفيلة الآسيوية من سهول أعالي الفرات منذ بضعة آلاف من السنين.

وكلنا نعلم جيدًا كيف تم القضاء على حيوان البيسون في أمريكا وكذلك كيف أصبحت الفصائل الباقية من الغوريلا على وشك الاختفاء من أفريقيا، مما جعل علماء التاريخ الطبيعي يرون أن تقدم صناعة الأسلحة في الأجيال القليلة الماضية كاد يجعلنا نصل إلى آخر عصر الثدييات.

وليس هذا إلا مثلًا واحدًا واضحًا لانتصار الإنسان، فإن تفوقه لم يأت إلا بطيئًا جدًا، وعلى مراحل تدريجية. واستطاع العلم الحديث أن يتتبع تطور تلك المراحل على مدى مئات الآلاف من السنين، ونستطيع أن نرى بجلاء، وخطوة بعد أخرى، كيف ازدادت مقدرة هذا الإنسان في الدفاع عن كيانه بين العناصر المتنافسة على الحياة، وتحصين نفسه أمام قوى الطبيعة، وقد ازدادت إلى حد كبير عندما أصبح هذا الإنسان أول المخلوقات بل والوحيد من بينها الذي أمكنه صنع الأدوات.

ونحن نعرف عن بعض الحيوانات قدرتها على مسك العصا أو قطعة من الحجر واستعمالها كآلة في يدها، ولا شك أن السلف من أجدادنا الذين عاشوا في أقدم عصور الإنسانية فعلوا ذلك أيضًا، ولكن هؤلاء السلف الأوائل خططوا خطوة إلى الأمام وكانت خطوة أساسية لم يستطع غيرهم من المخلوقات أن يخطوها. لاحظ الإنسان أن حجره الذي التقطه من الأرض لم يكن ملائمة تامة لغرضه، لقد فحص شكله ولم يرض عنه، وعدم الرضا الكامل عامل مهم في التقدم بل أساسي له. وهكذا ربما خر لأحد الرجال البدائيين والذي كانت لديه موهبة التفكير أكثر من غيره أن يضرب حجرًا بآخر، وهكذا تمكن من تحسين شكل الحصاة التي التقطها

وجعلها أكثر ملاءمة للغرض الذي أراد أن يستعملها فيه، وبهذا صار أول المخلوقات التي صنعت الأدوات. أصبح مخلوقًا يستعمل ذكاءه لا لسد جوعه بما يجده من مواد غير حية فحسب بل يستعمل ذكاءه أيضًا لتشكيل بعض أنواع الجماد لتصبح أدوات تساعده كثيرًا في السيطرة على دنياه التي حوله وما فيها من كائنات حية أو غيرها.

وتقدمت خبرة هذا الانسان في صناعة الأدوات والآلات وتدبير الحيل الآلية. ولم تقف هذه الخبرة عند الحد الأول بل استمرت وكان لها أعمق الأثر في ارتقائه. وكانت مقدرته في صناعة الأدوات السبب الرئيسي في تطور مركز هذا الإنسان في الحياة الإنسانية.

ولكن ندرك هذا الأمر يجدر بنا أن نتلفت أولًا حولنا ثم ننظر إلى الوراء فإنا نعرف جميعًا أن أجدادنا لم يستعملوا في حياتهم إلى جهاز الراديو أو رأوا طائرة عندما كانوا في سن الطفولة، وأن قليلًا جدًا من بينهم من استقل سيارة في يوم من الأيام. وعاش آباء هؤلاء أكثر أيام حياتهم بغير نور كهربائي أو تليفون في منازلهم. وكان أجدادهم مضطرين لقطع مسافات شاسعة في عربات السفر التي تجرها الجياد. ومن بين هؤلاء من مات دون أن تكتحل عيناه برؤية القاطرة. فقد اخترعت هذه الأشياء واحدة تلو الأخرى ووصلت إلينا، وسنخترع أشياء أخرى وستؤثر في حياتنا. وكل واحد من هذه الاختراعات يستند إلى ما كان قبله، ولولاها لكان من المستحيل أن تتحقق إذا لم تسبقها أبحاث أقدم منها، وإذا تعمقنا قليلًا في دراسة تاريخ الجنس البشري فإنه يسهل علينا أن نتصور اليوم الذي عاش

فيه الإنسان وكان من المستحيل عليه عمل عربة سفر أو أي نوع من العربات لأن العجلة لم تكن قد اخترعت بعد ولأن أحدًا لم يذلل الجواد البري.

وقبل تلك الأيام لم تكن هناك سفن ولم يكن هناك سفر أو تجارة عن طريق البحر، ولم تكن لديه أدوات معدنية لأنه لم يكن هناك من رأي معدنًا إذ ذاك. وكان من المستحيل أن تقام مبان جميلة أو أي أبنية من الحجر إذ لم يكن الإنسان قد عرف استعمال أدوات من المعدن لقطع الأحجار. ولم يكن ميسورًا لأحد من الناس أن يكتب شيئًا لأن الكتابة لم يكن قد اخترعها أحد، وبالتالي لم تكن هناك كتب أو أي معرفة بالعلم.

فإذا ما تعمقنا أكثر من ذلك في الالمام بقصة الانسان نجده همجيًا ولكنه أرقى قليلًا من الحيوانات التي حوله مهما كانت متقدمة، إنه لم يكن يمتلك شيئًا غير يديه الفارغتين يستعملهما لحماية نفسه وإشباع جوعه وتأدية كل أغراضه الأخرى. ولا شك أنه كانت تعوزه القدرة على الحديث المنتظم ولم يكن في مقدوره أن يشعل النار ولم يكن هناك من يعلمه شيئًا من ذلك. وهكذا كان أقدم البشر مضطرين لأن يتعلموا كل شيء بأنفسهم عندما بدأوا في تلك الحالة. وكان سبيلهم إلى ذلك التجربة البطيئة والمجهود الطويل. لقد مرت أجيال طويلة على هذا الانسان وكان في ذهنه الهمجي شيء من شعاع الذكاء ولكنه لم يحقق شيئًا من هذه الاختراعات بل لم يفكر في أنه في استطاعة الإنسان أن يتمكن من إنتاجها. ثم جاء الوق الذي أخذ فيه يخترع كل أداة من هذه الأدوات مهما كانت

بسيطة لأنه لم يكن هناك شيء منها. وهكذا نرى أن قصة تاريخ الإنسان هي- إلى حد غير قليل- قصة الانتصار على الموارد المادية باستعمال حيل مختلفة وأدوتا وأشياء آلية، إذا ما أدخلنا في حسابنا النتائج التي ترتبت على اختراع هذه الأدوات في النواحي الاجتماعية والسياسية والفنية والدينية. لقد كانت قطعة الحجر التي استصلحها هذا الإنسان البدائي كسلاح في قبضة يده رمزًا مميزًا للعصر الحجري قبل مائتي ألف سنة مضت. كما أصبح البخار أو الأسطوانة الكابسة في الآلات التي تدار بالبترول رمزًا على عصرنا الحاضر[1].

لم يعد يعيش على سطح الأرض أي قوم على الحالة التي كان عليها يعيش أقدم البشر أي دون أن يكون لديهم أي علم بالأدوات أو الآلات. ولكن هناك بعض أقوام متأخرين يحيون حياة همجية وكانوا عند العثور عليهم يحيون حياة من أحط أنواع الحياة السائدة بين القبائل الهمجية، ويكادون يشبهون أسلافنا البدائيين.

ولنضرب مثلًا لذلك بسكان جزيرة تسمانيا[2] الذين انقرضوا الآن فقد كانوا عندما اكتشف الهولنديون جزيرتهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة يعيشون عراة الأجسام ولم يكونوا قد تعلموا بعد كيف يصنعون قوسًا أو

---

(1) كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية صحيحًا أما الآن فإن الاختراعات تقدمت كثيرًا وغطى استخدام الذرة على ما سبقه من اختراعات وأصبحت هي الرمز المميز لمصر الذي نعيش فيه- المعرب.

(2) جزيرة Tasnania تابعة لأستراليا وتقع إلى الجنوب منها يفصلها مضيق باسر Bass Strait اكتشفها الملاح الهولندي الشهير أبل تسمان Abel J. Tasman في عام ١٦٣٩- وهو الذي يرجع إليه الفضل أيضًا في اكتشاف نيوزيلاندا وجزائر فونجا وجزائر فيجي- المعرب.

سهامًا ولم يعرفوا صيد السمك إلى بوساطة استعمال الحربة. ولم يكن لديهم خيول أو حتى كلاب. ولم يسمعوا في حياتهم شيئًا عن بذر الحب أو زرعه ليخرج محصولًا من أي نوع. ولم يعرفوا أن الطين يصبح صلبًا إذا وضع في النار. وترتب على ذلك أنه لم يكن لديهم أوان أو أباريق أو أطباق من الفخار لحفظ الطعام. وبالرغم من أنهم كانوا عراة ولا مأوى لهم، فقد تعلم هؤلاء التسمانيون كيف يؤدون القليل من حاجات الإنسان، ومع ذلك فإن هذا القليل الذي تعلموه حملهم إلى الأمام مسافة غير قليلة تفوقوا فيها على الحالة التي كان عليها أقدم أفراد الجنس البشري. كان في استطاعتهم أن يوقدوا النار التي كانت تدفئ أجسامهم في أيام البرد، وكانوا يطهون عليها اللحم. وتعلموا كيف يصنعون حرابًا من الخشب كانت جيدة الصنع جدًا، ولكن لم يضعوا قطعة من المعدن في آخرها لأنهم لم يكونوا قد سمعوا به. بل كانوا يضعون في آخر هذه الحراب الخشبية قطعًا من الحجر بدلًا من المعدن وأحسنوا استعمال هذه الحراب، وكانوا يقذفونها بدقة عظيمة فيصيبون صيدهم الذي كانوا يحتاجونه للطعام ويطاردون بها أعداءهم من الناس. وكانوا يعرفون أيضًا كيف يأخذون حجرًا مسنونًا ويشذبون أطرافه ويجعلونها رقيقة فتصبح سكينًا استعملوها رغم أنها كانت غير متقنة وبدائية الصنع لسلخ الحيوانات التي اصطادوها وتقطيع لحومها. وكانوا مهرة جدًا في صنع فناجين وأواني وسلال من لحاء الشجر. لكن أهم من ذلك كله أنه كانت لهم لغة بسيطة تحتوي على كلمات لجميع الأشياء العادية التي استعملوها أو فعلوها في حياتهم اليومية.

عاش أقدم البشر عدة مئات من آلاف السنين حياة أقل حضارة من حياة التسمانيين، وقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة غير المتمدنية في كثير من أرجاء أوروبا وآسيا وإفريقيا، ولكن لا يعرف أحد في أي مكان تمت جميع المراحل التي ساعدت على تكوين الإنسان كما نعرفه الآن، أو بعبارة أخرى المكان الذي تمت فيه عوامل ما نسميه الآن بالنشوء وهناك أدلة لا بأس بها أيضًا على أنه نشأ في آسيا. وكان ظهور الانسان في ذلك الزمن البعيد الذي يسميه الجيولوجيون باسم البليوسين Pliocene أي منذ بضع ملايين من السنين، وكان في نشأته الأولى لا يكاد يختلف عما حوله من الحيوانات الأخرى التي عاش بينها. كانت هذه الحيوانات أقل ذكاء منه ولكنه شابهها في عدم تركه وراءه ما يبقى على مر الأيام ليدل على وجوده، فقد كان التقدم الذي رفعه إلى مستوى أعلى من مستوى الحيوانات المنافسة له يكاد لا يحس به أحد في البداية، كان بطيئًا جدًا، إذا استغرق التقدم الذي أوصله إلى عتبة الحضارة ملايين السنين كما استمر هذا البطء أيضًا بعد أن خطا تلك الخطوة وبعد أن أسرعت به اختراعاته وأدواته التي صنعها بيديه منذ مليون سنة على الأرجح.

واستطاع الآثريون في غرب أوروبا أن يجمعوا من مصادر متعددة ما مكنهم من كتابة قصة مفصلة جدًا لحياة الإنسان قبل ظهور المصادر المكتوبة، وجاءت الاكتشافات الحديثة في إفريقيا وآسيا وشرق أوروبا فأيدت إلى حد كبير النتائج التي وصل إليها زملاؤهم العلماء الذين كانوا يعلمون في غرب أوروبا، وهكذا أظهرت الأبحاث في كل المناطق التي كانت ميدانًا للبحث تشابهًا عامًا في تتابع مراحل التقدم الإنساني نحو الحضارة.

ولكن كيفما كان الأمر فمن الواضح أن مثل هذا التقدم لا يمكن أن يحدث في وقت واحد أو على وتيرة واحدة في أمكنة مختلفة في العالم. فمثلًا استطاع كل من سكان مصر وغرب آسيا من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربي أوروبا أية طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة. وكذلك استعمل المصريون وسكان غربي آسيا الأدوات المعدنية وكانت لهم صلة تجارية بغيرهم من الأمم بوساطة السفن في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون مازالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر، ولم يعرفوا على الأرجح أية وسيلة من وسائل الملاحة غير الزورق المنحوت في جذع الشجرة. ومع هذا فهناك أمر اتفق عليه جميع الباحثين وهو أن مراحل الحضارة القديمة التي كانت أساسًا لحضارتنا الحالية لم تنشأ في قارة أوروبا إنها تطورت في الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط في كل من مصر وغرب آسيا، ولكنه من الأسلم بل ومن الأفضل أن نتتبع قصة حضارة الإنسان في أقدم عصوره في كل بلاد البحر الأبيض بدلًا من تتبعها في قطر واحد لأن هؤلاء الناس عاشوا حول هذا البحر ثم انتشروا منه إلى داخل القارات فذهبوا شمالًا إلى البحر الشمالي وعبروا إلى الجزر البريطانية وانتشروا جنوبًا عبر إفريقيا في المنطقة التي نسميها الصحراء الكبرى واتجهوا أيضًا نحو الشرق حتى اجتازوا الخليج الفارسي.

كانت أراضي منطقة البحر الأبيض المتوسط عندما ظهر الإنسان مختلفة عما هي عليه الآن فكانت الغابات الشامخة على ضفتي مجاري الأنهار في أوروبا، وكانت تملأ كثيرًا من وديانها المتسعة، وكانت تغطي أيضًا أجزاء من هضبة الصحراء الكبرى التي كان أكثرها في تلك الأيام منطقة

خضراء وفيها المياه الكافية. وكانت أفراس النهر ذات الحجم الهائل تتمرغ على شاطئ تلك الأنهار، وكان وحيد القرن الشرس الطباع يهاجم ما يعترض طريقه في النباتات الكثيفة على جانبي الأنهار. وكانت هناك فيلة ذات أنياب هائلة الحجم ترعى إلى جانب ما بقى إذ ذاك من حيوانات. أما في أوروبا فإن أسلاف ماشيتنا الاليفة كانت ترعى في المرتفعات، وكانت أسراب الأيائل تأوي إلى بعض أشجار الأماكن الفسيحة في وسط الغابات. وكانت قطعان الخيل الوحشية تتجول هنا وهناك ووصل بعضها جنوبًا إلى إيطاليا. وكانت بعض الثدييات الافريقية ذات الحجم الضخم تتجول كما يحلو لها في كل مكان من أوروبا وإفريقيا ومن بينها الفيل الجنوبي (Elephas meridionalis) الذي كثيرًا ما يعثر على عظامه الآن فوق المنحدرات العليا لنهر السين (Siene) أو وادي التيمس (Thames) وهذا يثبت أن أفريقيا كانت متصلة بأوروبا في عصر ما، وأن هذه الحيوانات وصلت براً من الواحدة إلى الأخرى. أما الناس فكانوا يضربون في عرض غابات أشجار السيكويا (sequoia) محترسين عراة الأجسام يجمعون قوتهم اليومي من بين جذور النباتات والحبوب والفواكه البرية حيثما يعثرون عليها، ينصتون بحذر إلى صوت حيوانات الصيد الصغيرة التي عساها يحصلون عليها بمساعدة عصيهم الخشبية، لأنه يجب أن نفترض أنهم استعملوا مثل هذا السلاح الخشبي لأن الغابات كانت ملأي بفروع الأشجار الجافة التي سقطت على الأرض.

وفي هذا العصر الخشبي الذي زالت كل أدواته وأسلحته أحس الإنسان البدائي بأول دافع في هذا الكون بأنه في حاجة إلى تشذيب فروع

الأشجار التي سقطت على الأرض ليجعل منها أداة أو سلاحًا لتأدية غرضه، ومعنى ذلك أن أول مخلوق صنع الأدوات ولد في ذلك العهد، وكان بهذا الجد الأكبر لكبار المخترعين أمثال "وات" watt، و"اديسون" Edison.

وفي فترة من فترات التطور البدائي لهذا الانسان تطورت أيضًا إشاراته الصوتية المعبرة عن الخوف أو الجوع أو العطش أو الأسى إلى أبسط نوع من أنواع الكلام. فكانوا إذا أحسوا بضجة الحيوانات الكبيرة في الغابة أو لمحوا قطعان الفيلة آتية من بعيد يفرون مذعورين وهم يتصايحون لينبهوا إخوانهم. وفي الليل كان الصيادون ينامون في كل مكان أوصلهم إليه صيدهم، ينامون بعد تقطيع لحم فريستهم بمدى من الخشب على الأرجح ويأكلونها دون طهي، ولم يكونوا قد عرفوا النار ليدرأ بها الحيوانات المفترسة فكانوا يقضون ليلهم يرتجفون في الظلام عند سماعهم لزئير النمر الكبير ذي الأنياب الحادة. وأخيرًا عرفوا ما هي النار، عرفوها على الأرجح في الغابة عندما أصاب البرق شجرة فالتهبت، ولا بد أنهم تعلموا أيضًا كيف يخافونها عندما كانوا يقفون بعيدًا يورون البراكين المخيفة مثل "إتنا Etna" و"فيزوف Vesuvius" وكانت خطوة كبرى يوم. عرف هؤلاء الأوائل بعد وقت طويل كيف يشعلون نارًا بأنفسهم فاستطاعوا أن يعدوا طعامهم ويدفئوا أجسامهم ثم جعلوا نهاية حرابهم الخشبية أشد صلابة بوضعها في تلك النار. ولكن لم يستطيعوا أن يجعلوا سكاكينهم البدائية أكثر صلابة كما فعلوا بالحراب. وربما كانت نتيجة ذلك أنهم تعلموا صناعة هذه السكاكين من العظم، وكثيرًا ما التقطوا أيضًا حجرًا صغيرًا مكسورًا من حجر آخر واستعملوا حدة غير المشذب فيما يستعملون فيه تلك السكاكين من أغراض. وفي يوم من الأيام– وكان ذلك في أغلب الظن قبل مليون سنة تقريبًا– عرف الانسان كيف

يهذب الحجر ليصبح ملائمًا ليصبح ملائمًا لحاجته وصنع منه آلة بسيطة أو سلاحًا، وبهذا دخل فيما نسميه الآن العصر الحجري (Stone Age).



شكل ١: حيوانات العصر الحجري

تلك هي بعض الحيوانات التي نجدها في النقوش الملونة والرسوم التي تركها الإنسان الذي عاش في العصر الحجري. انظر أيضًا شكل ٦.

كانت هذه الأسلحة والأدوات الحجرية خيرًا مما سبقها فلم تتعفن ولم يقض عليها الزمن مثل مثيلاتها من الخشب والعظم، وبقيت إلى الآن، وأصبح في ميسورنا أن نقبض بأيدينا على الأدوات الحجرية نفسها التي تمكن بواسطتها أوائل الناس من الاحتفاظ بوجودهم أثناء نضالهم المستمر ليحصلوا على القوت ويجدوا مكانًا بين مناوئيهم من الحيوانات الضخمة اليت كانت حولهم، وأوضحت لنا هذه الأدوات الحجرية وبقايا أجسام الأوائل التي عثر عليها في الطبقات الجيولوجية في صورة لا تقبل الشك مدى الزمن الطويل الذي مضى على الإنسان منذ ظهوره في هذه الدنيا، وكان من المفروض حتى وقت قريب أن التاريخ الإنساني كان قصيرًا نسبيًا. وكان من المفروض أيضًا أن أجدادنا الأقدمين في أوائل وجودهم على الأرض لم يخلفوا وراءهم ما يدل عليهم. فنحن نعرف مثلًا من خطاب مؤرخ في عام ١٧١٤ أن صيدلياً عثر على عظام فيل في بقعة ملأى بالحصى على مقربة من لندن، وإلى جانب هذه العظام وجد أيضًا سلاحًا من الظران. وقد نشر هذا الخطاب عقب الاكتشاف مع رسم لهذا السلاح الحجري واستنتج الكاتب أن ذلك الحيوان لم يكن إلا فيًا من الأفيال التي كان يستعملها الرومان في الحرب وأنهم أتوا به إلى تلك البلاد، ولم يلق...



شكل ٢: جماعة من هنود أمريكا الشمالية يصنعون آلات الظران

يقوم الشخص الأخير في الصورة بانتقاء حجر كبير، وتلك هي المادة الأولية التي يأخذها الهندي الذي في الوسط ليحطمها فوق صخرة إلى قطع صغيرة. ويأخذ الهندي الثالث احدى تلك القطع بعد ذلك في يده اليسرى ويضربها بحجر في يده اليمنى، فتتناثر شظايا الظران وقد برع ذلك الهندي في عمله وأصبح من السهل عليه أن يشكل تلك القطعة إلى فأس من الظران. وكانت هذه العملية، وهي عملية تشكيل الظران بوساطة الطرق أو القرع هي أقدم الطرق وأكثرها سذاجة، وكانت لا تنتج إلا الأدوات الحجرية الخشنة الصنع.

...أحد بالاً إلى هذا الاكتشاف وسرعان ما نسيه الناس. وفي مدى قرن من الزمان بعد ذلك تكرر العثور على أمثال هذا الاكتشاف سرًا في

إنجلترا أو في القارة الأوروبية وكان مصيرها أيضًا النسيان. وظل الأمر كذلك حتى عام ١٨٦٠ أي بعد مضي ما يقرب من قرن ونصف على العثور على هذا الاكتشاف. ففي ذلك الوقت فقط تفتحت عيون العلماء على حقيقة طول فترة وجود الانسان على سطح الأرض، وعرف العلماء أن الانسان خلف وراءه كثيرًا من تلك الأدوات الحجرية منذ مليون سنة[١] على الأرجح وعرفنا من دراسة هذه الأدوات كيف كان هذا الانسان يحسن وسائل حياته وذلك من تقدمه في صناعة وتشكيل الأحجار واطراد التحسن في الصناعات الأخرى التي بدأ يتعلمها. كانت أوروبا وخاصة فرنسا أولى البلاد التي بدأ فيها بحث العلماء عن أدوات ومخلفات الانسان الذي عاش في العصر الحجري. إذ ترك الصيادون الأوائل بعض آلاتهم الحجرية البدائية وأسلحتهم جنبًا إلى جنب مع عظام الحيوانات الكبيرة التي قتلوها. وبقى كل ذلك في الرمال والحصى على جوانب مرتفعات الوديان التي كانت تجري فيها أنهار فرنسا قبل أن تعمق مجراها. وعثر الحفارون في

---

(١) أثبتت أبحاث بعثة دراسات ما قبل التاريخ التي قام بها المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو في مصر أن المرحلة الأولى التي بدأ الانسان يصنع الأدوات ترجع إلى فترة البليو- بليستوسين (Plio-pleistocene) أي إلى العصر الذي يسبق مباشرة بداية البليستوسين أو العصر الجليدي أما الجيولوجيون الأمريكيون فيرون أن منطقة أعالي نهر المسيسبي هي خير مكان في العالم لدراسة العنصر الزمني في العصر الجليدي. وقد وصل الدكتور جورج كاي George F. Kay بعد دراسات طويلة متصلة وخاصة في قطاعات في ولاية أيوا (Jowa) إلى القول "ويلوح أنه أمر محقق إذا قلنا أن عصر البليستوسين (أي عصر الجليد) استمر مليون سنة وربما ضعف هذا الوقت" (انظر خطابه كنائب رئيس الجمعية الجيولوجية الأمريكية George F. Kay, Classification and Duration Bulletin of Geological Society of America, vol. 42 (1931) p. 46.

ولكننا يجب أن نضع في ذهننا أن ما وصلت إليه معلوماتنا في البحث في هذا الموضوع لا يكفي لوضع تاريخ محدد لا يحتمل الشك.

فرنسا على الكثير من مخلفات الحياة في العصر الحجري. وكانت كثيرة إلى حد جعلهم ينشئون مجموعات في المتاحف لتلك الأدوات الحجرية، وظهر بعد ذلك الكثير من أمثالها وبنفس الكثرة أيضًا في ممالك أوروبية أخرى، وهكذا كان الأمر في شمال أفريقيا إذ عثر الباحثون على آلات حجرية في منطقة تبدأ من الجزائر إلى أسفل وادي النيل، وفي آسيا أيضًا على امتداد الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

وبالرغم من أن هؤلاء الأوائل من بني الانسان كانوا على ما يظهر يموتون بكثرة نتيجة لحياتهم المحفوفة بالمخاطر فإنهم استمروا آلاف السنين في كفاح مر لأجل البقاء، وتحسنت أسلحتهم البدائية المصنوعة من الحجر، وكان هذا التحسن بطيئًا، ومن المحتمل أنهم تعلموا أيضًا كيف يصنعون أدوات أخرى من الخشب، ولكن الأخيرة تعفنت واختفى أثرها ولم نعد نعرف شيئًا عنها.

لم يكن هناك حيوان لم يجد فيه هؤلاء الصيادون عدوا لهم، وكان عليهم أن يجردوا كلاً من أسلحتهم الصغيرة ومكرهم ليحاربوا بها قوة الحيوانات ومكرها. لم يكن هناك حتى ذلك العهد كلب أو شاه أو طير يعطفون عليه، إذ كان سلف هذا الكلب الأليف ما زال حيوانًا مفترسًا شبيهًا بالذئب يعيش في الغابة يثب على كل صائد لا يكون على حذر. وكانت أسلاف حيواناتنا الاليفة بوجه عام تتجول في الغابات في حالة وحشية. ولكن مع كل هذه الصعاب ورغم كل ما كان يعوق طريقه في سبيل البقاء فقد كان ذلك الانسان الذي عاش في عصر البليستوسين

أسعد حظًا من أخيه الذي جاء بعده، وذلك أنه كان يعيش في جو دافئ معتدل حيث كان جمع القوت أمرًا سهلاً ميسورًا.

العصر الجليدي الكبير والانسان في العصر الحجري القديم

كانت الأرض في ذلك الوقت غنية بحيواتها ونباتها ولكنه كان مقدرًا لها أن تمر بفترة من أحرج الفترات في تاريخها. كانت هناك عمليات تكوين في الجبال وحركات أرضية فيعصر البليوسين Pliocene ولما كانت هذه العمليات مرتبطة بتغيرات مناخية هامة تأتي على أثرها فإن نتائجها كانت دائمًا وخيمة العاقبة. ولم يكتشف الجيولوجيون والمناخيون حتى الآن السبب الذي جعل المناخ يصبح أشد برودة وأكثر رطوبة مما كان عليه منذ آلاف السنين، وتساقطت الثلوج بكثرة وخاصة على قمم الجبال نتيجة لهذا التغير وبدأت تلك الثلوج تتراكم وتنتشر حول مراكز سقوطها. وفي النهاية تكونت طبقات هائلة من الثلج فوق الأرض تقدر مساحتها على سطح الأرض بنحو ١٢ مليون ميل مربع. وفي العصر الذي بلغ فيه الثلج أقصاه يرى بعض الباحثين أن الثلج امتد عبر أمريكا الشمالية وجنوبًا حتى جزيرة لونج (Long Island) وغربًا حتى وديان أوهيو (Ohio) وميسوري (Missouti) وفي أوروبا وآسيا وصلت حواف الطبقات الجلدية الشمالية العظيمة إلى الساحل الجنوبي لإنجلترا وامتدت جنوبًا وشرقًا عبر أوروبا حتى خط عرض ٥٠ في وادي الدنيبر Dnieper، ومن هناك اتجهت شمالًا وشرقًا إلى جبال أورال. ويظهر أن مساحات أخرى من الثلاجات زحفت من جبال البرانس (Pyrenees) والألب وجبال الكاربات Carpathians

والبلقان في أوربا، ومن سواحل آسيا الصغرى، ومن لبنان والقوقاز والزاجروس (Zagros) وغير ذلك من جبال إيران في غرب آسيا ومن القمم المرتفعة في وسط آسيا.

أما في نصف الكرة الجنوبي فإن الثلاجات تركزت في القارة المتجمدة الجنوبية. وسنطلق على هذا العصر الجليدي، اسم "العصر الجليدي الأعظم" تفرقة له من عصور جليدية أخرى حدثت في فترات سابقة من تاريخ لأرض.

ويعمل الجيولوجيون على تحديد حركات وامتداد طبقات الجليد من الآثار التي خلفتها. ومثل هذه الظواهر– ظواهر تحركات طبقات الجليد– توجد في الوديان المتكونة من تآكل التربة. وتوجد مثل هذه الدلائل عن تحركات الغطاء الجليدي في أماكن وجود الصخور المتنقلة، وتوجد أيضًا في طبقات الطين المتراكمة فوق بعضها أو في المستويات المتوازية المحفورة في الصخور التي مرفوقها الغطاء الجليدي.

ومن النتائج التي وصل إليها العلماء في دراسة مجاري الثلاجات، القطع بوجود عدة عصور جليدية تفصل بينها فترات أدفأ عندما ذابت الثلوج تمامًا أو قلت نسبيًا. ويختلف الجيولوجيون الآن في تحديد عدد العصور الجليدية إلا أنهم متفقون في وجود اختلاف في المناخ أثناء العصر الجليدي الأعظم وما تلا ذلك خلال نحو مليون من السنوات عندما كانت الطبقات الجليدية تزحف وتتراجع مرات عدة. ومن الواضح أن المساحات

المحيطة بالطبقات الجليدية كانت شديدة البرودة، ولكن بالرغم من هذا فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من فرنسا والنمسا وألمانيا لم تكن مغطاة بتاتًا بالثلوج وأن كثيرًا من رواسب الفترات التي تخللت العصور الجليدية تحتوي على بقايا حيوانات مما تعيش في المناطق المعتدلة أو النصف استوائية مثل فرس النهر والأسد في إنجلترا والجمل وحيوان التابير (tapir) في جنوب أمريكا الشمالية. وفي خلال الفترات التي فصلت بين العصور الجليدية كان مناخ أوروبا وأمريكا الشمالية دافئًا كما هو الآن. وعلى هذا يمكننا القول بأن مساحات كبيرة من أمريكا الشمالية وأوروبا كانت آهلة بالسكان طوال العصر الجليدي الأعظم الذي يطلق عليه الجيولوجيون اسم بليستوسين Pleistocene.

وكان زحف الجليد سببًا في جعل حياة الناس الأوائل شمال حوض البحر الأبيض المتوسط شديدة قاسية، ومن الجائز أن هؤلاء الأوروبيين الأقدمين تقدموا كثيرًا في ثقافتهم في الفترات التي توسطت عصور الثلج، وإذا فحصنا خريطة لشمال إفريقيا فإننا نرى، في المنطقة الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط لا توجد إلا مساحة واحدة من تلك المساحات التي كانت تغطيها الثلوج وهي التي تقع في أقصى الغرب في المنطقة المجاورة لجبال أطلس. ومن ثم لم تزحف الثلوج على الهضبة المستوية في شمال إفريقيا وهي المنطقة التي نسميها الآن هضبة الصحراء الكبرى. ومن المحتمل أن نفس الرطوبة الجوية التي كونت الثلاجات الهائلة على الجانب الشمالي للبحر المتوسط كانت هي العامل نفسه الذي سبب سقوط أمطار غزيرة على الجانب الجنوبي فوق تلك الهضبة، وكان من أثرها نمو المراعي

والغابات والأحراش في أجزاء كثيرة منها. ومن المحتمل أن الصيادين تتبعوا الحيوانات عبر هذه الأراضي الخصبة في شمال إفريقيا كما هو الحال الآن في الهضاب الواقعة في سوط جنوب إفريقيا. وكان هؤلاء الصيادون الأوائل يسيرون وراء الحيوانات إلى المجرى الذي حفره نهر النيل عبر الحد الشرقي للصحراء. وكان النيل في ذلك العهد أوسع بكثير مما هو عليه الآن. وكان مثل نهر الميسوري (Missouri) يغير مجراه ولا يرجع إلى مجراه القديم مرة أخرى. وقد كشف البحث منذ وقت غير بعيد عن أحد المجاري الجافة لهذا النيل القديم الذي يبلغ طوله أكثر من ٥٠ ميلًا موازيًا لمجرى النهر الحالي. وعند الحفر في تراب مجراه إلى عمق أكثر من ١٨ مترًا وجد الأثريون بعض أسلحة حجرية للصيادين الأوائل من الهضبة المستوية (الصحراء الكبر) فقدوها أثناء بحثهم عن الحيوانات على ضفاف النهر، وكان ذلك منذ مليون سنة على الأرجح.

وتسمى أقدم الآلات التي صنعها الإنسان باسم الباليوليتية Paleoliths ويسمى الأثريون الوقت الذي صنع فيه الإنسان هذه الأدوات بالعصر الباليوليتي أو العصر الحجري القديم. وإذا أردنا تحديد مكان هذا العصر بين العصور الجيولوجية منن تاريخ الأرض فإننا نرى طبقات البلايستوسين Pleistocene strata في الطبقات الباليوليتية Paleoliths في جميع الأراضي الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط. وعلى هذا فإن العصر الحجري القديم للإنسان اتفق مع كثير من فترات العصر الجليدي الأعظم، وتلك الأدوات الباليوليتية مصنوعة من الظران، وكانت تهذب لتأدية الشكل المطلوب بطريقتين: أولاهما وأقدمهما طريقة الطرق

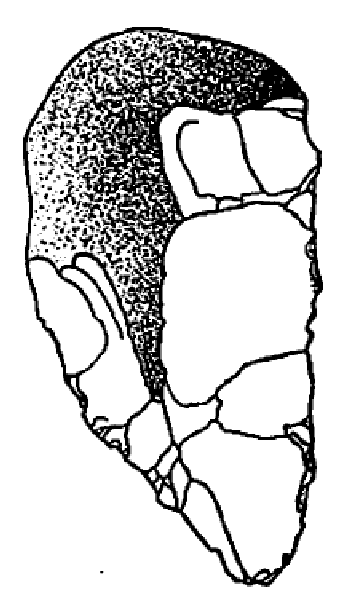
أي شظف قطعة بضربات من قطعة أخرى، وثانيتهما الطريقة الأحدث وهي الضغط وذلك باستعمال قطعة صلبة من العظم أو القرن لتهذيب جانب واحد ثم يلي ذلك تهذيب الجانبين معًا[1]. ومن أهم الأدوات التي تميز أدوات العصر الباليوليتي نوع من الفؤوس هو أقدم الآلات اليدوية الثقيلة. وهذا النوع هو ما اصطلح الأثريون على تسميته باسم "قبضة اليد" (Coup de poing) وقد وجد الكثير من الفؤوس في الحصى في كثير من المناطق حول البحر الأبيض المتوسط كما وجدت أيضًا في كثير من الأجزاء الأخرى في الكرة الأرضية. وكانت فؤوس قبضة اليد أوسع اختراعات الانسان انتشارًا. وهناك أدوات أخرى مصنوعة من الظران صنعها الانسان الياليوليتي واستعملها كمخارز ومكاشط ونصال وسكاكين وأسنة (ربما كانت تستعمل ليرموا بها ما يريدون صيده) ومقاطع ومطارق.

وإذا أردنا دراسة حالة الإنسان الباليوليتي من الناحية الاجتماعية أو الصناعية نجد أنه ينتمي إلى المجموعة التي يطلق عليها علماء الأجناس البشرية اسم "جامعي الغذاء". وهم البدائيون الذين يأخذون ما تهبهم الطبيعة ولا يعلمون شيئًا ليزيدوا الإنتاج الذي يأتيهم من الطبيعة. وكان الرجال يجلبون إلى بيوتهم اللحوم التي حصلوا عليها من الصيد، أما النساء فكن يجمعن الفاكهة والحبوب التي يجدنها نامية. وبالرغم من أن هؤلاء الناس لم يكونوا يعيشون في أماكن ثابتة ويتجولون عادة لجمع القوت من مكان لآخر بعد أن يستنفدوا ما فيه من قوت، إلا أنه من الطريف أن نجد

---

(1) عند اكتشاف جزيرة تسمانيا كان سكانها يصنعون أدواتهم كما كان يصنعها الذين عاشوا في العصر الحجري القديم.

في أوروبا الباليوليتية بعض أماكن استمر الإنسان في سكناها عصرًا بعد عصر وإذا أردنا معرفة السبب الذي جعل هؤلاء الناس يعيشون في تلك الأماكن فإننا نرى أن السبب الرئيسي ربما كان البرد الشديد وقلة الكهوف والمأوى الصخرية الدافئة الجافة. كما أن هناك سببًا آخر لاستمرار وجود أمثال هؤلاء الناس في أماكن معينة هو وجود الظران الذي يصنعون منه أدواتهم، وهكذا أصبحت بعض الكهوف والمأوى الصخرية سجلًا لتقدم الإنسان الذي عاش في ذلك العصر، وذلك عند حفر طبقات تلك الكهوف ودراسة ما تركه ذلك الإنسان منذ اليوم الذي تمكن فيه من تشكيل أدوات الظران.



شكل ٣: فأس قبضة اليد وجدت في مجرى قديم من مجاري نهر النيل

هذه الآلة كان يقبض عليها باليد من الناحية الأكثر سمكًا ولم يكن لهذه الفأس يد بالمرة. والفأس التي تبدو في الصورة يبلغ طولها نحو ١٨ سنتمترًا. وقد عثرت عليها بعثة المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو

وفي هذه الأماكن الباليوليتية وجدت مدافن تحوي بقايا آدمية وأدوات شخصية للزينة وأسلحة أو آلات– وربما كانت هذه الأخيرة لأجل الحياة الأخرى بعد الموت. وترينا هذه المدافن أن الرجل الباليوليتي لم يكن حيوانًا مفكرًا وحسب بل أن بقايا عظامه ترينا أيضًا بعضًا من خصائصه الجثمانية، إذ ثبت لنا من قامته القصيرة (١٤٢– ١٦٠سم) ومن وضعه المنحني ورأسه إلى الأمام ومن أرجله القصيرة وجبهته المتراجعة، ومن البروزات الظاهرة فوق عينيه، ومن أنفه العريض وفكه البارز أنه كان صورة للإنسان في مرحلة من مراحل تقدمه، تلك هي صورة إنسان النياندرتال (Neanderthal Man) الذي أخذ تسميته من إحدى المناطق الألمانية حيث عثر على مثل من أحسن الأمثلة التي تحمل طابعه في سنة ١٨٥٦. عاش رجل النياندرتال آلاف السنين وتطورت حياته بالتدريج إلى أن جاء الوقت الذي نجد فيه رجل الأوريجانس (Aurigancian Man) نسبة إلى كهف أوريجانس في فرنسا حيث عثر على سبعة عشرة جثة منه تختلف فيما بينها ولكنها جميعًا أطول قامة وأكبر من النياندرتالين ولكن واحدًا من هذه الأنواع الأوريجانسية كان غير طويل القامة إذ لم يزد عن ١٦٧ سم بينما نجد نوعًا أوريجانسيًا آخر اسمه "كرومانيون" (Cro-magnon man) نسبة إلى المغارة الفرنسية التي تحمل هذا الاسم، تصل قامته أحيانًا إلى ١٩٥ سم وليس هناك أي ظل من الشك في أن هؤلاء الأوريجانسيين أقرب إلى الإنسان كما هو الآن.

كان الصيادون الآوريجانسيون أكثر حنكة ومهارة ممن سبقهم من النياندرتاليين. عرفوا كيف يشظفون أدواتهم المصنوعة من الظران بإتقان

وتناسب أكثر من ذي قبل. وكانت نصال سكاكينهم الصوانية ذات الحواف المشطوقة حادة لدرجة تكفي لتقطيع وتشكيل العظم والعاج وخاصة قرون أيل الرنة (Reindeer). وأمد حيوان الماموث (mammoth) هؤلاء الصيادين بالعاج، وعندما احتاجوا للقرون وجدوا قطعاناً عظيمة من الرنة دفه بها الجليد نحو الجنوب، وهكذا أصبحت الرنة في ذلك الوقت من أكثر الأشياء التي اعتمد عليها الانسان، إذ استعمل الجلد للملبس واللحوم للطعام والقرون والعظام للأسلحة مما حدا بعض الباحثين لأن يطلق على هذا العصر "عصر الرنة" واستطاع الصيادون أن يصنعوا أسنة ذات شعب بفضل ما كان لديهم من أدوات. وكانوا يربطون خطافات الصيد...



شكل ٤ : منظران لرامية حراب واحدة، كان يستعملها صياد باليوليتي

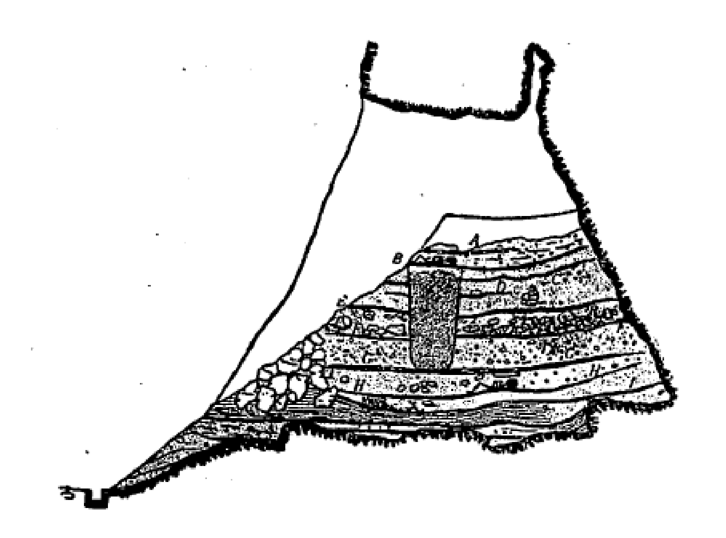
١ –كما ترى من الامام ب–كما ترى من الجنب وهي محفورة من قرن الرنة وفيها الرأس والأرجل الأمامية لتيتل Ibex. لاحظ الخطاف في قمة ب لامساك الهدف الذي تصوب نحوه الحربة. ورامية الحربة والقوس هما أقدم مخترعات الانسان لقذف أسلحته بسرعة

...إلى حراب خشبية طويلة، وكان يحمل كل فرد منهم حول وسطه خنجرًا حادًا من الظران. وفي تلك الفترة اخترع الإنسان القوس والسهم أيضًا لأننا نجد رسمًا على الصخور تصور الصيادين وهم يستعملونها، وتوصلوا بذكائهم إلى صناعة ما يمكن أن نسميه مقدم الحربة، وكانت من

قرن الرنة، وكانت تستعمل لضمان عدم تقوس الحراب أو السهام. وتوصلوا أيضًا إلى اختراع ناجح يوم تمكنوا من صناعة أداة من القرن أو العاج مكنت الصائد من رمي حربته الطويلة إلى مسافة أبعد وقوة أكثر من ذي قبل. وتدلنا شصوص الصيد والخطاطيف على أن رجل العصر الحجري بدأ يكون صيادًا للسمك كما كان صيادًا للحيوانات. وتدلنا الإبر العاجية الدقيقة الصنع على أن هؤلاء الناس تعلموا أن يقوا أنفسهم من البرد ومن أشواك النباتات البرية وذلك بوساطة ملابس كانوا يحصلون عليها بخياطة جلود الحيوانات المقتولة إلى بعضها. وبذلك أصبح صيادوا العصر الباليوليتي المتأخر أعداء أقوياء بالنسبة للحيوانات إذا قارناهم بمن سبقوهم. وقد استطاع الأثريون أن يخرجوا من كهف واحد في صقلية عظام ما لا يقل عن ألفين من فرس الماء التي كان الصيادون قد قتلوها. وفي فرنسا قتلت جماعة من هؤلاء الناس خيولًا برية كثيرة لطعامهم لدرجة أن العظام التي ألقوها حول محلة نيرانهم تجمعت في أكوام، وفي النهاية كونت طبقة يبلغ سمكها ٦ أقدام في بعض الأماكن، وتغطي مساحة قدرها ٤٠٠٠٠ قدم مربع وهي مساحة مساوية تقريبًا أربعة مربعات في إحدى المدن الحديثة مساحة كل منها ٥٠ × ٢٠٠ قدم مربع. عثر الحفارون في مثل هذه الأماكن على البوق الكبير الحجم الذي كان يستطيع الصياد بواسطته أن يعلن عودته لأسرته الجائعة التي تنتظره في الكهف. وعند وصوله إلى هناك كان يجد مسكنه وقد أحاطت به أكوام كريهة من النفايات. ووسط الروائح الكريهة المتصاعدة من اللحوم المتعفنة كان هذا الأوروبي المتوحش يزحف داخل الكهف الذي كان يتخذه مسكنًا بالليل،

غير مدرك أنه على عمق أقدام تحت أرضية مغارته تتجمع بقايا أجداده طبقة فوق طبقة بفعل آلاف السنين.

وبالرغم من الظلام والوحشة اللذين كانا يكتنفان حياتهم اليومية فإن هؤلاء الصيادين البدائيين كانوا على وشك اقترابهم من الشعاع العظيم الذي ينير النفوس. فعندما كان كل واحد منهم يستلق ليلًا في مغرته كان يستطيع أن يغلق عينيه ويرى في مخيلته صورة الحيوانات الهائلة التي كان يتبعها طول النهار. وبالمثل كان يستطيع أن يسترجع في ذهنه صورة أشجار غريبة تذكره أشكالها بحيوان من الحيوانات. أو كان يرى وهو يتقلب صورة كتلة بارزة من الصخر في مغارته تشبه في هيئتها شكل الحصان. وهكذا ظهرت في عقله فكرة المشابهة تدريجيًا (الحيوان والشجر التي تشبهه...



شكل ٥: قطاع يبين طبقات الرديم والبقايا الإنسانية في كهف من العصر الباليوليتي

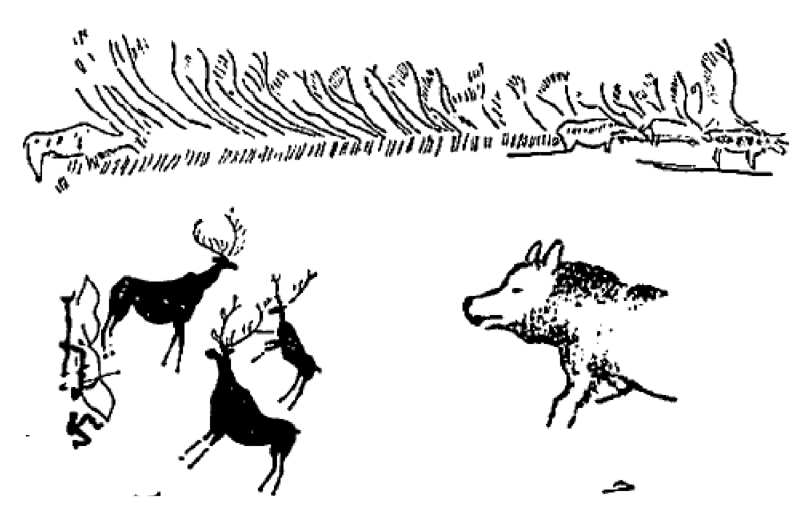
وهذا الكهف في جريمالدي Grimaldi على الساحل الإيطالي للبحر الأبيض المتوسط. يوجد المدخل في اليسار والجدار الخلفي في اليمين ونرى الأرضية الصخرية في القاع وفوقها طبقات الرديم التي يبلغ عمقها ٣٠ قدمًا وتمثل الخطوط السوداء التي بين A .I طبقات الرماد و.. الخ. وهي مخلفات تسعة أماكن نيران تعاقبت وراء بعضها، ولا بد أن الأهالي استعملوا كل واحد منها سنين طويلة وتتكون الطبقات الأكثر سمكًا (المظللة تظليلًا خفيفًا) من عظام الحيوانات والنفايات والصخور التي سقطت من سقف المغارة على مر السنين. وتحوي الطبقات السفلى (تحت I) عظام الكركدن (وهي تدل على المتاخ الحار بينما احتوت الطبقات العليا على عظام الرنة (وهي تدل على مناخ بارد). وقد عثر المكتشفون على خمسة مدافن في الطبقات B, C, H, I احتوت الطبقة .C على جثتين لطفلين. وكان المدفن الذي في أعمق طبقة (في I) أعلى عمق ٢٥ قدمًا من سطح الرديم في الكهف. وبعد أن نشر المكتشفون هذا الرسم حفروا أمام الكهف فوجدوا على عمق ٦٠ مترًا تحت السطح الأصلي للرديم أدوات من الظران وغير ذلك مما خلفه الناس الذين عاشوا هناك (عن ديشليت Dechelette)

.... والجواد والصخرة المستديرة التي تماثله) واستمر هذا التفكير وبدأ يلاحظ أنه يجب عليه أن يعمل على زيادة مشابهة الصخرة البارزة بيديه لتصبح أكثر مشابهة للحصان. ثمن استطاع أن يقلد شكل شيء معين بتشكيل شيء أخر يشبهه. وبهذه الطريقة أمكن لعقله أن يعي التقليد، وفي هذه اللحظة ولد الفن، ودخلت نفس الانسان في عالم جديد

جميل مملوء بنور لم يضئ حياته من قبل. كان جسده يتطور منذ عصور، ولكن هذا الاكتشاف الجديد الذي وصل إليه وهو أنه يستطيع أن يخلق أشكالًا جميلة مستوحاة من الصور التي في ذاكرته جعلت عقله يرتفع إلى مستوى عال جديد. ومن الأشياء التي عثر عليها الباحثون بعض رسوم على أحجار صغيرة صنعها أناس مبتدئون محاولين أن يتعلموا الرسم. وهذه الرسوم السريعة تشبه التمرينات الحديثة التي تعلم في الاستديوهات، وما زالت التصحيحات التي خطتها يد أستاذ متمرن ظاهرة عليها.

وقد عرفنا الكثير عن هذا العصر الانشائي من حياة الانسان في عصور ما قبل التاريخ، من المجموعات الهامة من الأعمال الفنية التي اكتشفت في الأماكن الياليوليتية. يتخذ هذا الفن، من ناحية، شكل الحفر والنقش عل العظم والعاج والقرون وكذلك الرسم على قطع من الحجر يمكن حملها. وكان بعض هذه الأشياء مفيدًا في الاستعمال مثل رامية الحراب وخطاطيف الصيد واللوحة التي يضع عليها الفنان ألوانه، بينما كان بعضها الآخر لمجرد الفن فقط مثل الرسوم المحفورة على ألواح من الحجر الجيري أو قطع متفرقة من العظم أو العاج. وتبدو النقوش والرسوم الكبيرة التي تزين جدران الكهوف والمساكن الصخرية في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا أجمل مظهرًا ولكنها ليست أكثر أهمية من الأشياء الأخرى. وقد ذكر بعض الباحثين أنه توجد على الصخور التي في الهواء الطلق في شمال أفريقيا من لجزائر عبر الصحراء شرقًا إلى أعلى النيل رسوم مماثلة. وكل هذه الرسوم غاية في الجمال ولكن يضارعها في الروعة معرفة الرجل الباليوليتي للألوان. فقد استعمل منها الأحمر والأصفر والأسود. وكانت الألوان الجافة المسحوقة (البودرة) تحفظ في أنابيب صغيرة مصنوعة من العظام المفرغة عثر على بعض منها في الكهوف. ومن ضمن الأشياء التي وصلت إلى أيدينا،

وكانت مما استعمله الفنان الباليوليتي في عمله، مدقات لسحق الألوان ولوحات لوضع الألوان عليها، وحفارة من الظران يظهر أنها تركت في مكانها الأصلي إلى جانب نقش على جدار الكهف، وترينا كل هذه المخلفات إلى أية درجة عالية من المهارة في الأسلوب وصل الانسان الباليوليتي بعد أن مر بمراحل التطور، وترينا كذلك كيف ساعدته مهارته على أن يشعر بجمال الحياة أكثر من قبل. ولكن الانسان الباليوليتي ذهب في حضارته إلى أبعد من ذلك، إذ أنه عندما اعتدل المناخ في أوروبا اختفى الانسان الباليوليتي واختفت معه صناعاته.

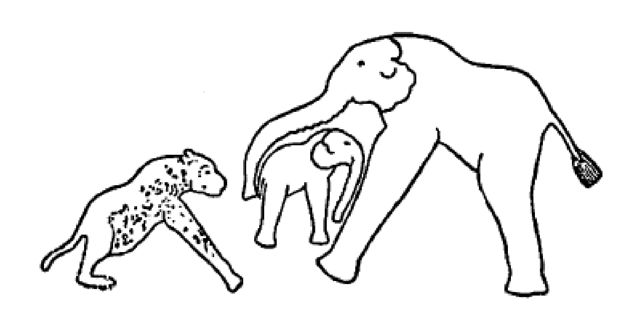


شكل ٦: أمثلة من فن العصر الحجري

وجد قطيع الرنة المرسوم في أ منقوشًا على عظمة من جناح صقر. وهذا الرسم يبين لنا أن الفنانين الأوائل كانت لديهم فمرة عن التكوين في الفن، وكانوا قادرين على رسم مجموعة من الحيوانات تشعرنا بعدد ضخم وبطريقة تقرب من الطريقة الحديثة في الرسم. وفي ب يمثل منظر صيد رسمه الانسان الباليوليتي على مأوى منحوت في الصخر بعد أن اخترع القوس. أما رسم الذئب في ح فإنه منقول عن منظر في كهف في فرنسا (عن بري Breuil)

ومن الجائز أن الحضارة تقلصت بعد فترة تقدم عظيم كما حدث بعد ذلك مرات عدة في التاريخ. ومن ناحية أخرى نرى أن تغير المناخ سبب تغيرًا في الحيوانات والنباتات، ففي أوروبا تراجعت الرنة والحيوانات الأخرى التي تعيش في البرد نحو الشمال وامتلأت غابات البلوط الكثيفة بمجموعة مختلفة تمامًا من الحيوانات كالأيائل والثور الوحشي والخنزير البري، وأصبح الصيد بدون شك أكثر صعوبة، ومن الجائز أن ذلك العصر كان عصر هجرة كثيرة، وأخذ الباليوليتيون يتجولون بعيدًا عن مساكنهم ليبدأوا الحياة في أي مكان يصلون إليه قبل غيرهم. وكيفما كان الحال فإن الآثار الحضرية لهذا العصر الذي جاء مباشرة بعد العصر الجليدي في أوروبا، تدعو إلى الأسف فهي تكشف لنا عن حياة فقيرة وفقًا لمجموعات متفرقة من الناس كان أكثرهم يتعيشون من صيد السمك أكثر من صيد الحيوانات. وربما كان أكثر ما يدعو إلى الاهتمام هو آثار حياة هؤلاء الأوائل في اسكندويناوه حيث نجا الجزء الجنوبي منها من الغطاء الجليدي الشمالي وكان صالحًا لإقامة الناس قبل ١٠٠٠٠ سنة تقريبًا[١].

([١]) أحصى البارون جيرارد دي جير العالم الجيولوجي السويدي وتلاميذه طبقات الطين التي أرسبتها الطبقة الجليدية أثناء تقهقرها نحو الشمال عبر اسكندويناوة في نهاية العصر الجليدي. ويعتقد أن كل طبقة تمثل الطين الذي أسقطه طرف الغطاء الجليدي في كل صيف، وبهذه الكيفية حصلنا على تقدير عشرة آلاف سنة.



شكل ٧: رسم على صخر في شمال أفريقيا يمثل أنثى فيل تحمي صغيرها من هجوم نمر

الفيل الأم تلف خرطومها حول صغيرها لتبعد عنه النمر الذي يتأهب للانقضاض عليه. ولم يكن مثل هذا الموقف يدوم أكثر من ثوان قليلة ولكن عين الصياد الأفريقي الشمالي التقطت المنظر، ومن الجائز أن يكون قد رسم رسمًا سريعًا له ثم رسمه كبيرًا بعد ذلك على احدى الصخور الهائلة في جنوب الجزائر. ووجود مثل هذا المنظر في أكثر مناطق الصحراء جدبًا يعتبر دليلًا على أن الهضبة الصحراوية كانت منذ آلاف السنين منطقة خصبة تتمتع بأمطار غزيرة

(عن أوبر ماير وفروبنيوس Obermaier-Frobenius)

وبينما نحن نفترض حدوث عصر هجرة بين أقوام أوروبا بعدد العصر الجليدي، فإننا نملك الدليل القاطع على أن الأقوام الذين عاشوا جنوب البحر الأبيض المتوسط اضطروا لأن يهاجروا من الهضبة التي تخذوها مكانًا لهم ليبحثوا عن مقام جديد وأساليب جديدة للمعيشة. وفي وقت ما في العصر الجليدي بدأت الأمطار التي طالما سقطت بكثرة على شمال إفريقيا تتوقف عن الهطول. وبالرغم من أنه لم يعرف بعد السبب الحقيقي في قلتها وندرة سقوطها فإن نقصان المطر كان سببًا في جفاف هضبة الصحراء الكبرى بالتدريج.

واختفت تدريجيًا بعد ذلك نباتاتها التي جفت. وبعد بضعة آلاف من السنين تحولت الهضبة الأفريقية الشمالية إلى الصحراء الجرداء التي نعرفها الآن.

وكان وادي النيل في هذه الفترة ذا منفعة حيوية لهؤلاء الصيادين الذين كانوا يعيشون في تلك الهضبة الصحراوية. ووادي النيل ليس إلا مجرى أو شقاً بين جبلين لا يزيد اتساعه في أي مكان عن خمسين كيلو مترًا تحف به من الجانبين صخور يختلف ارتفاعها من بضعة مئات إلى آلاف الأقدام. وقد هيأ هذا النهر العظيم الذي يتدفق في ذلك الوادي مقامًا جديدًا تتوفر فيه المياه لصيادي العصر الحجري مما جعلهم يتركون موطنهم الأصلي ويستقرون على امتداد شاطئ النيل، وأصبح هذا الوادي العظيم وطنًا آمنًا إذ كانت الصحراء الجافة تحميه من الجانبين ولم تكن الثلوج وموجات البرد الشديد شمال البحر الأبيض المتوسط تصل إليه، وعاش السكان في هذا الوادي، وسرعان ما تقدموا ومن ثم تحولوا من جامعين للغذاء إلى منتجين له.

الفصل الثاني

منتجو الغذاء والعصر الحجري الحديث

سكان وادي النيل يصبحون منتجي غذاء

كان قاع مجرى النيل مغطى بطبقات من الطمي والرمل التي كان يجلبها تيار النهر؛ ولم يكن صالحًا إذ ذاك لنمو مزروعات كثيرة. ومن الجائز أنه في نهاية العصر الباليوليتي بدأ النهر يجيء بكمية كبيرة من التربة السوداء من مرتفعات الحبشة. وفي كل فصل عندما تملأ أمطار الصيف، الآتية من جبال الحبشة، النيل الأعلى، كانت المياه تعلو ضفتيه؛ وتنتشر هذه المياه المحملة بالطمي على جانبي مجرى النهر وتترك طبقة دقيقة من الطمي أو التربة السوداء المخصبة، وأصبح هذا الطمي في النهاية طبقة سميكة هي أرض وادي النيل الخصبة التي كونت شريطًا على كل من ضفتي النهر وكان هذا الشريط يلتوي ويدور مع اتجاه النهر سواء إلى اليمين أو إلى اليسار. وفي أيامنا هذه لا يزيد اتساع هذه الطبقة السوداء أي نهر النيل وما على ضفتيه من أرض في أكثر الحالات عن ستة عشر كيلو مترًا.

وفي هذه الأرض المزروعة المحمية، استطاع رجال العصر الباليوليتي الذي أوشك على نهايته أن يحسنوا طريقة معيشتهم ومهدوا لبدء عصر جديد نطلق عليه اسم العصر النيوليتي، (الحجر الحديث) وليس في استطاعة أحد أن يحدد بالضبط بداية العصر النيوليتي، ففي أراضي البحر

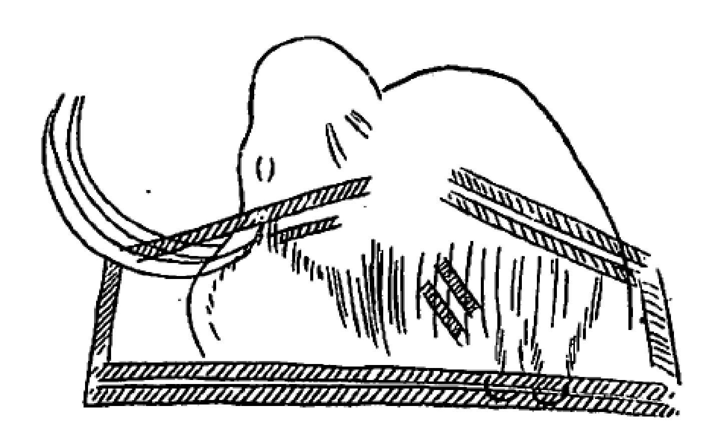
الأبيض المتوسط كان يوجد بعض أقوام يتطورون في حياتهم نحو الحياة النيوليتية بينما كان في نفس المنطقة آخرون يشكلون بمهارة الدبابيس النحاسية. فمثلًا انتهى العصر النيوليتي في مصر والعراق قبل أن يحدث ذلك في الشمال الغربي لأوروبا بحوالي ٢٠٠٠ سنة. وإذا درسنا الثقافات النيوليتية نجد أن الآثار المصرية تعطينا صورة حسنة لهذا النوع من الحياة في عصور ما قبل التاريخ. لقد اضطرت الحيوانات التي عاشت زمنًا طويلًا في الهضبة أن تفعل ما فعله الصيادون فالتجأت هي الأخرى إلى وادي النيل تنشد القوت والماء.

وكان وادي النيل مليئًا بالمستنقعات والأحراش فأصبح خير ملجأ لأسراب كثيرة من الطير البري ولقطعان هائلة من الحيوانات الضخمة مثل فرس النهر والفيل التي كانت تعيش في شمال البحر الأبيض المتوسط، وكذلك فعلت أنواع مختلفة من الآرام والماشية الكبيرة البرية (Bos Primigenius) والخرفان والماعز والحمير. ولم يكن إذ ذاك من بين تلك الحيوانات ما هو أليف أو مستأنس بل كانت في حالتها الوحشية. وعلى الجانب الشمالي من البحر الأبيض المتوسط عرف الصيادون كيف يصنعون الفخ حتى للحيوانات الكبيرة مثل الفيل.

ولم يكن في وادي النيل متسع كبير لمثل هذه الحيوانات كي تمرح كما كانت تفعل في أوروبا أو في الهضبة من قبل فوجدت نفسها في موقف لم يتكن قد عرفته في أوروبا أو آسيا، إذ وجدت نفسها مرغمة على أن تكون

على مقربة من الانسان الذي وجد أنه أصبح من الميسور له أن يوقعها في قبضته.

ويمكننا أن نتصور جماعة من الصيادين تدفع بالقطعان الكبيرة من هذه الحيوانات المتوحشة إلى بعض الفجوات العميقة بين صخور وادي النيل ثم يتقدمون نحوها من الجانب المفتوح ويقتلونها. وعلى مر الزمن راق لهؤلاء الصيادين أن يغلقوا مثل هذه الفجوة بسياج ليست به سوى فتحة واحدة، أو يبنوا سياجًا ذا جوانب أربعة، أو يصنعوا شبكة محيطة لها مخارج من جانب واحد. وبذلك أصبح وجود الحيوانات المتوحشة في مكان مسور مصدرًا قيمًا جدًا للقوت على مقربة من الناس وفي أي لحظة يشاءون. وبعد زمن طويل تخلصت بعض أنواع من هذه الحيوانات من خوفها من الانسان وتعلمت تدريجيًا كيف تعيش معه. ومن الطريف أن نلاحظ .....

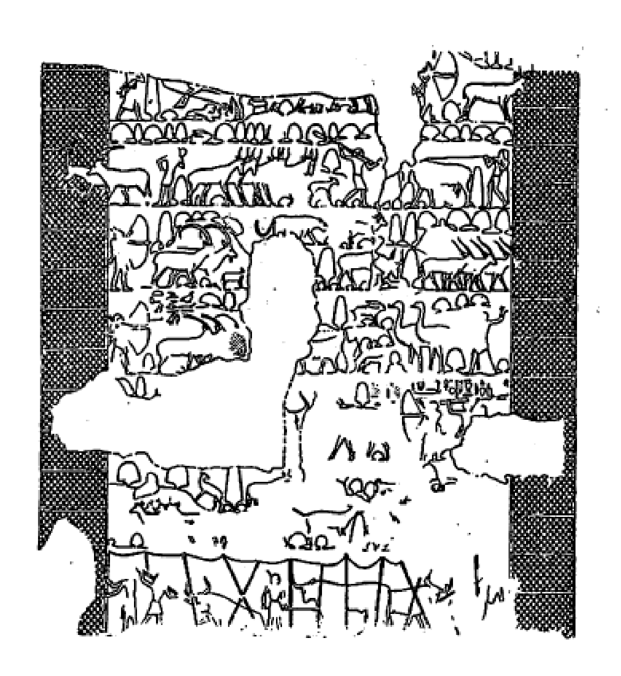


شكل ٨: رسم في كهف يمثل الماموث وقد وقع في فخ من كتل الخشب في جنوب فرنسا. يرينا هذا الرسم المرحلة الأولى لمقدرة الانسان على أسر الحيوانات وكانت المرحلة التالية هي استئناس الحيوانات

.... كيف أدى جفاف الصحراء المتزايد إلى جمع الإنسان بالحيوانات المتوحشة، حتى أن الثور والضأن والماعز والحمير التي كانت كلها حيوانات وحشية تخلت عن حياتها الطليقة وأصبحت حيوانات مستأنسة تخدم الإنسان، وفي هذه الأثناء تمكن سكان النيل من الوصول إلى طريقة جديدة أصبحت مصدرًا دائمًا للغذاء. فمن المحتمل أن النساء اعتدن لمدة آلاف السنين أن يجمعن حبوب بعض الحشائش البرية ويطحنها لتؤكل. وفي النهاية اكتشف شخص ما أن هذه الحشائش لو وزعت وسقيت بالماء ستنمو أحسن من ذي قبل وتنتج كمية أكبر من الحبوب الصالحة للأكل. وإلى جانب ذلك فإنهم كانوا يستطيعون أن يبذروا الحب بالقرب من مساكنهم المؤقتة وبذلك يوفرون على النساء الوقت والجهد الذي يبذل في البحث عن الأعشاب البرية، وبدأ هؤلاء الزراع الأوائل يفكرون في إيجاد طرق لتخزين الحبوب لاستعمالها بين فصل حصاد وآخر، وقد عثر في منخفض الفيوم غرب وادي النيل على ٦٣ حفرة من المحتمل أنها حفرت لتستعمل شونات للغلال. وكان عدد من هذه الحفر ملطوسًا بالطين مغلفًا بالقش. وكان في بعض هذه الشونات كميات صغيرة من القمح والشعير[١]. وكان في البعض الآخر سلال وأوعية وكذلك المنجل الذي كان يستعمل في الحصاد.

---

(١) من المحتمل أن القمح والشعير كانا أول الغلال التي زرعها الانسان، وكذلك الذرة فإنها زرعت أيضًا في وقت مبكر. وليس من المستبعد أن يكون انسان ما قبل التاريخ قد زرع الشوفان وغيره من الحبوب. وقد قام كثير من العلماء بدراسات كثيرة للمناطق التي ينمو فيها الآن الشعير البري والقمح البري لتحديد المكان الذي بدأت فيه زراعة القمح. واهتم علماء النبات والاثريون بتحديد أقدم أنواع القمح التي زرعها الانسان. ومن الجائز أن أنواع القمح التي تستعمل في صنع الخبز الآن طورها الانسان عن



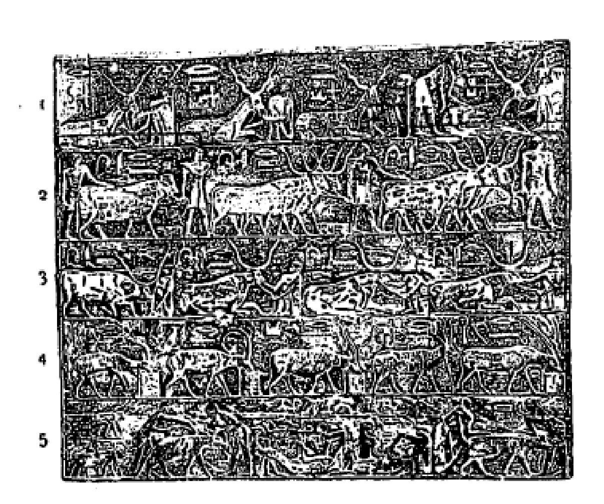
شكل ٩: رسم مصري قديم يبين حظيرة صيد مملوءة بالحيوانات

هذا المنظر مرسوم على جدار في مقبرة من عصر الدولة الوسطى تهدمت بعض أجزائه. ونرى في هذا المنظر بعض الحيوانات البرية وقد دفع بها الصيادون إلى حظيرة مصنوعة من الشباك. ونرى هؤلاء الصيادين منهمكين في اغلاق طرف منها (في الطرف السفلي) بوساطة أعمدة مربوطة بحبال طويلة، ولكن الطرف البعيد لم يبق في الرسم. ونرى أربعة رجال مزودين بالأقواس والسهام منهمكين في قتل بعض الحيوانات للحصول عليها في وقت قصير. وهناك رجال آخرون في الصف الأول والثاني يستعملون الحبال لامساك الحيوانات وهي حية (عن نيوبري Newberry)

طريق الاختبار لأنه لم يكتشف أصل بري للقمح الذي نستعمله الأن في صنع خبزنا العادي (Tritieum Vulgare) لأن نوع القمح الذي اكتشف في شونات الغلال المصرية القديمة هو من نوع (Tritieum dieoeeum) الذي ما زال ينمو كنبات بري في أجزاء مختلفة من العالم القديم. وفي وقتنا الحالي لا يزرع هذا النوع من القمح Emmer لأجل الخبز ولكنه يستعمل أحيانًا في صمع بعض أغذية الإفطار في الصباح.

هكذا عرف سكان النيل كيف يخزنون حصاد غلالهم ويحفظون الحبوب لبذرها في العام القادم، وتعلموا كيف يربون الحيوانات في الحظائر ثم عرفوا بعد ذلك كيف يحتفظون بحيوانات معينة للتكاثر، كما عرفوا بعد ذلك كيف يحتفظون بحيوانات معينة للتكاثر، كما عرفوا كيف يحافظون بالماشية لدر الألبان. وهكذا أصبحوا منتجي غذاء بدلًا من جامعين له، وعندما رأوا أنفسهم قادرين على انتاج القوت على مقربة من أماكن إقامتهم وجدوا أنه لم يصبح من الضروري اللازم أن يظلوا صيادين يعيشون على قتل الحيوانات الوحشية. وبدأت جماعات من العائلات في تكوين قرى صغيرة ليستطيعوا رعي قطعان الماشية ويروا حقول الحبوب. وفي النهاية أصبح الصيادين زراعًا ومربي ماشية وأصبحت قراهم الصغيرة مساكن ثابتة لإقامتهم.

وكانت الأدوات والأسلحة لا تزال تصنع من الحجر في ذلك العصر، ولكن الرجال تعلموا كيف يستعملون أحجارًا مثل الحجر الرملي لسن أسلحتهم أو لتهذيب أطراف أدواتهم. وتحسنت الأدوات المصنوعة من الظران كثيرًا نتيجة لهذا التقدم، بل وزادوا على ذلك أنهم عرفوا أنهم يمكنهم أن يحصلوا على نصل حاد .....

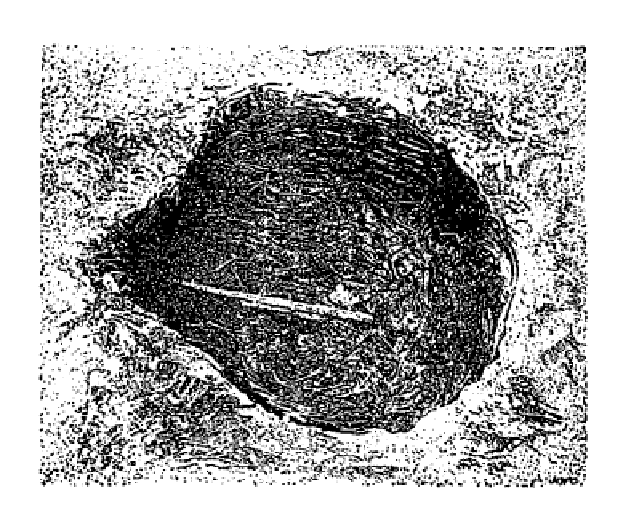


شكل ١٠: علف الآرام والضباع نصف المستأنسة مع الماشية

كانت الحيوانات الوحشية التي تصاد حية من حظائر الصيد (شكل ٩) تعلف في حظائر ويحاولون استئناسها ولو إلى حد ما. الماعز (١) والغزلان (٤) في الطرف الشمالي والغزال العربي (Addax) (٤ في الوسط) وغزال الأوريكس (Oreyx) (في الطرف الأيمن) والتيتل (٤ في الشمال) ونراها كلها في هذا المنظر وهي تأكل في مذاودها في الاصطبلات مع الماشية الكبيرة (٢)كانت هذه الماشية الكبيرة قد استأنست قبل أن يرسم هذا المنظر بالآف السنين وأصبحت أسلافًا لماشيتنا الاليفة الآن.

في هذا الرسم ما يثبت أن المصريين عرفوا تربية أنواع ممتازة من الماشية منذ تاريخ مبكر جدًا. كان المصري يحافظ على فصيلة الماشية عديمة القرون (٢ في الطرف الشمالي) أو على الأقل يعمل على إبقاء نسلها. في أسفل (٥) الضباع المأسورة وهم يعطونها الطعام في فمها. وكان المصريون إذ ذاك اتسأنسوا تمامًا الماعز والماشية الكبيرة التي ترى هنا في (١، ٢، ٣). أما الأخرى في (٤) فلم يكونوا قد استأنسوها إلا إلى حد ما، وهي لا توجد الأن إلا في حالة وحشية وخاصة الضباع (٥).

.... من أحجار أقل تعرضًا للكسر من حجر الظران، وبعبارة أخرى عرف الإنسان أنه من الميسور له أن يصنع أدواته من مواد أفضل من الظران، وفي الوقت عينه يسهل الحصول عليها لأنه لم يكن من السهل العثور على طبقات من الظران في كثير من المناطق. وهكذا أصبح استعمال حجر المسن من أول المكتشفات العظيمة في العالم، وهو اكتشاف ما زال يستعمله الإنسان بشكله البسيط كما كان يفعل منذ عصور ما قبل التاريخ. كان ذلك ذا فائدة عظيمة جدًا للإنسان، ونستطيع أن نقول أنه ساعد كل رجل في أن يصبح معتمدًا على نفسه فقط. واستطاع رجال العصر ....



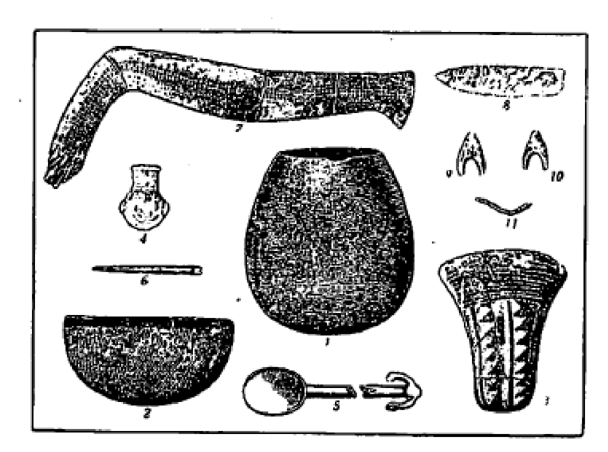
شكل ١١: شونة غلال غطين جدرانها بالقش وهي من العصر النيوليتي وجدت في الفيوم بمصر

يبلغ طول المنجل الخشبي (A) الذي يرى ملقى في قاع المخزن حوالي قدمين (عن الآنسة كيتون تومسون (Miss G. Caton Thompson))

.... الحجري الحديث (النيوليتيون) أن يقطعوا الأشجار وأن يصنعوا بعض أشياء من الخشب، واستطاع هؤلاء الزارعون الأوائل الذين عاشوا في وادي النيل أن يبتكروا صناعات مختلفة. وكانت هناك فيلة يمكن صيدها بسهولة، وكان العاج الذي يؤخذ منها يستعمل في صنع الأوعية والملاعق والأمشاط، وكان الغاب الذي ينمو في المستنقعات التي على امتداد النيل يضفر ليصنع منه الحصير والسلال، وكانت الأطباق والأواني والأوعية تصنع من الطين المحروق الذي يأتون بترابه من الهضبة أو من الطمي النيلي. وكانت هذه الأواني الفخارية تشكل باليد ومع ذلك فإن رقة جدرانها وجودة خامتها والأثر الفني الذي يتركه سطحها المتموج ظلت دائمًا كما هي ولم يستطع المصري فيما بعد اخترع دولاب الفخار أن يدخل تحسينًا على صناعتها. وقبل ذلك بوقت قصير اكتشف المصري فائدة خيوط بعض النباتات البرية مثل الكتان، وتعلمت النساء كيف تزرع هذه النباتات، وعرفن كيف يغزلن هذه الخيوط ثم عرفن أيضًا كيف ينسجنها ليصنعن منها أقمشة للملابس.

حدث هذا كله منذ زمن بعيد جدًا لدرجة أن آثار هذه المساكن النيلية المبكرة أصبحت مدفونة تحت أمتار من التربة السوداء التي يجلبها النهر منذ ذلك الوقت، ومع ذلك فقد اكتشفت بقايا قليلة لبضعة قرى صغيرة كانت مقامة على أرض غالية فوق مستوى فيضان النيل، وكان الموتى يدفنون على امتداد حافة التربة السوداء على طرف الصحراء. وقد فحص كثير من هذه المقابر. ونعرف أن الجثة كانت توضع على حصيرة وتحاط بأواني الطعام والأسلحة والأدوات وأدوات الزينة الخاصة بصاحب

القبر. وهكذا كانت الميت قد هيأ نفسه للحياة الثانية، وكان الوجه متجهًا ناحية الغرب، وقد عثر في أحد هذه المقابر على دبوس نحاسي (شكل ١٢) وهو أقدم أداة من المعدن اكتشفت في حفائر الآثار. ومن المستحيل أن نحدد بالضبط تاريخه، ولكنه لا يمكن أن يكون متأخرًا عن الآلف الخامس قبل الميلاد. أي أن عمر هذا الدبوس ما بين ستة وسبعة آلاف سنة. ويمكننا أن نصور لأنفسنا ذلك المصري الذي اكتشف المعدن، قبل أي شخص آخر، عندما كان يتجول في شبه جزيرة سيناء حيث توجد أقدم مناجم النحاس المعروفة. وربما حدث أنه كان يريد أن يضع بضع أحجار حول النار التي أوقدها فالتقط لهذا الغرض بضعة قطع من النحاس وجدها ملقاة حول الأرض.



شكل ١٢: مجموعة من الأدوات عثر عليها في جبانة مصرية من العصر النيوليتي المتأخر تحتوي هذه الأدوات التي كانت توضع مع الموتى على أوان فخارية للاستعمال المنزلي (١– ٣) وأوان من العاج لحفظ عطور الزينة (٤) وملاعق (٥) وابر من العظم (٦) وأسلحة من الخشب أو الظران (٧– ١٠) ويدل شكل (٧) على عصا للرماية ربما كانت سلف عصا الرماية المستعملة في أوستراليا. أما الدبوس النحاسي (١١) فإنه يدل على أول استعمال للمعادن. (عن برنتن)

وعندما امتزج الفحم الناتج عن الخشب الذي يشعل به النار بالقطع الساخنة من المعدن التي وضعها حول النار لحمايتها من تأثير الريح، فإن هذا المعدن أخذ يتضح عنصره، أي أن النحاس بشكله المعدني قد تخلص من أخلاط العناصر الأخرى التي كانت مختلطة به، وفي الصباح عندما كان المصري يحرك بقايا النار وجد في الرماد قطعًا لامعة تصلبت وتحولت إلى قطع متكورة لامعة من المعدن. ونستطيع أن نتخيله وهو يلتقطها ويقلبها بإعجاب وهي تلمع في أشعة شمس الصباح. ولم يمض وقت طويل عندما أعيدت هذه التجربة حتى اكتشفت أن هذه الخرزات اللامعة الغريبة أنت من قطع الحجر الموجودة حول ناره، وبدون أن يقصد أو يعلم كان هذا الرجل على أبواب عصر جديد وهو عصر المعادن. ولو كان قدر لهذا المصري المتجول أن يعلم الغيب لأدرك أن الخرزة النحاسية الصغيرة اللامعة التي التقطها من الرماد، تعكس له رؤيا عظيمة من المستقبل بما فيه من المباني المصنوعة من الصلب والكباري الرائعة، والمصانع الضخمة التي تضج بأصوات آلاف الماكينات المعدنية، والقضبان الطويلة الممتدة التي تسير عليها القاطرات التي تنهب الأرض. ولولا هذه الخرزة الصغيرة من المعدن التي أمسكها المصري في يده لأول مرة، وقد تولته الدهشة، لما كانت تحققت جميع ما في دنيانا الحالية من اختراعات كان هذا اليوم يومًا مشهودًا في تاريخ البشرية، ولم يصل الانسان إلى اكتشاف أعظم منه منذ اليوم الذي اكتشفت فيه كيف يوقد النار قبل ذلك ببضعة آلاف من السنين. كان هذا الاكتشاف انتصارًا للإنسان على مواد الأرض التي يعيش فيها. وكان ذلك حوالي عام ٥٠٠٠ قبل الميلاد على أقل تقدير أي منذ

٧٠٠٠ سنة، ولكن المصريين لم يعرفوا تمامًا قيمة هذه المادة الجديدة إلا بعد عدة قرون. واستمروا يستعملون أدواتهم وأسلحتهم الحجرية، ولم يستعملوا النحاس في أغلب الأحيان إلا في صنع أدوات الزينة مثل العقود النحاسية التي كان يتحلى بها النساء، ولم يعم استعمال الأدوات والأسلحة النحاسية إلا بعد ٢٠٠٠ سنة تقريبًا من اكتشاف النحاس، وفي خلال هذا العصر الطويل– وبعده بمدة من الزمن– استمرت حياة الانسان في العصر الحجري الحديث وكأن المعدن لم يكتشف.

العصر النيوليتي في أوربا

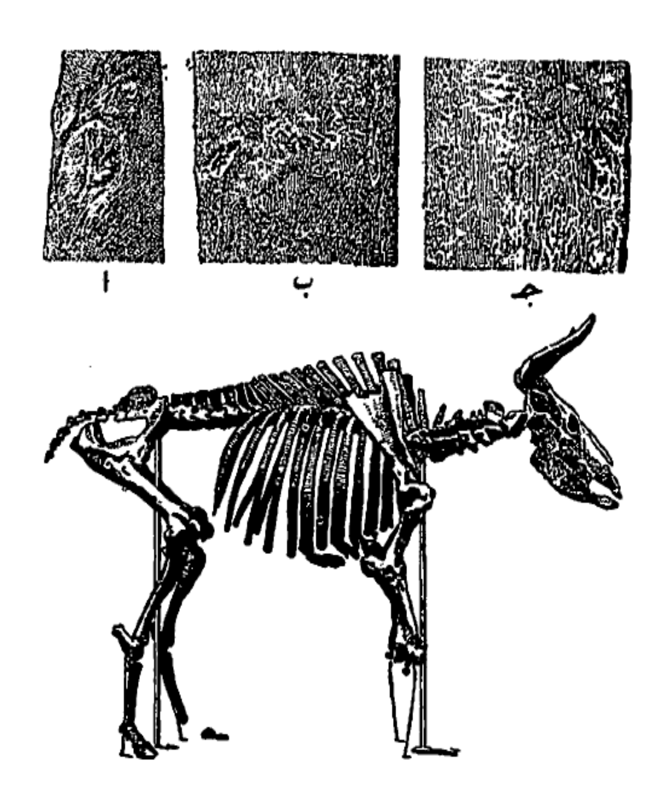
بينما كان سكان جنوبي البحر الأبيض المتوسط في العصر الحجر يتقدمون في أساليب حياتهم كان زملاؤهم على الجانب الشمالي يمرون بتجارب أخرى أقل منها. عاش أوربيو عصر ما بعد الجليد حياة بائسة في عالم غريب مفزع فترة من الزمن. وكانت البراري المملوءة بغابات البلوط والحيوانات التي لم يكونوا قد عرفوا بعد كيف يصطادونها تحيط بهم دائمًا. ولكا كان هؤلاء الناس ما والوا يعيشون من جمع غذائهم فمن المحتمل أنهم كانوا في كثير من الأوقات أقرب إلى الموت جوعًا. وكان بعضهم يعيشون في كهوف ولكن أكثرهم كان يعيش بالقرب من الأنهار وشاطئ البحر حيث يستطيعون صيد السمك. وكانوا يأملون التوت والجوز مع السمك بقصد التنويع في طعامهم، وبين حين وآخر كانوا يقتلون حيوانًا صغيرًا. أما صناعة الظران فكانت فقيرة جدّا ولم يكن هناك ذوق فني. ويكاد يكون مؤكدًا أن مؤثرات تقدمية غريبة عنهم وصلت إلى أوروبا وغيرت طرق

المعيشة البدائية لهؤلاء الناس. جاءت بعض هذه المؤثرات دون شك من شمال إفريقيا، ومن المحتمل أن جماعات من سكان النيل، ممن تأصلت في نفوسهم الرغبة في التجول أكثر من غيرهم تجولوا عبر شمال إفريقيا، ثم وصلوا عن طريق جبل طارق إلى أوروبا. ولو كان هذا هو ما حدث فعلًا فإنهم يكونون قد جلبوا بالطبع معهم أفكارًا وعادات أقوام منتجين للغذاء.

كما أنه من الجائز أيضًا أن مؤثرات تقدمية أخرى أتت إلى أوروبا من الشرق. فقد كانت جماعات منتجي الغذاء في العصر النيوليتي تنتخب أماكن إقامتها بجوار الأنهار ومجاري المياه بوجه خاص حيث توجد تربة خصبة ومراع شاسعة. وأهم أودية الأنهار الأوروبية في ذلك العصر هو وادي الدانوب. وفي نهايته يمتد الوادي إلى ما نسميه الآن السهول الخصبة في المجر، أو الدانوب الأسفل، وهي المنطقة التي تمتد في اتجاه غرب آسيا الصغرى وقد انتقلت الحياة النيوليتية فيغرب آسيا عبر هذه السهول إلى شرق أوروبا جالبة معها تربية الماشية وزراعة الحبوب. ومن الجائز أن تكون حقول الغلال والمراعي الواسعة في المجر أقامت أود الجماعات الكبيرة في أوروبا عندما هجر الكثيرون من الناس حياة الصيد واستقروا في مساكن ثابتة. وكذلك انتقلت حياة المراعي والزراعة من فلاحي الدانوب عبر النهر العظيم إلى قلب أوروبا إذ تكشف لنا بقايا المساكن النيوليتية التي انتشرت في ذلك الوقت من المجر نحو الغرب عن تحسنات كبيرة في أساليب المعيشة.

ومن المحتمل أن أولى البيوت في تلك القرى الصغيرة كانت مجردًا أكواخ من الأغصان غطيت جدرانها بطبقة من الطين أو ببعض الحشائش

المجدولة. وعلى أي حال فقد كانت الأدوات الحجرية، المسنونة الأطراف من الأسباب التي سهلت بناء البيوت الخشبية لأننا لو فحصنا أدوات الصناع النيوليتين لوجدنا أنها تحوي مجموعة من الأدوات تقرب في كمالها من أدوات النجارة في عصرنا الحالي. فكان لديهم الفؤوس وكانوا يستعملون أزاميل وسكاكين ومثاقب ومناشير ومسنات مصنوعة في معظم الأحيان من الظران. وفي بعض الأحيان كانت تصنع من أحجار صلبة أخرى. ولقد تعلموا كيف يربطون يدًا خشبية حول رأس الفأس أو يشكلون رأس الفأس بحيث توضع في مقبض مصنوع من قرون الغزال أو يثقبون ثقباً في رأس الفأس ويدخلون فيها يدًا، وإذا فحصنا هذه الآلات وجدنا أنها قد صقلت من جراء استعمالها. ومن الخطأ القول بأنه لم يكن في استطاعة الانسان أن يعمل أشياء متقنة وبسرعة بمثل هذه الأدوات الحجرية، فقد أجريت تجربة حديثة في الدانمرك إذا أعطوا فأسًا حجرية لأحد العمال الميكانيكيين، وبالرغم من أنه لم يكن متعودًا على استعمال هذه الأدوات الحجرية إلا أنه استطاع في ظرف ١٠ ساعات من العمل أن يقطع ٢٦ شجرة صنوبر يبلغ قطر الواحد منها ٢٥ سنتيمترًا. وبعد ذلك قطعها إلى كتل. وفي ظرف ٨١ يومًا أتم العامل قطع الألواح والكتل الخشبية وبناء المنزل بأدواته الحجرية. وعلى ضوء هذه التجربة يمكن القول بأنه من المحتمل أن يبني رجال العصر الحجري الحديث مساكن مريحة ويعيشوا فيها حياة أرقى بكثير من الهمجيين.



شكل ١٣ : هيكل عظمي لثور بري يحمل أثر سهام الصياد الذي قتله في غابات الدانوب منذ تسعة آلاف سنة تقريبًا

لقد أصابه صياد من العصر الحجري المتأخر في ظهره بالقرب من العامود الفقري (انظر الحلقة البيضاء في الجزء العلوي من الهيكل العظمي) والتأم الجرح مخلفًا ندبة في الضلع (أ وفوق). وبعد ذلك أصابه صياد آخر وفي هذه المرة اخترقت أحشاءه عدة سهام واصطدم أحدها بضلع (انظر الخاتم الأبيض السفلي على الهيكل العظمي) وانكسر فيه. ونرى في الرسم جانبي هذا الجرح الذي لم يلتئم محشوًا برأس السهم الظرانية المنكسرة فيه (فوق في ب، ج) ومات هذا الثور المجروح بينما كان يحاول أن يسبح عبر

بحيرة مجاورة، وغرقت جثته إلى القاع وعندما وصل الصياد الذي كان يتتبعه إلى البحيرة لم يجد أي أثر له. وعلى مر آلاف السنين بدأت البحيرة تجف تدريجيًا وحلت الأعشاب الجافة محل الماء الذي كان عمقه أكثر من ثلاثة أمتار. وكان لهذه الأعشاب نفس العمق، وغطت هيكل الثور العظمي. وعثر عليه في هذا المكان في سنة ١٩٠٥، وعثر معه على رؤوس السهام الظرانية التي قتلته. وقد نقل هيكله العظمي الذي ما زال يحمل علامات رؤوس السهام الظرانية ا، ب، ج إلى متحف كوبنهاجن حيث وضع هناك.

وتوجد في سويسرا أكثر بقايا المساكن الخشبية الأولى في الأهمية في أوروبا. فقد بنت هناك جماعات من العائلات في العصر النيوليتي قراهم المكونة من المنازل الخشبية على أماكن مرتفعة ممتدة في صفوف طويلة على طول شواطئ البحيرات السويسرية[1]. وكانت هذه المنازل تقام فوق سطح من الخشب تحملها دعائم خشبية مثبتة في الأرض. وهذه القرى أو مجموعات المساكن المقامة فوق الدعامات تسمى عادة قرى البحيرات. وفي حالات قليلة كانت هذه القرى تنمو وتصبح كبيرة كما في وانجن

---

(١) عثر لأول مرة على بقايا قرى البحيرات السويسرية سنة ١٨٥٤ عندما انخفض مستوى المياه فيها جدًا بعد فصل جفاف غير عادي، واتضح الأن أن هذا المستوى المنخفض للمياه كان نفس المستوى الأصلي عندما بنيت هذه القرى. ولهذا أقامها أهلها على الأرض الجافة بجانب البحيرة وليس فوق الماء، كما كان يعتقد قبلاً. وارتفع مستوى البحيرات السويسرية في خلال آلاف السنين وغطى الشواطئ القديمة ومعها بقايا القرى القائمة على أعمدة، ومن هنا جاء الرأي الخاطئ وهو أنها بنيت فوق الماء وثبتت الأعمدة فيقاع البحيرة. وبين هذه الأعمدة القائمة وجدت كميات كبيرة من الأدوات وأثاث المنازل والآلات والزوارق المنحوتة في الشجر وكذلك شباك صيد السمك وبعض القمح والشعير وعظام الحيوانات الأليفة والكتان المنسوج وغيرها.

Wangen حيث عثر ما لا يقل عن ٥٠ ألف دعامة في الأرض لتثبيت القرية. وعاش سكان قرى البحيرات حياة سلام ورخاء. وكانت منازلهم مأوي مريحة. وكانت مجهزة بالأثاث وأدوات خشبية وأباريق وملاعق خشبية ومعها الأطباق والأوعية والأواني الفخارية. وبالرغم من أن أوانيهم الفخارية كانت غير دقيقة الصنع لأنهم لم يعرفوا استعمال عجلة الفخار ولم يحرقوها في أفران إلا أنها كانت سببًا في جعل الحياة المنزلية أكثر راحة وسهولة مما كانت عليه من قبل. وبالقرب من المنزل كانت المياه غاصة بالسمك الذي كانوا يصطادونه بخطاطيف من العظم أو شباك من حبال الكتان الذي كان يزرعه سكان قرى البحيرات.

وكانت سفوح التلال التي تطل على قرى البحيرات مخضرة بحقول القمح والشعير والذرة، وكان هذا المصدر الجديد للغذاء كأفيالهم، ووجد الحفارون أكثر من ١٠٠ كيلة من الحبوب في قاع البحيرة تحت قرية وانجن Wangen من قرى البحيرات....



شكل ١٤: أشياء وجدت في مساكن البحيرات السويسرية

نرى هنا ثلاثة اختراعات هامة تمت خلال العصر النيوليتي

أولًا: الأوعية الفخارية مثل ٢، ٣ ذات زخارف غير معتني بها– وهي أقدم طين محروق في أوروبا– وفي ١ وعاء ضخم كان سكان البحيرات يطبخون فيه طعامهم.

ثانيًا: الأدوات ذات الحذ المشذب مثل ٤ وهو أزميل حجري مركب في مقبض من قرون الغزال كالمطرقة، أو مثل ٥ وهي فأس حجرية بها ثقب لتثبت فيه يد الفأس.

ثالثًا: أما ثالث الاختراعات فهو النسيج كما يرى في ٦ حيث نرى آلة غزل من الطين المحروق وهي أقدم جهاز للغزل. وكانت تعلق في خيط خشن من الكتان طوله من ٤٥ إلى ٥٠ سنتيمترًا ثم يدفعها فتدور في الهواء، وهكذا تبرم الخيط الذي تعلق به. وعندما يبرم الخيط إلى الحد الكافي كان يلف ويؤخذ خيط بالطول السابق من الكتان غير المنسوج ليبرم بهذه الطريقة.

.... المندثرة. وانتشرت كذلك حقول الكتان الصغيرة بجانب الحبوب النامية على سفوح التلال، وكان النساء يجلسن أمام أبواب مساكنهم يغزلن. وقد حلت الملابس الكتانية محل الملابس الخشنة المصنوعة من الجلد التي كان يرتديها أسلافهن. وكانت هذه الحقول من ضمن الأسباب لإقامة مساكن مستقرة في مكان واحد لأنه كان من الضروري للفلاحين أن يبقوا بالقرب من حقولهم الصغيرة لكي تفلح نساؤهم الأرض. وكان القمح

يحتاج إلى عناية فإذا ما نضج حصدوه. ولم تكن تلك الحقول ملوكة لأحد في أول الأمر ولم يكن أحد يعرف شيئًا عن امتلاك الأرض، ولكن بعض مضي وقت أصبح لكل بيت الحق في زراعة حقل معين. وفي النهاية أصبح لهم حق امتلاكه. وهكذا ظهرت مليكة الأرض التي أصبحت في مستقبل حياة الناس مصدرًا دائمًا للمضايقات وكانت السبب في الصراع الطويل بين الأغنياء والفقراء– وهو صراع لم يكن معروفًا من قبل عندما كانت الأرض مباحة للجميع– وبدأ عدد كبير من أوروبي العصر الحجري الحديث في هذا الوقت يملكون مساكن مستقرة داخل القرى وحولها.

ومن ناحية أخرى نرى أن امتلاك الحيوانات التي تعيش على العشب وتستطيع أن تعيش في المراعي قد خلق طبقة من الناس الذين كانوا مضطرين ليعيشوا حياة غير مستقرة. ولم تكن المراعي خصبة في كل مكان إلى الحدد الذي يسمح بإبقاء الماشية دائمًا في مكان واحد، وكان رعاتها يضطرون إلى البحث عن المرعى في أي مكان آخر، وهكذا أصبحوا يحيون حياة تجوال يقودون قطعانهم ويرعونها في أي مكان به أرض معشبة تمدها بالقوت. وبينما مكث الفلاحون مستقرين في أراضيهم الزراعية الغنية، امتلك البدو الأراضي المعشبة الممتدة من الدانوب شرقًا حتى شمال البحر الأسود ومن ثم بعيدًا حتى آسيا، وبقيت حياتهم دائمًا أقل تحضرًا وأكثر خشونة من الحياة المستقرة في القرى.

وهكذا خلقت الحبوب والماشية طريقتين من طرق المعيشة استمرت كل منهما بجانب الأخرى، الحياة الزراعية المستقرة التي تقوم على زراعة

الحبوب، وحياة البدو الجوالين التي تقوم على رعي الماشية. ومن المهم أن نفهم حياة هاتين الطبقتين من الناس، لأن البدو غير المستقرين يتكاثرون جدًا في وقت من الأوقات فلا تكفيهم المراعي الموجودة في الأراضي التي تنبت فيها الأعشاب، وكانوا في مثل هذه الأحيان يفدون جماعات إلى المدن والأماكن الزراعية فتغلبون على أهلها. وسنرى فيما بعد كيف كانت قبائل البدو الوافدة تأتي من الأراضي المعشبة في الشرق لتغزو أوروبا مرة بعد مرة.

وأخيرًا بدأت الجماعات المستقرة في العصر النيوليتي تخلف وراءها شيئًا أكثر من المنازل الخشبية الهشة والأكواخ. ففي الوقت الذي كاد فيه هذا العصر أن يقترب من نهايته بدأ الزعماء الأقوياء في القرى الكبيرة يقيمون لأنفسهم مقابر مبنية من كتل هائلة من الحجر ما زالت توجد على حدود ساحل أوروبا الغربي، من البحر الأبيض المتوسط على امتداد ساحل أسبانيا حتى شواطئ اسكنديناوة الجنوبية، ويوجد الآن ما ى يقل عن ٣٤٠٠ مقبرة حجرية من ذلك العصر في جزيرة سيلاند Sealand (التابعة للدانيمارك) وكثير منها ذو حجم غير صغير. وتوجد مثل هذه المقابر في فرنسا وتمتاز بعددها الكبير وأحجامها العظيمة، وكذلك الأمر في إنجلترا.

ولقد كانت كتل الحجارة الضخمة تترك بدون تهذيب كما هي، وعند قطعها كانوا يستعملون أزاميل حجرية. ولا يمكننا أن نعتبر هذه الأحجار بمثابة مباني لأنها لم تبن بقطع مهذبة من الحجر أو يستعمل فيها الملاط ولا

نستطيع كذلك أن نعتبرها من أعمال العمارة فذلك شيء لم يكن قد حدث في أوروبا. وتدلنا تلك الآثار التي أقيمت في العصر النيوليتي على وجود أقدم المدن في أوروبا، فبالقرب من كل مجموعة كبيرة من المقابر الحجرية كانت توجد مدينة يقيم فيها السكان الذين بنو تلك المقابر. وقد اكتشفت بقايا بعض هذه المدن وأزيل عنها الركام الذي كان يغطيها وهي ترينا أن الناس تعلموا كيف يعيشون معًا وأن عددهم كان كثيرًا وكانوا يعملون متعاونين على نطاق واسع.



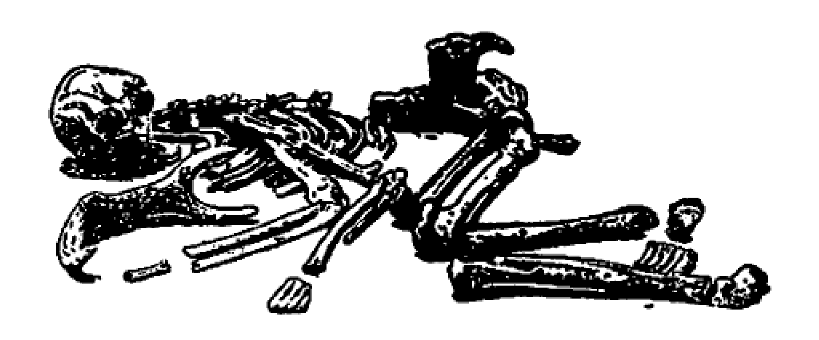
شكل ١٥: دوران كبير من الحجر في ستونهنج Stonehenge بانجلترا

يبلغ قطر الدوران حوالي ١٠٠ قدم، ويصله بالمدينة المجاورة التي يرجع تاريخها إلى العصر الحجري طريق طويل لا يزال أثره باقيًا. ويعتقد البعض أن ستونهنج Stonehenge كانت مكانًا لدفن بعض الزعماء في العصر الحجري.

وكان لابد من وجود سيطرة تامة على الرجال وإدارتهم بحزم حتى يستطيعوا أن يقيموا جدرانًا لمثل هذه المدينة، أو ليصنعوا ٥٠ ألفًا من الدعائم لتقام عليها البحيرة في وانجن Wangen في سويسرا، أو لينقلوا كتلًا ضخمة من الحجارة لبناء مقابر الزعماء، وكانت هذه الأعمال بشائر إنشاء حكومة منظمة لها زعيم. ونستطيع أن نطلق على مثل هذه الحكومة اسم ولاية. وقد نمت عدة ولايات صغيرة في أوربا في العصر النيوليتي تتكون كل واحدة منها من مدينة مسورة بجدران وتحيطها الحقول ويحكمها زعيم. ومن أمثال هذه البدايات تسير الأمم في طريق التكوين. تلك المنشئات الحجرية تعطينا لمحات جميلة عن الحياة في المدن النيوليتية، وشكل بعض هذه الآثار يجعلنا نفترض أن جماعات كاملة كانت تأتي من المدن في أيام الأعياد وتسير إلى أماكن مثل الدوران الحجري العظيم في ستونهنج Stonehenge. وهناك رأي أخر وهو أنهم كانوا يتبارون في هذه الأماكن في مسابقات وألعاب رياضية داخل هذه الدورانات الحجرية تكريمًا لذكرى الزعيم المدفون تحتها. ومن المحتمل أن مواكب هذه الاحتفالات سارت في الطرقات الطويلة التي تحدوها الأحجار الضخمة. أما اليوم فإن هذه الطرقات ساكنة مهجورة، وتمتد عدة كيلو مترات عبر حقول الفلاحين لتذكرنا بأفراح الإنسانية التي نسيت، وبعادات قديمة وعقائد طالما احترمها القوم الذين عاشوا يومًا في أوروبا في العصر الحجري.

وإذا كانت هذه المدافن آثارًا باقية لعقائد دينية حسب رأي البعض أو لنشاط اجتماعي كما يرى البعض الآخر فإن هناك آثارًا أخرى، تكشف لنا عن حياة الناس أثناء عملهم. بدأ الناس في ذلك العهد في اتخاذ حرف

فكان بعضهم يعمل في صناعات الخشب، وكان آخرون يصنعون الفخار. وبقي البعض الآخر في أعمال المناجم. وقد حفر هؤلاء العمال القدماء في أعماق الأرض كي يصلوا إلى أجود طبقات الظران .....



شكل ١٦ هيكل عظمي لأحد عمال المناجم في العصر الحجري المتأخر

وجد هذا الهيكل العظمي ملقى على أرضية منجم ظران في بلجيكا، تحت الصخور التي انهارت وسحقته. ونرى أمامه المعول ذا الطرفين المصنوع من قرن الغزال والذي كان يستخرج به قطع الظران من مهدها الطباشيري. والمعول لا يزال في موضعه عندما سقط من يده في اللحظة التي انهار فيها الكهف.

....ليصنعوا منها أدواتهم الحجرية. وفي السراديب القديمة التي حفرها عمال مناجم الظران القدماء في براندون Brandon بإنجلترا عثر منذ وقت غير بعيد على ثمانين معولًا باليًا مصنوعة من قرون الغزلان. وفي أحد الأماكن تقوض السقف وسد ممرًا في المنجم. وهناك عثر الأثريون وراء الصخور المتساقطة علة معولين من قرون الغزال وكان على هذين المعولين طبقة من غبار الطباشير ما زال ظاهرًا به بصمات أصابع العامل الذي تركها هناك لآخر مرة منذ آلاف السنين.

وكان هناك تعامل واتصال بين القرى، بل إن الحقيقة أن التجار الأوائل كانوا يحملون البضائع مسافات بعيدة وإلى أماكن كثيرة. ومن الأمثلة الظاهرة التي تدل على ذلك عثور الباحثين على أنواع من الظران الفرنسي الجيد مبعثرة في أجزاء عديدة في أوروبا حيث دل عليها لونها. كما انتقل الكهرمان الذي كان يجمع على شواطئ البلطيق من يد إلى يد حتى وصل جنوبًا إلى البحر الأبيض المتوسط. وعثر في الجزائر التي حول أوروبا على أدوات حجرية تثبت لنا أن بعض الناس في ذلك العصر كانوا يملكون قوارب قوية إلى الحد الذي يكفي لحملهم إلى تلك الجزر. ووجدت عدة زوارق منحوتة في الأشجار استعملها سكان البحيرات. وجدت هذه الزوارق في قاع البحيرة وسط القوائم الخشبية، إذا لم تكن السفن ذات الشراع قد عرفت بعد في أوروبا. أما الأعمال التجارية في مثل هذا العصر فقد كانت بالطبع بسيطة جدًا.

لم تكن هناك معادن أو نقود. وكان البيع والشراء يتم بمقايضة نوع من البضائع بنوع آخر. ولم يكن للكتابة وجود في كل أوروبا، بل لم تخترع أية طريقة للكتابة في أي مكان في القارة الأوروبية. ولكن الاتصال بين هذه القرى القديمة في أوروبا لم يكن دائمًا سليمًا. فإن الأسوار الترابية والسياجات الخشبية التي أقاموها حول المدن لحمايتها تثبت لنا أننه كثيرًا ما دوي صوت نفير الحرب الخاص بالزعيم ليدعو القوم لصد الأعداء. وما زالت هناك آثار محزنة لبعض هذه الحروب القديمة في أوروبا. ففي مقبرة من ذلك العصر في السويد عثر على جمجمة وفيها رأس سهم من الظران ما زال مغروزًا في إحدى حفرتي العين، بينما عثر في فرنسا على أكثر من

عظمة آدمية مغروز فيها رأس سهم من الظران. وفي مدفن اسكتلندي عثر على تابوت بداخله جثة رجل ضخم الحجم وإحدى ذراعيها تكاد تنفصل من الكتف نتيجة ضربة فأس حجرية، وفي عظام الذراع المصاب علقت قطعة من الحجر كسرت من حد الفأس.

هكذا كانت حياة النيوليتيين على الجانب الشمالي للبحر الأبيض المتوسط عندما اقترب هذا العصر من نهايته حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد. لم يتقدموا تقدمًا كبيرًا بعد تحولهم من حياة الصيد إلى الحياة المستقرة على مقربة من حقول حبوبهم ومراعيهم، ولم يعرفوا الكتابة حتى يستعملوها في تدوين أمور تجارتهم وحكومتهم، واستمروا بدون معادن[١] فلم يصنعوا منها الأدوات التي عساها تمكنهم من التقدم في صناعاتهم، ولم يكن لديهم سفن شراعية تحمل تجارتهم، وبدون هذه الأشياء لا يستطيع الانسان أن يتقدم كثيرًا.

ربع الكرة الأرضية الذي نمت فيه الحضارة وتطورت

رأينا فيما سبق كيف تطورت حياة القدماء في حوض البحر الأبيض المتوسط، واهتممنا اهتمامًا خاصًا بالمناطق التي في شماله وفي جنوبه حيث

---

(١) أدخلت المعادن في الجنوب الشرقي لأوروبا حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد وانتشرت كموجة بطيئة متحركة تدريجيًا غربًا وشمالاً عبر أوروبا. ومن الجائز أنها لم تصل بريطانيا حتى ٢٠٠ سنة قبل الميلاد تقريبًا. ومن هنا وضعنا النصب الحجرية الضخمة الخاصة بغرب أوربا ضمن دراستنا للعصر الحجري في أوربا. وقد أقيمت تلك النصب بعد أن عرف جنوب شرقي أوربا المعادن بوقت طويل، ولكن قبل أن ينتشر استعمال المعادن فيغرب أوربا.

عشر رجال الآثار على أدوات كثيرة درسوها دراسة وافية، وتشهد مجموعات آثار عصر ما قبل التاريخ على أن القدماء عاشوا في جميع الأراضي المحيطة بالبحر العظيم وفي الأراضي التي تحيط به. وهكذا كان البحر الأبيض المتوسط مركز التقدم في الحياة وهو الأمر الذي بدأ منذ أول ظهور الإنسان. ولندرس الأن ربع الكرة الأرضية الذي يشغل فيه هذا البحر الأبيض المتوسط جزءًا هامًا. كانت الحياة الحضارية المبكرة في الجانب الأفريقي من البحر الأبيض المتوسط على هيئة شريط ضيق يمتد بامتداد الشاطئ (لأن الصحراء الكبرى كانت تقع خلفه) وتمتد جنوبًا في خط ضيق بامتداد نهر النيل. وأما في الجانب الأوربي من البحر الأبيض المتوسط فإن القوم المتحضرين اتجهوا نحو الشمال، وفي وقت ما وصلوا إلى البلطيق والبحر الشمالي والجزر البريطانية، وفي الطرف الأسيوي من البحر العظيم توغلت الحياة المتحضرة كثيرًا في الداخل، وفي النهاية وصلت شرقًا حتى الهند والصين.

فإذا بدأنا بالبحر الأبيض المتوسط نجد أن حدود شواطئه الثلاثة، الجنوبي الشمالي والشرقي والأراضي الواقعة خلفها، كونت العالم الذي تطورت فيه حياة الإنسان في ثلاث قارات. وإذا أخذنا هذه المناطق كوحدة، فإنها تكون مثلثًا يدخل فيه جزء كبير من الربع الشمالي الغربي لنصف الكرة الشرقي. هذا المثلث الذي سماه البعض الربع الشمالي الغربي العظيم، قاعدته هي الحدود الجنوبية للصحراء في إفريقيا وآسيا، أو على وجه التقريب خطط عرض ٢٠ شمالًا. وضلعه الشرقي عبارة عن خط يتجه من الشمال إلى الجنوب محاذيًا جبال الأورال تقريبًا وينطبق على خط

الطول ٦٠ شرقًا. وإلى الغرب من هذا الخط وشمال خط العرض ٢٠ يمتد الربع الشمالي الغربي العظيم حتى يصل إلى المحيط الأطلنطي والمتجمد الشمالي وهما يكونان حدوده في الشمال والغرب.

وفذ هذا المثلث العظيم تطورت الحضارة التي ورثتها الآن كل من أوروبا وأمريكا. ومن الناحية الجغرافية يتكون هذا الربع المتسع من ثلاث مناطق من الشرق إلى الغرب. فهناك أولًا منطقة المرتفعات التي تتضمن الجبال، وتمتد على طول الجانب الشمالي من البحر الأبيض المتوسط ثم تتجه شرقًا إلى قلب آسيا وراء الضلع الشرقي المثلث السابق ذكره. وإلى شمال منطقة المرتفعات توجد الأراضي المستوية الشمالية التي تمتد كذلك شرقًا حتى قلب آسيا. وإلى الجنوب من منطقة المرتفعات توجد أراضي السهول الجنوبية التي يشغلها من الغرب حوض البحر الأبيض المتوسط. ومن المهم أن نلاحظ أن أكثر الأراضي المستوية الجنوبية ليست إلا صحراء تمتد من شمال أفريقيا شرقًا عبر البحر الأحمر ثم تتوغل في آسيا.

أما سكان الربع الشمالي الغربي العظيم فأنهم كانوا جميعًا من الجنس الأبيض منذ أن ظهر الإنسان في عصر ما قبل التاريخ. ولكنهم يختلفون اختلافًا بينًا في بين الخصائص الجسمانية. ففي أراضي السهول الشمالية نجد قومًا ذوي شعر أشقر ورؤوسهم مستطيلة مثل الاسكندناويين الذين يسمون أحيانًا الجنس الشمالي (Nordic). أما جيرانهم في الجنوب فكانوا ذوي رؤوس مستديرة ويسكنون في منطقة المرتفعات ومن هنا يسمون غالبًا الجنس الآلي (Alpine) أو الآرمني. وفي الأراضي المستوية الجنوبية كان

يسكن أناس شعرهم أسود، رؤوسهم مستطيلة يعرفون الآن باسم جنس البحر الأبيض المتوسط. وهذه الأنواع الثلاثة تكون جميع سكان الربع الشمالي الغربي، وكان أسلاف الذين يسكنون الآن في تلك المناطق هم الذين خلقوا الحضارة التي ورثناها. وإذا دققنا النظر خارج ذلك الربع الشمالي الغربي نجد في الأقاليم المجاورة جنسين مختلفين فقط– المغول في الشرق والزنوج في الجنوب ويشغل هؤلاء الناس مكانًا هامًا في عالمنا الحديث، ولكن يظهر أنه لم يكن لهم أثر مباشر على الحضارة المبكرة في الربع الشمالي الغربي.

وقد سكن المغول، وهم جنس ذو شعر أسود مستقيم كالسلك ورؤوس مستديرة لا لحية لهم وجلدهم أصفر، سكن هؤلاء المغول الهضاب المنفردة في داخل آسيا والتي نسميها بآسيا المرتفعة High Asia. ومن بين أقوام هذا الجنس استطاع الصينيون أن يكونوا لهم حضارة ذات طابع ممتاز[1] وخرجت أقوام من الصفر مهاجرة من موطنها في مرتفعات آسيا في جميع الاتجاهات ولكنهم لم يصلوا إلى الربع الشمالي الغربي إلا بعد أن تطورت فيه الحضارة لدرجة كبيرة. وقد هاجرت جماعات من الرحل الآسيويين– من الجائز أنهم كانوا من المغول– إلى أقصى شمال شرقي آسيا، وهناك رأي يقول أنهم ظلوا في اتجاههم حتى عبروا ألاسكا، وربما تجولوا أبعد

---

(1) أظهرت نتائج الحفائر في الصين أن ما وصل إلى أيدينا من أدوات يرجع تاريخها إلى العصر الباليوليتي أو النيوليتي تثبت أن بعض الأشياء الأساسية في الثقافة الصينية يرجع أصلها إلى عصر ما قبل التاريخ. أما عن العصر التاريخي فإن الدكتور H. B. Creel يقول في كتابه The Birth of China ص٥٣ "من الناحيتين الأثرية والعلمية يرتفع الستار عن تاريخ الصين عندما كانت أسرة شانج تعيش في أنيانج Anyang في القرن الرابع عشر قبل الميلاد".

من ذلك ووصلوا إلى أمريكا وهكذا أصبحوا أسلاف الهنود الأمريكيين الشماليين.

وفي جنوب الربع الشمالي الغربي تقع أفريقيا التي تعج بسكانها السود كما هي الآن، والتي فصلتها الصحراء الكبرى عن الجنس الأبيض. وكان وادي النيل هو الطريق الوحيد الذي يقطع الصحراء الكبرى من الجنوب إلى الشمال، وكثيرًا ما تجول السود في قلب أفريقيا واتجهوا شمالًا في هذا الطريق حتى وصلوا مصر ولكنهم كانوا يأتون في جماعات صغيرة فقط. وهكذا قدر لهم أن يظلوا وحدهم بسبب الحاجز الصحراوي، وبقي هؤلاء السود غير متأثرين بالحضارة التي في شمالهم ولم يضيفوا إليها شيئًا ذا نفع. ولذلك سنقتصر فقط على ظهور الحضارة في الربع الشمالي الغربي.

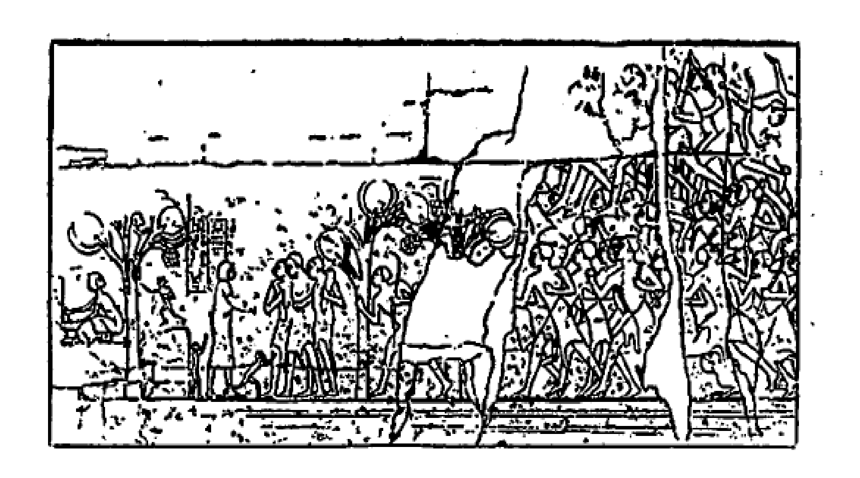
لقد رأينا كيف عاش رجال العصر النيوليتي وكان ينقصهم الكتابة والمعادن والسفن الشراعية كما كانت تنقصهم أشياء أخرى ضرورية لكي يعيش الانسان حياة أفضل من حياة البدائيين، ولم تكتشف أو تخترع هذه الأشياء في أوروبا وإنما على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط في مصر وآسيا الغربية أي في البلاد التي يطلق عليها الآن اسم "الشرق الأدنى[1]. وتشبه هذه البلاد حدوة حصان كبيرة، غير منتظمة، فتحتها نحو الغرب وسميكة جدًا في الوسط، وهكذا تجمعت بلاد الشرق الأدنى حول

---

(1) يستعمل اصطلاح "الشرق الأقصى" ليدل على الصين والهند والجزر الباسيفيكية وخاصة اليابان. واصطلاح "الشرق الأدنى" هو الآن أصلح اسم للأراضي المجتمعة حول الطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

الطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وإلى شمالها آسيا الصغرى وإلى الجنوب منها شمال شرق أفريقيا[١].

بدأ سكان الشرق الأدنى يبنون حضارتهم قبل ٤٠٠ سنة ق.م. وخلال الآلف سنة التالية من ٤٠٠٠- ٣٠٠٠ق.م. تقدموا في بناء تلك الحضارة العظيمة وبدأوا العصر التاريخي أو العصر الذي ابتدأ عندما كتب الانسان لأول مرة مستنداته، تلك المستندات التي تقص علينا في كلمات مكتوبة شيئًا عن حياة الانسان وما مر عليه من أحداث.

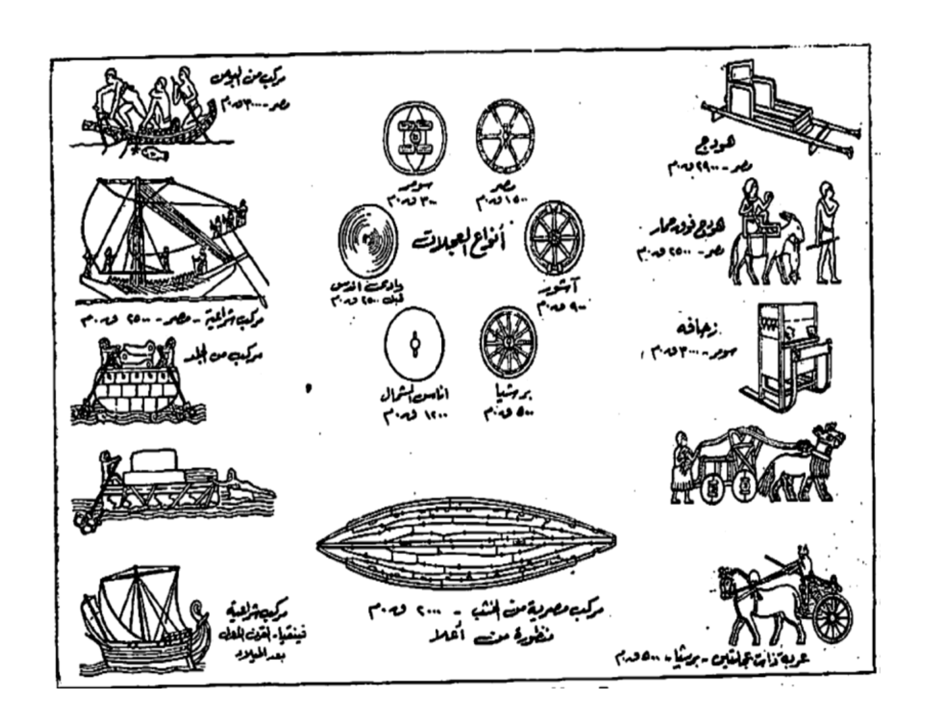


شكل ١٧: أقدم رسم معروف للحياة الزنجية (القرن الثالث عشر ق.م)

في الناحية اليسرى نرى امرأة زنجية تجلس تحت نخلة (من شجر الدوم) تقلب الطعام في إناء من الفخار موضوع فوق النار. وفي هذه الأثناء حدثت ضجة عظيمة. وجاء فريق كبير من الجنود

(١) ظهر منذ الحرب العالمية الثانية اصطلاح "الشرق الأوسط" وهو يضم جميع البلاد التي نسميها الشرق الأدنى ويضمون إليها مناطق أخرى مثل تركيا والسودان وشمال أفريقيا وغيرها. ولكنها تسمية سياسية وضعت في ظرف خاص لغرض معين ولا يمكن أن تحل محل اصطلاح الشرق الأدنى عند حديثنا عن التاريخ- المعرب.

المنهزمين (إلى اليمين) يفرون أمام هجوم الملك المصري الذي اقتحم عليهم المعسكر. ونرى في اليسار جنديًا جريحًا يستند على رفيقين له يحملانه إلى زوجته وطفله اللذين يتقدمان من اليسار. وعلى النخلة التي بجانبهم يقفز قرد وينقنق بجنون عندما شاهد ذلك الاضطراب. ويندفع طفل مضطرب من الخلف ليخبر الطاهية بالكارثة التي حلت بهم. وهذا الرسم على أحد جدران معبد للملك رمسيس الثاني، أي أنه من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. والفجوات التي في هذه الصورة هي الأجزاء المهشمة في الرسم الأصلي.



Transportation in the Ancient Near East

طرق المواصلات في الشرق الأدنى القديم

أصول الحضارة في الشرق الأدنى وتاريخها المبكر

الفصل الثالث

قصة مصر أقدم الحضارات وعصر بناة الأهرام

بدء التنظيم الإداري في مصر

وإذ نعود الآن لنستأنف الحديث عن التقدم الإنساني في العصور المبكرة في الشرق الأدنى فإننا نبدأ بمصر، فنحن نذكر كيف تتبعنا صيادي شمال أفريقيا وهم يهبطون إلى وادي النيل عندما أخذت الهضبة في الجفاف، ونذكر أيضًا كيف بدأ هؤلاء الصيادون في الانتقال إلى حياة مستقرة وأخذوا يربون الماشية ويزرعون الأرض.

ولما كان الماء أساسيًا لنمو الحب في الحقول، ومصر بلد ينعدم فيه المطر، فإن المصريين الأوائل كانوا مضطرين لعمل جهاز بسيط ليرفعوا المياه به من النهر أو من القنوات التي تستمد مياهها حتى تظل الجداول في الحقول ملأي بالمياه ويجيء اليوم الذي ينضج فيه ما فيها من حبوب. وما زال المصريون في الوقت الحاضر يستعملون هذه الآلة لرفع المياه وهي الآلة نفسها التي ورثها أجدادنا نحن معشر الأمريكيين، وكانت تستعمل كثيرًا من الأوقات في نيو انجلاند[1] لنزح آبار المياه.

إن التربة السوداء التي يأتي بها النيل من هضبة الحبشة عظيمة الخصب، وكان النيل في كل صيف يرتفع فوق مستوى شاطئيه ويغطي

(1) الولايات التي على الشاطئ الشرقي من الولايات المتحدة الأمريكية.

الأرض المستوية ويظل فترة كافية لترسيب طبقة من تلك الرواسب. وجاء اليوم الذي ملأت فيه تلك الرواسب أيضًا الخليج الكبير الذي كان في آخر النهر وكون ما نسميه الآن بدلتا نهر النيل.



شكل ١٨: الشادوف المصري– أقدم أنواع الأجهزة لرفع مياه الآبار– يستعمل لري الحقول.

يقف الرجل الذي في أسفل الصورة في الماء ممسكًا بدلوه المصنوع من الجلد (أ) في الصورة ونرى فوقه قائم الشادوف (ب) وفي نهايته كتلة كبيرة من الطين لتقيله وإيجاد التوازن. وهناك قائم آخر لتثبيت الشادوف

فيه (د). ويرفع هذا الرجل المياه ليضعها في حوض صغير من الطين (هـ). ونرى في الصورة أيضًا رجلًا آخر يرفع المياه بنفس الطريقة من الحوض (د) إلى حوض أعلى (و). وفي أعلى الصورة رجل ثالث (ر) يرفع المياه من الحوض الأوسط إلى الحوض الأعلى (ح) إلى جانب الجزء العلوي من الشاطئ ومنه تسير المياه في القنوات المتفرعة في أرجاء الحقول.

ويحدث ذلك أثناء انخفاض المياه ويستمر أمثال هؤلاء الناس يرفعون المياه من أسفل إلى أعلى على ثلاث درجات، يعملون ليلًا ونهارًا دون انقطاع مدى مائة يوم في كل عام.

وفي هذه الدلتا ومعها باقي الوادي حتى الشلال الأول، اثنى عشر ألفا ميلًا مربعًا من الأرض الصالحة للزراعة، أي ما يعادل مساحة ولايتي ماساشوستس وكونيتيكت مجتمعتين تقريبًا(١) ولكن المساحة التي كان من الممكن زراعتها في العصر النيوليتي كانت أقل من هذه المساحة بكثير لأن الوادي كان في تلك الأيام مليئًا بالمستنقعات. ولم يكن من الميسور زراعة بعض المحاصيل إلا في أراضي متفرقة هنا وهناك تفصلها تلك المستنقعات، وكانت سرعة تيار النهر وقوته من العوامل التي جعلت زراعة شواطئ النيل عملًا صعبًا، ولكن الأمر كان يختلف في الدلتا، فهناك تفرع نهر النيل إلى

(١) ولا يتان من ولايات شرق أمريكا ومن أهم ولايات نيو انجلاند وأكثرها في الأهمية الصناعية والتعليم. وتبلغ مساحة كونيتيكت Conneeticut ٥٠٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٢.٠٠٧.٢٨٠ نسمة. وتبلغ مساحة ماساشوستس Massachusetts ٨٢٣٧ ميل مربع وعدد سكانها ٤.٧٠٥.٠٠٠ نسمة (المعرب)

نهيرات صغيرة تيارها بسيط. وكان من السهل استصلاح المستنقعات لتصبح أرضًا زراعية.

ومع مضي الزمن كان سكان الدلتا أسبق في الحضارة من سكان الصعيد، وكان هذا السبق في الدلتا سببًا في تنظيم أهلها لأنفسهم وتعاونهم فيما بينهم. وانتهى الأمر بأن أصبحت لهم حكومة بعد أن مضى عليهم وقت غير قليل عندما أحس السكان بحاجتهم إلى زعيم، لأن الناس عادة يحسون بضرورة وجود من يتزعمهم عندما يحتاجون ليعاونهم في تنظيم الدفاع عن أنفسهم إذا ما هاجمهم عدو. ولكن زعامة مثل هذا الرئيس المحارب لم تضمن دائمًا حسن الإدارة، لأنه من الأفضل لمثل هذه الجماعة أن تجد زعيمًا ليحاسب من عينهم ليعنوا بأمر جداول الري والترع ويرشدهم إذا احتاجوا إلى إرشاد. فإن فيضان النيل كان يملأ الترع بالطمي، وكان من الضروري على سكان أي مجموعة من القرى أن يتعاونوا فيما بينهم ويذهبوا لحفر تلك الترع وتطهيرها، فإنهم يعلمون أنهم إذا أهملوا ذلك امتنع جريان الماء إلى الحقول التي يعتمدون عليها في الحصول على الحبوب ولن يكون هناك محصول، أي أنه لن يتيسر لهم الحصول على الخبز. وكان الإشراف على مثل هذا العمل محتاجًا إلى زعيم ليس محاربًا فحسب بل تتوافر فيه صفات كثيرة، وانتهى الأمر بأن شخصًا ذكيًا شجاعًا أصبح في مكان الزعامة بين كل مجموعة من قرى الدلتا.

ذلك ما كان يحدث قبل سبعة آلاف عام على وجه التقريب، ومن الجائز أن واحدًا من زعماء مجموعات القرى في الدلتا أصبح زعيمًا محليًا

وأصبح مشرفًا على أعمال الري في منطقة كبيرة. وكان الناس في تلك المنطقة مجبرين على أن يقدموا له في كل موسم جزءًا من الحبوب أو الكتان الذي جمعوه من الحقول، وإذا ما قصر أحدهم في ذلك فإن الزعيم يأمر بمنع جريان المياه إلى حقله، بل وربما حدث أكثر من ذلك وهو أن بعض رجال الزعيم يذهبون إلى هذا الممتنع لوضع الأمور في نصابها، وهكذا بدأت أقدم مظاهر الضرائب وهي النواة الأولى في وجود الحكومة.

ويكاد يكون من المحقق أن كثيرًا من أمثال هذا الزعيم وطدوا سلطانهم في الدلتا إلى أن تمكن واحد منهم فأخضع الزعماء الآخرين الذين كانوا يتنافسون فيما بينهم وجعل الدلتا كلها مملكة واحدة، وهي ما نطلق عليها اسم مصر السفلى لأنها واقعة في آخر مجرى النيل. وحدث بعد ذلك أن قامت مملكة أخرى في الجزء الواقع جنوبي الدلتا وشملت وادي النيل أي من قمة الدلتا حتى الشلال الأول وهي منطقة تمتد أكثر من ٥٠٠ ميل ونطلق عليها اسم مصر العليا.

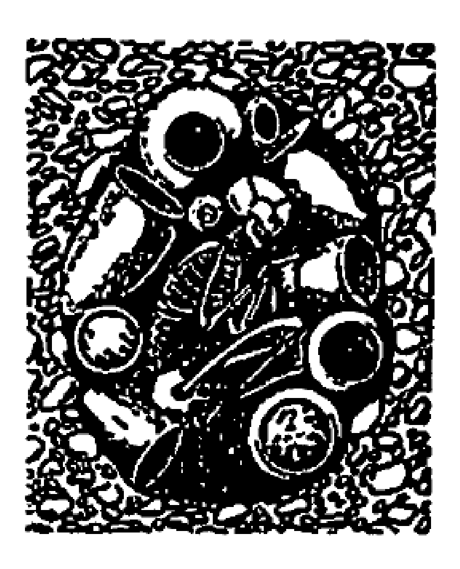
كانت هاتان المملكتان قائمتين منذ سبعة آلاف عام أي حوالي عام ٥٠٠٠ ق.م.، وظلتا متجاورتين عدة قرون. وكانت الحياة إذا ذاك شبيهة إلى حد ما بحياة الهنود في أمريكا– قبل أيام خرستوف كولومبوس– الذين كانوا يعتمدون اعتمادًا تامًا على الزراعة في حياتهم.

وكان الملك يعيش في كل من هاتين المملكتين في عاصمة ملكه، ولكن تلك المباني التي أقامها الملوك كانت بسيطة وأقل من أن تقاوم الزمن

فزالت، ولم يصبح لها أثرًا. وكان الناس يعيشون في قرى على طول النهر لا تزيد عن عدد من الأكواخ والمنازل الصغيرة المبنية من الطين شبيهة بما كان قائمًا منها قبل ذلك العهد. وقد زالت أمثال هذه المباني بالطبع، ولكن هؤلاء الناس اعتادوا أن يدفنوا موتاهم على حافة الصحراء خلف القرى التي كانوا يعيشون فيها. كانوا يدفنون هؤلاء الموتى في حفر عميقة. وأثبتت الحفائر التي قام بها الأثريون في تلك الجبانات أن المعدن لم يستعمل إلا قليلًا. وذلك يرجع إلى أن صناعة التعدين لم تكن معروفة لهم، ولهذا لم يستطيعوا الحصول على كميات كبيرة منه. ومن ناحية أخرى لم يكن هناك أحد يعرف كثيرًا عن صناعة شيء من ذلك المعدن. ومن المعروف أن المعدن لا يلعب دورًا هامًا في حياة الإنسان اليومية، إذا اقتصر استعماله على صنع بعض أدوات صغيرة مثل دبابيس الزينة أو بعض حبات لصناعة عقود النساء أو صنع أزميل من وقت لآخر، ولذلك استمر الناس يستعملون الأدوات والأسلحة المصنوعة من الحجر كما كانوا يفعلون من قبل.

ومن المحتمل جدًا أن الصلة التجارية كانت كبيرة بين المملكتين لأن النيل يوحد بينهما، ومن المحتمل أيضًا أنه حدثت فترات قامت فيها الجفوة مكان الود، وأخيرًا حوالي القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد قام ملك قوي من ملوك الوجه البحري (مصر السفلى) وخرج إلى الوجه القبلي (مصر العليا) غازيًا وانتصر على ملكه. ولسنا نعرف حتى الآن اسم هذا الملك الذي تم على يديه تحقيق أول مملكة تجمع بين شمال مصر وجنوبها، ولسنا نعرف الاسم الذي أطلقه على تلك المملكة استمرت بضع قرون

من الزمان، حكم أثناءها كثير من الملوك كانوا يعيشون في هليوبوليس "مدينة الشمس" التي كانت العاصمة الأولى لمصر الموحدة. كانت هذه المدينة بحكم موقعها مركزًا وسطًا بين الملكتين وظلت دائمًا أكثر المدن المصرية تقديسًا وأهمية.



شكل ١٩: قبر مصري في عصر الاتحاد الأول

كانت المقابر على شكل حفرة عمقها خمسة أو ستة أقدام. وكان الميت يوضع في وسطها تحيط به أواني الفخار التي كانت تملأ بأنواع المأكل والمشروبات.

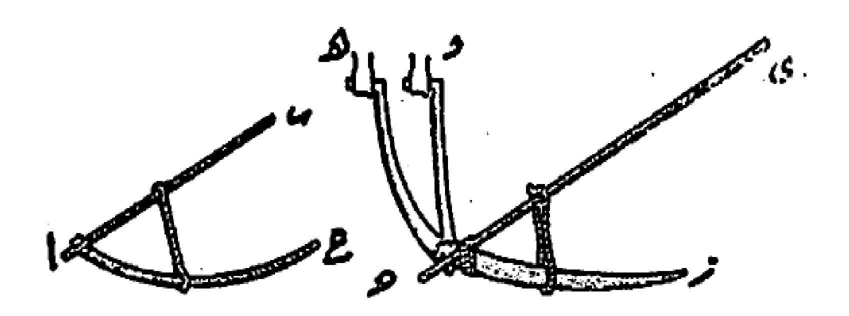
قيام الحضارة المصرية المبكرة على أساس الزراعة

أصبحت مدينة هليوبوليس أثناء "الاتحاد الأول" مركز الحياة زاهرة لم تعرفها من قبل، وبدأ الناس يكونون ثروات منقولة لا عهد لهم بها. كانت هذه الثروة هي الحبوب التي تدفقت على العاصمة من الحقول الكثيرة التي

لم يعرف الانسان لها مثيلًا قبل ذلك اليوم، وهي حقول انتشرت في أكثر أرجاء مصر وسهل عليهم زراعتها لاختراعهم للمحراث بعد أن كانوا لا يعرفون غير الفأس. وكان حرث حقل من الحقول بفأس خشبية عملًا مضنيًا وبطيئًا مما جعل مساحة الأرض التي استطاع هذا الانسان زراعتها بالحبوب محدودة، وأخيرًا جاء اليوم الذي أدرك فيخ أحد المصريين المهرة أنه إذا أطال يد الفأس طولًا كافيًا يمكنه أن يربط طرفها إلى قائم يثبته بين رأسي ثورين، فإذا أضاف إلى تلك الآلة الجديدة قائمين عموديين فإنه يستطيع أن يحرك هذا المحراث الجديد ويوجهه كما يشاء عندما يجره الثوران أمامه في الحقل، ومنذ ذلك الوقت تطورت حياة هذا الفلاح من ثقافة الفأس إلى ثقافة المحراث.

ويمكننا أن نسمي هذا الاختراع بأنه أول اختراع ميكانيكي للزراعة. فقد كان بداية لعصر جديد. وأصبح الإنسان قادرًا على تسخير الحيوان، وبعبارة أخرى أمكن لهذا الإنسان أن يحصل على طاقة أكبر من القوة الإنسانية واستعمل هذه الطاقة للمرة الأولى في زراعة الحقول.

وكان من أثر هذا الاختراع المؤدي إلى إنماء مقادير الغذاء بين الأقدمين شبيهًا باستعمال الآلات الميكانيكية الحديثة وأثرها في إنماء الثروة وتقدم الأمم في العصر الحالي وخاصة في القارة الأمريكية. ويمكننا أن نشبه توسع مصر في إنتاجها في عهد "الاتحاد الأول" بما حدث في الولايات المتحدة عندما توسعت وزادت في أراضيها...



شكل ٢٠: إلى اليسار فأس مصرية ممن الخشب. وإلى اليمين المحراث الخشبي الذي تطور منها

أطال المصري يد فأسه (أ– ب) فأصبحت ذراعًا للمحراث ــج– ي) وكان يربط الطرف العلوي (ي) إلى نير يثبته في قرون الثورين. وكان القائمان (هـ– و) لازمين للحارث لتوجيه المحراث حيث يريد، وكان هذان القائمان مثبتين بحيث يلتقي الذراع بسن المحراث (خ– ز) الذي حل محل سن الفأس (أ– ح) ولم يكن لأقدم المحاريث غير قائم واحد ولكن لم يمض وقت طويل حتى أدرك المصري أنه من الأفضل له أن يزيد قائمًا ثانيًا.



شكل ٢١: المحراث والفأس التي كانت أصلاً له

يوضح هذا الرسم– وهو مستمد من منظر مصري قديم– الفارق الكبير بين الاثنين. كان المحراث أقوى وأسرع. وكان في استطاعة من يستعمله أن يحرث فدانًا في اليوم الواحد، بينما لم يستطع من يستعمل فأسه– اليوم كله– أن يعزق أكثر من ربع فدان عزقًا بسيطًا لا يؤثر إلا على القشرة العلوية من الأرض. وعلى هذا الأساس كان في استطاعة المصري الذي يستعمل المحراث أن يزرع أربعة أمثال مساحة الأرض التي كان يزرعها من قبل، وكذلك تضاعف محصوله أربع مرات وتضاعف بمثل هذه النسبة المحصول من الحبوب وما يدفعه للملك من ضريبة.

..... المنزرعة، وكان أثر زيادة الثروة سواء بالنسبة للحكومة أو للأفراد عاملًا مهمًا في تقدم الحضارة المصرية. ولم يكن هذا الإيراد السنوي من الحبوب سببًا في زيادة الثروة فحسب بل يسر لهؤلاء القدماء أمر إقراض الآخرين جزءًا من هذه الثروة المنقولة إذا زادت عن حاجتهم، ومكنتهم كذلك من دفع الضرائب وتسوية ما عساه أن يكون عليهم من ديون. ومن السهل أن ندرك أن وجود مثل هذه الثروة المنقولة– في وقت لم يعرف فيه الإنسان استعمال النقود– كان عاملًا مهمًا ذا أثر كبير في حياتهم.

وأصبحت هذه الزيادة الكبيرة في مساحة الأراضي المنزرعة سببًا في أهمية وجود الحكومة المركزية للبلاد كلها أكثر مما كانت عليه من قبل لأن زيادة مساحة الأراضي تطلبت زيادة كمية المياه لري الحقول. وهكذا تغيرت النظم المحلية البسيطة الخاصة بالري وأصبحت جزءًا من نظام

يجمعها كلها، نظام وطني كبير له مركز إدارة في العاصمة، وأصبحت إدارة الري التي تركزت في أيدي موظفي الملك أول دولاب إداري كبير في تاريخ الإنسانية، وله أثر واضح في تنفيذ الأعمال الأخرى.

ومن السهل أن ندرك أمية الزراعة في حياة المصريين القدماء أثناء فترة "الاتحاد الأول" من الأسماء التي أطلقوها على فصول السنة. فإنهم قسموا السنة إلى ثلاثة فصول، أولها "الفيضان" ثم "البزوغ"– ومعناه ظهور أو خروج الحقول من مياه الفيضان التي كانت تغطيها– وأخيرًا فصل "الحصاد"، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بين قوم كانت تدور حياتهم حول الري والعمل في الحقول حتى يقسموا سنتهم إلى فصول تشير إلى الفيضان وما تصبح عليه الحقول بعد ذلك. وكان فصل من هذه الفصول الثلاثة يحتوي على أربعة أشهر حسب النظام القمري. وشابه المصريون في هذا الشأن جميع الشعوب القديمة الأخرى لأن القمر هو أسهل الوسائل في حساب الزمن، مثلهم في ذلك مثل الهنود الأمريكيين الذين كانوا يحسبوا أيضًا وقتهم بالشهور القمرية أي الفترة بين الهلالين. فإذا أراد أحدهم مثلًا أن يقول إنه قام برحلة استغرقت شهرين فإنه يصفها بأنها استغرقت قمرين. ولكن الشهر القمري غير ثابت في عدد أيامه، فتارة يكون ثلاثين يومًا وأخرى تسعة وعشرين يومًا. وفي الوقت ذاته نرى مدار السنة خاضعًا لنظام الشمسي، ولهذا لا يصلح الشهر القمري وحده لتقسيم الثلاثمائة والخمسة والستين يومًا إلى أقسام متساوية. ولكن رغم الخطأ الواضح له والذي كان يسبب له كثيرًا من المتاعب فإن الشهر القمري كان على وجه

التقريب جزءًا من اثنى عشر من تلك السنة، فاعتبر المصري أن السنة تحتوي على اثنى عشر شهرًا.

وأثبت المصريون أنهم قوم عمليون أكثر من جيرانهم من شعوب العالم القديم. فمن المرجح جدًا أنهم عرفوا قبل "الاتحاد الأول" عدد أيام السنة ولكنهم لم يعرفوا إذ ذاك أن السنة لم تكن ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا بل ينقصها جزء بسيط لا يتجاوز ربع يوم آخر. وإزاء ذلك لم يكن أمامهم وسيلة لتقسيم السنة تقسيمًا أكثر دقة إلا ترك نظام الشهر القمري وما يكتنفه من صعاب، ووجدوا أنه من الأفضل لهم أن يخترعوا لأنفسهم تقويمًا آخر احتفظوا فيه بعدد الشهور الاثني عشر، ولكن عدد أيام كل واحد منها يجب أن يكون ثلاثين يومًا، وكانت هذه السنة ذات الثلاثمائة والستين يومًا سنة قصيرة أضافوا إليها خمسة أيام أخرى اعتبروها عيدًا يحتفلون به نهاية كل عام. وبذلك تصبح السنة ثلاثمائة وستين يومًا كما كانت من قبل.

يساعدنا علم الفلك على أن نعرف الوقت الذي تمكن فيه المصريون من الوصول إلى هذا الكشف، ويحدد السنة بأنها كانت عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد[1]، ولهذا يمكننا القول ان اختراع هذا التقويم في القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد كان أول حادث محدد التاريخ في حياة الجنس البشري، وبالرغم من مضي ستة آلاف عام فإننا ما زلنا نستعمل في حياتنا

(1) كان عام ٤٢٤١ ق.م هو التاريخ الذي حسبه علماء الفلك بأنه التاريخ الذي توصل فيه المصريون إلى اختراع تقويمهم، ولكن لتضح الآن أن هناك خطأ بسيطًا في ذلك الحساب وأصبح التاريخ الصحيح هو عام ٤٢٣٦ ق.م.

التقويم المصري القديم بعد أن أدخل عليه الرومان مع الأسف الشديد بعض تغييرات في الشهور فجعلوا بعضها يزيد في عدد أيامه عن البعض الآخر.

ومن مميزات التقويم المصري أنه جعل للشهور أعدادًا تعرف بها، ولهذا كانت شهورًا ذات طابع عملي إذا أردنا تحديد أي واحد منها، ولكن لم يكن في ذلك التقويم ما يساعدنا على تحديد أي سنة معينة. فإذا كان الأمر متعلقًا بحادث من الحوادث في السنة التي نحن بصددها فليس هناك صعوبة لأنه يكفي وضع تاريخ خطاب أو تعاقد على عمل بذكر الشهر واليوم، ولكن إذا كان يعنينا ذكر شيء في سنة أخرى أو نريد الإشارة إلى حادث جرى منذ بضع سنوات فإن الأمر يصبح معقدًا. فنحن نلتجئ الآن مثلًا إلى حادث هام وهو مولد المسيح ليسهل علينا حساب السنوات، ولكن مثل هذا الحل لم يكن معروفًا عند المصريين القدماء إذ كانوا يسمون كل سنة بحادث هام جرى فيها. وهذا ما زال متبعًا حتى الآن بين هنود أمريكا الشمالية بل ما زالوا يجري أيضًا بين الأمريكين الحاليين في بعض الأحيان. فإن أهل شيكاغو ما زالوا يقولون فيما بينهم أن أمرًا ما حدث "في عام الحريق الكبير" أو ما زال بعضنا يشير إلى أمر من الأمور بأنه حدث في "عام توقيع الهدنة". وهكذا كانت أقدم الآثار المصرية المكتوبة مؤرخة بأنها حدثت في سنوات كانت لها صفات مميزة.

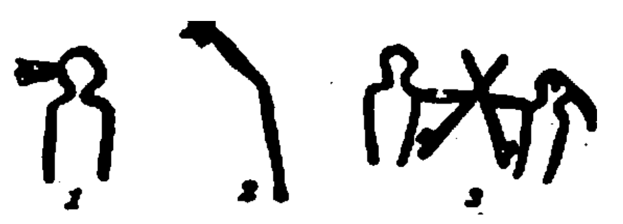
وجاء الوقت الذي أخذ فيه المصريون يحتفظون ببيان بأسماء السنين، ولما كانت كل سنة منها تشير إلى حادث هام مثل هذه البيانات أصبحت

سجلًا لتلك الحوادث ومن ثم صارت مصدرًا مليئًا بالمعلومات للمؤرخين المحدثين.

وأقدم بيان وصل إلى أيدينا من هذا النوع هو حجر بالرمو (لأنه محفوظ في متحف مدينة بالرمو في جزيرة صقلية) وهو أقدم بيان بالسنين في تاريخ العالم، إذ أنه يبدأ في عام ٣٤٠٠ ق.م. على وجه التقريب. وكان يحوي عندما كان كاملًا أسماء نحو ٧٠٠ سنة تنتهي حوالي ٢٧٠٠ ق.م. وأدرك المصريون بعد ذلك أنه من اليسير عليهم أن يحصوا السنين حسب وقوعها في عصر كل ملك على حدة. وكانوا يقولون مثلًا أن حادثا ما وقع في السنة الأولى أو في السنة العاشرة من حكم ملك من الملوك، وانتهى بهم الأمر إلى عمل جداول بأسماء الملوك السابقين في مدى مئات من السنين.

وفي أول الأمر كانت هذه السجلات على هيئة صور مثلها مثل سجل زعيم قبيلة الداكوتا Dacota الذي كان يثبت فيه السنين كما في شكل ٢٢، ولكن مع تقدم الزمن أصبحت أعمال الحكومة والأفراد في حاجة ضرورية إلى تدوين معاملاتها، ولنضرب مثلًا بمزارع يريد أن يعرف ما دفعه من ضرائب، فإن هذا المزارع يستطيع أن يحفر على جدار كوخه المبني من الطوب اللبن رسمًا بسيطًا للوعاء الذي يستعمله في كيل الحبوب ويضع إلى جواره عددًا من الخطوط توازي ما دفعه منها، وهذه الطريقة نفسها أي الرموز التصويرية كانت أولى الخطوات في اختراع الكتابة، وهي طريقة ما زالت سائدة حتى اليوم بين بعض قبائل الهنود في أمريكا الشمالية. ففي "ألاسكا" يرسل سكانها رسائل في هيئة صورة محفورة على

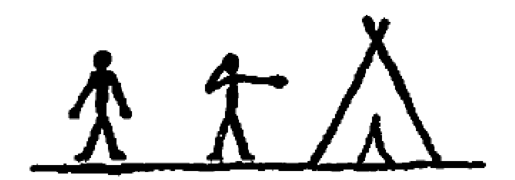
قطعة من الخشب دون كتابة أي كلمات. فمثلًا في الشكل ٢٣ نرى صورة يقرأها واحد من أهالي آلاسكا "لا يوجد طعام في الخيمة" بينما يقرؤها آخر "لم يصبح للحم وجود في الكوخ" لأن مثل هذه العلامات التصويرية لا تدل إلا على المعاني فقط. فلنضرب مثلًا أخر بأحد زعماء الهنود الذي دفعته رغبته لتسجيل أعماله إلى تدوينها بالصور كما نرى شكل ٢٤. ففي الصورة أيضًا لا نرى أثرًا للكلمات ولكنه صور الحوادث التي امتاز فيها بشجاعته بطريقة يمكن التعبير عنها بكلمات، ولكن هذه الكلمات غير محددة بالضبط وإنما يمكن التعبير عن معنى الصورة بطرق متعددة، وكانت هذه الطريقة بعينها هي التي اتبعها ملوك مصر الأوائل.



شكل ٢٢: جزء من جدول بأسماء واحد وسبعين عامًا سجله أحد زعماء داكوتا

سجل أحد زعماء داكوتا واسمه "الكلب المتوحد" جدولًا بأسماء واحد وسبعين عامًا على ثوبه المصنوع من جلد الثور. وتبدأ هذه السنوات في عام ١٨٠٠ عندما كان طفلًا في الرابعة، وكان السعال الديكي منتشرًا جدًا في تلك السنة فسماها "عام السعال الديكي" وجعل رمزها رأس انسان يسعل بشدة (١) وفي سنة أخرى تساقط كثير من الشهب فسماها "عام الشهب" وجعل رمزها رسمًا بسيطًا لشهاب يهوى (٢). وفي سنة ثالثة شهد ذلك الزعيم مجلس صلح بين قبيلة الداكوتا وقبيلة القربان فجعل رمزها هنديين اختلف تصفيف شعرهما رمزًا للقبيلتين ورسم هذين الهنديين

وهما يتبادلان قصبان التدخين (٣). وهكذا عبر الزعيم بطريقته الخاصة عن كل حادث هام في السنة. فمثلًا بدلًا من أن يقول أن شيئًا حدث في عام ١٨١٣ فإنه يقول أن هذا الأمر حدث عام السعال الديكي وكان إذا أراد معرفة الوقت الذي مر على سنة من السنوات فإنه كان يفحص جدوله فيعرف التاريخ.



شكل ٢٣: رسالة في شكل صورة نقشها على الخشب أحد هنود ألاسكا

نرى في هذه الصورة شخصًا يرخي ذراعيه إلى جانبيه ويداه مفتوحتان. وذلك يدل في عادات هؤلاء الهنود على الحيرة أو الجهل أو الفراغ أو لا شيء أو تدل فقط على كلمة "لا" والصورة الأخرى لشخص آخر يضع يده في فمه ومعناها الأكل أو الطعام. وهذا الشخص يشير بيده الأخرى إلى الخيمة ومعنى ذلك "في الخيمة" والرسم كله يعبر عن رسالة مؤداها "لا يوجد طعام في الخيمة".



شكل ٢٤: سجل مصور يثبت انتصار أحد زعماء قبيلة الداكوتا المسمى الرئم الجاري

أعد هذا الزعيم الداكوتي تاريخ حياته في سلسلة من أحد عشر رسمًا منها هذا الرسم الذي يمثله عندما قتل خمسة من أعدائه في يوم واحد. ونرى هذا البطل "الرئم الجاري" فوق جواده وبندقيته في يده وعلى درعه رسم صقر وهو شعار عائلته. وتحت الجواد نرى رئمًا يجري وهو يقصد بذلك أن يدل على اسمه الشخصي. ونرى في الصورة أيضًا أثر سير جواده حول غابة الأشجار الصغيرة التي كان يختبئ فيها هؤلاء الأعداء الخمسة وقد عبر عنهم بشخص واحد يقبض على بندقيته ورسم البنادق الأربعة الأخرى وكأن أصحابها يطلقونها دلالة على عدد المحاربين الذي كانوا في تلك الغابة.

ولكن هذه الخطوة التصويرية التي وقف عندها هنود أمريكا وهي أمريكا وهي التعبير عن حادث من الحوادث بالرموز التصويرية ليست إلا خطوة تمهيدية للكتابة، ولا يمكن للإنسان أن يصل الكتابة الصوتية إلا بعد خطوتين تاليتين أولاهما أن أي شيء أو غرض يجب أن يكون له شكل ثابت لا يتغير ويمكن لكل شخص أن يعرف أنه هو العلامة لكلمة معينة تدل على هذا الشيء. فمثلًا يصبح رسم رغيف من العيش شيئًا متفقًا عليه من الجميع، وهكذا يسمى "رغيف" وليس "خبز" أو "طعام" وثانيهما أن تصبح هذه العلامة "مقطعًا" له نقطه الثابت أينما كان في الكلمة، وأنه إذا ورد رسم هذه العلامة بين حروف مقاطع كلمة أخرى فإن ذلك يدل على صلة بين مدلولها الأصلي وقيمتها الصوتية، وبدون هذه الخطوة لم يكن في استطاعة المصري على الإطلاق أن يكتب كلمات مثل "العقيدة" أو "الحب" أو "الكراهية" أو "الجمال" لو اقتصر على رسم الصور فقط.

ولو أنه خطا تلك الخطوة الهامة وهي استعماله لعدد كبير من الصور كعلامات صوتية، وصارت كل منها مقطعًا لما كان في مقدوره أن يكتب كل كلمة عرفها، لأن بعضها كان لا يمكن رسمه. وهكذا مكنته هذه العلامات الصوتية من أن يصبح أول من عرف الكتابة الحقة التي نشأت بين سكان وادي النيل قبل ظهورها في أي شعب آخر من شعوب العالم القديم.

شكل ٢٥: الأبجدية المصرية

كل هذه الحروف ساكنة، وما من شك في أن المصريين كانوا يستعملون ما يقابل الحروف المتحركة في اللغات الأوروبية ولكنهم لم يكتبوها. وكانوا يستعملون في العصر اليوناني حرف الواو والالف المكسورة

كحروف متحركة. كما كانوا يستعملونها في الوقت ذاته حروفًا ساكنة (أ) الالف المفتوحة بدلًا من الفتحة، (و) والواو بدلًا من الضمة.

وجاء الوقت الذي أصبح في الكتابة المصرية القديمة أكثر من ستمائة علامة تعلمها الكتاب المصريون، وأصبحت الكتابة مجموعة كبيرة العدد من العلامات، وكان بعض هذه العلامات يمثل كلمة قائمة بنفسها، كما كان بعضها في حاجة إلى علامة أو علامات أخرى معه ليصبح كلمة، ومن ثم أصبح في استطاعته وضع كلمة بعد أخرى وكون جملًا أدت إلى ما يقصد التعبير عنه.

وفي تاريخ مبكر تقدم المصريون في هذا المضمار فأصبح لديهم عدد كبير من العلامات تعبر كل منها عن "حرف" أي صار لديهم حروق أبجدية، ولم يأت القرن الثالث والثلاثين قبل الميلاد أي في أواخر عهد "الاتحاد الأول" حتى احتوت الأبجدية المصرية على ٢٤ حرفًا، وهي أقدم أبجدية عرفها الإنسان. ولو أراد المصريون في ذلك الوقت أن يكتبوا لغتهم بحروف أبجدية لفعلوا. ولكن الكتاب كانوا قد اعتادوا على استعمال العلامات، وكانت هذه الطريقة متأصلة في نفوسهم، فلم يستطيعوا أن ينبذوا ما اعتادوا عليه، مثلهم في ذلك كمن يكتبون اللغة الإنجليزية كما تعلمون ولا يريدون أن يكتبوها كما ينطقونها. وإذا كان هناك شخص لا يقر المصريين القدماء على طريقتهم في كتابة لغتهم واحتفاظهم بمجموعات العلامات رغم صعوبتها فإني أؤكد له أنه سيكون بين الأجيال القادمة أناس

سيسخرون من تمسك كتاب الإنجليزية بكتابة كثير من الكلمات كما جاءت إليهم رغم أنهم ينطقونها بشكل مختلف(١).

وخطا المصريون بعد اختراعهم للكتابة خطوة أخرى وهي إيجاد الوسيلة التي تساعدهم على الانتفاع بها فتوصلوا إلى طريقة عمل البراد أو أي ألوان أخرى بوضع قليل من الصمغ في اماء ويمزجون به الكنن أو الكربون النقي الذي يعلق بخارج الأواني عند وضعها على النار. وجدوا أيضًا أنهم لو أخذوا جزءًا من قصبة رفيعة وجعلوا إحدى نهايتها مدببة وغمسوها في هذا السائل لسهل عليهم الكتابة بها. وتعلموا أيضًا أنهم لو شقوا نوعًا خاصًا من النباتات التي تنبت على حافة النهر في المستنقعات– وهو نبات البردي– إلى فلقات صغيرة لأمكن الكتابة عليها في يسر، وأدرك أن استعمال هذا البردي أسهل من الحمل من قطع الفخار والعظم والخشب والحجر التي كان يستعملها من قبل. وإذا أرادوا الحصول على صفحة كبيرة فإنهم كانوا يضعون تلك الفلقات بعضها طولية والبعض الآخر عرضية فوقها ثم يضعون صفحة بعد أخرى ويلحمون أطرافها بوضع جزء منها فوق الآخر ثم يضغطونها كلها فيصبح السطح أملس مستويًا معد للكتابة. وكان هذا البردي لا يتمزق بسهولة. أما لونه فكان شبيهًا بالورق الأبيض أو الورق الأصفر الفاتح اللون. من هذا نرى أن المصريين قد

---

(١) يشير المؤلف إلى مئات بل إلى آلاف الكلمات التي تنطق بشكل مختلف عن كتابتها فمثلًا كلمة thoroughly اعتادوا على كتابتها بهذه الحروف ولكنهم ينطقونها tharali أو كلمة Knight فإنه أقرب إلى النطق لو كتبوها nite وهكذا. وقد بدأ كثير من الكتاب المحدثين– وخاصة في أمريكا– في محاولة كتابة بعض الكلمات كما ينطقونها، ولكن محاولاتهم محدودة. وليس ما يدل على حدوث تغيير جوهري في وقت قريب. (المعرب).

اكتشفوا أن سطحًا رفيعًا من مادة نباتية هو خير ما يمكن استعماله للكتابة. ومنذ هذا الاكتشاف لم يستطع أحد أن يكتشف مادة خيرًا منها، وبالاختصار فإن المصري القديم، اكتشف القلم والحبر والورق، وورثنا هذه الاكتشافات الثلاثة عنهم. وما زال الورق يسمى باسمه القديم "بابيروس" (في اللاتينية) مع تغيير طفيف(١).

شكل ٢٦: مثل من الهيروغليفية (في السطر العلوي) وما يماثله بالكتابة الهيراطيقية (في السطر الذي تحته) وكانت هذه الأخيرة تكتب بسرعة بالحبر والقلم على أوراق البردي وتستعمل في جميع الأعمال اليومية.

تماثل الكتابة الهيراطيقية ما نكتبه بأيدينا في حياتنا اليومية. أما الكتابة الهيروغليفية فهي تماثل حروف الطباعة. ونرى في المثل السابق أن الكتابة الهيراطيقية ليست إلا العلامات نفسها في السطر العلوي. وكان المصريون يكتبون في أغلب الأحيان من اليمين إلى اليسار كما في هذا المثل، ولكنهم كانوا يكتبون في بعض الأحيان من اليسار إلى اليمين ومن أعلى إلى أسفل. وفي العصر المتأخر في القرن الثامن قبل الميلاد بدأوا يستعملون كتابة أخرى أسرع وأكثر اختصارًا وهي الكتابة المعروفة باسم الديموطيقية.

---

(١) أنن التغيير من بابيروس (Papyros) إلى بيبر (Paper) طفيف جدًا لأن (os) ليست إلا نهاية لبعض الكلمات في اللغة اليونانية يجب حذفها في الإنجليزية. وهذا يبين بوضوح تام أ، أصل الكلمة الإنجليزية مأخوذ من الاسم القديم.

وكان لاختراع الكتابة واختراع استعمال الورق أثر عظيم في رفع مستوى الجنس الإنساني أكثر من أي شيء آخر، لأنه أهم من جميع الحروب التي خاض الناس غمارها وأهم من جميع النظم أو الدساتير التي وضعت منذ خلق الله هذا الكون.

ولم تكن الكتابة منتشرة الاستعمال بين عامة الناس، بل كادت تكون وقفًا على المعابد وعلى بلاط الملوك والموظفين، وظل الناس يعشون في قراهم كما كانوا يفعلون من قبل في العصور المبكرة. ودفن هؤلاء المصريون الأوائل موتاهم في جبانات على حافة الصحراء قريبة من قراهم. وظلت أماكنها مجهولة من علماء الآثار حتى عام ١٧٩٤ عندما عثر عليها بعض الباحثين، واستمر العلماء بعد ذلك يعثرون عليها من آن لآخر في مناطق مختلفة على حافة الصحراء ممتدة على الجانبين الشرقي والغربي من نهر النيل، وأمدتنا آلاف المقابر التي حفرت بكثير من الأدوات والأشياء المختلفة التي مكنتنا من معرفة نوع الحياة التي عاشها هؤلاء الناس. فكانت أوانيهم الفخارية التي وضعوها في مقابر ملونة في بعض الأحيان بمناظر تمثل مراكب نيلية ذات مجاديف عدة. وهذه السفن هي أقدم ما عرفناه، وهي تثبت لنا وجود الصلة التجارية بين المدن المختلفة لأن كل مركب من تلك المراكب وضعت قائمًا عليه شعار المدينة التي أتت منها مثل الراية. وقد أمدتنا جبانات عصر "الاتحاد الأول" برسم ثلاثمائة من تلك المراكب وعليها رايتها، وكانت تلك المراكب تجري فوق صفحة النيل من شماله عند البحر الأبيض حتى جنوبه عند الشلالات. وكان أهل الدلتا هم أصحاب السبق في التجارة لأننا عثرنا في غرب الدلتا على مائتين واثنين وعشرين

رسمًا لتلك القوارب ذات الرايات، وهذا يدل في الوقت ذاته على أن أقدم ميناء على شاطئ البحر الأبيض كانت من المرجح في الركن الغربي من الدلتا أي ليس بعيدًا عن المكان الذي اختاره الاسكندر الأكبر لبناء مدينة الإسكندرية أهم موانى العالم القديم. ولم تقتصر تلك التجارة على الجزء الشمالي من وادي النيل بل تغلغلت أيضًا في الجنوب، ونرى في نقش على الصخور جنوبي الشلال الأول مركبًا يجرها بالحبال ثلاثة وثلاثون رجلًا لكي يسحبوها بين صخور الشلال. وكان طول هذه المركب نحو عشرة أقدام أي أنها لم تكن زورقًا صغيرًا. ووجودها في هذا المكان قرينة على اتساع نفوذ ملوك مصر في ذلك العصر المبكر وامتداده نحو الجنوب.

وأمدتنا جبانات ذلك العصر بعدد كبير من الأدوات النحاسية أكثر مما كانت تمدنا به جبانات من سبقوهم، وكان في استطاعة بعض أولئك الناس أن يقتني خنجرًا من النحاس بينما كان غيرهم يستعمل سكاكين الحجر. وكانت الفؤوس النحاسية والأزاميل من السلع التجارية التي اتجر فيها أصحابها من الصناع القليلي العدد.

وجاء اليوم الذي انتهى فيه عصر "الاتحاد الأول" وانفصلت المملكتان وظلتا منفصلتين مستقلتين زمنًا طويلًا حتى ظهر في الصعيد حاكم قوي جعل نفسه أولًا حاكمًا على مملكة الوجه القبلي ثم غزا بعد ذلك مملكة الوجه البحري وأخضعها لسلطانه. وكان ذلك عام ٣٢٠٠

قبل الميلاد[١]. ذلك هو الملك "منا" الذي حقق اتحادًا جديدًا لمملكتي الشمال والجنوب والذي ورث حضارة عصر "الاتحاد الأول".

وكما امتاز عصر "الاتحاد الأول" بأنه قام بسبب التطور الذي حدث نتيجة لاستعمال المحراث في الزراعة وما ترتب على ذلك من توفير الحبوب، فإن الاتحاد الثاني امتاز بأنه قام بسبب التوسع في استغلال المناجم والحصول على كميات وفيرة من النحاس، ولهذا يبدأ "عصر المعادن" بابتداء "الاتحاد الثاني". وكان الملوك الأوائل من ذلك العصر يفخرون بالبعثات التي أرسلوها إلى شبه جزيرة سيناء. وما زالت الأنفاق قطعوها في باطن الصخر موجودة إلى اليوم، وهي أقدم مناجم للنحاس في العالم، وعلى مقربة منها نقش خلفاء "منا" من الملوك نقوشًا ورسومًا تسجل ذهابهم إلى هناك، وهذه المناظر هي أقدم ما وصل إلى أيدينا من آثار تاريخية موضحة بالكتابة.



شكل ٢٧: نقش في منطقة التعدين في سينا لملك من ملوك عصر "الاتحاد الثاني"

---

(١) ذكر المؤلف في كتابه تاريخ ظهور "منا" عام ٣٤٠٠ ق.م. ولكن الأبحاث الحديثة اتفقت على أن ٣٢٠٠ ق.م. أقرب إلى الصواب. بل ويرى البعض أنه ٣١٠٠ أو ٣٠٠٠، ويغالي آخرون فيجعلونه أقل من ذلك، ولكن التاريخ الذي اتفق عليه أكثر العلماء هو ٣٢٠٠ ق.م. (المعرب).

نرى الملك في هذا الرسم ممثلًا ثلاث مرات اثنتان منها وهو يلبس تارة تاج الوجه القبلي ذا اللون الأبيض وتارة (في الوسط) وهو يلبس تاج الوجه البحري وكان أحمر اللون، وفي هذا إشارة إلى أنه كان يحكم كلا من المملكتين وتلك هي عادة المصريين المبكرين في قص حوادثهم بالصور بدلًا من الكتابة وفي الرسم الذي على اليسار جزء من هذه القصة. فالملك يضع خنجرًا من النحاس في حزامه ويرفع في احدى يديه دبوسًا من الحجر ليهوى به على أسير راكع وقد قبض بيده الأخرى على شعر رأسه. وإذا نظرنا جيدًا إلى هذا الأسير لا نجد صعوبة في التأكد من أنه أسيوي وذلك من شعره المسترسل ولحيته الطويلة التي تميز هؤلاء الآسيويين في ذلك العصر. وخلاصة هذه القصة المصورة إن الملك بوساطة جنوده قضى على سكان سينا من الأسيويين الذين كانوا يهددون تلك الحملات وأنه بذلك أيد حقوقه على تلك المنطقة، وفي وضع ذلك الرسم الكبير في ذلك المكان تحذير لكل من تحدثه نفسه من الآسيويين أن يسبب مضايقة لأي حملة أخرى تأتي في المستقبل. ويرى اسم الملك مكتوبًا في المستطيلين اللذين على اليمين واليسار. وقد تركت الحملات التالية التي أتت إلى سينا بعد بضع قرون نقوشًا أخرى ولكنها كانت مسطرة بالكتابة وكانت فيها تفاصيل كثيرة إلى حد أن بعضهم لم ينس تسجيل شكواه من شدة الحرارة في تلك الصحراء.

بناة الأهرام

عرف المصريون الأدوات النحاسية فاستعملوها، وكان لذلك الأثر الأكبر في نحت وبناء مقابرهم وإنشاء المعابد المبنية بالحجر. وخير دليل

على ذلك تلك الأهرام العظيمة القائمة في الجبانة الملكية في الجيزة التي تثبت لنا مدى ما وصل إليه القدماء وما استطاعوا تحقيقه بالأزاميل النحاسية والآلة النحاسية البسيطة التي كانوا يستعملونها في تفريغ قطع الأحجار لتصبح أواني جميلة الشكل. ونحن إذ نقف مبهوتين أمام تلك المباني الضخمة لا نكاد نصدق أن أجداد من بنوا هذه الأهرام لم يكن قد مضى عليهم غير بضع أجيال قليلة. كانوا إذ ذاك في مستهل حضارتهم وكانوا يدفنون في حفر صغيرة على هيئة القرفصاء. ونرى الآن أبناءهم وقد خطوا خطوات جبارة مكنتهم من الوصول إلى هذه الحالة. ولقد تمكن المصري القديم في وقت قصير من السيرة التامة على البناء بالحجر، ولكننا رأينا قبل الآن أن هذه الخطوة سبقتها خطوات بطيئة وطويلة المدى حتى تطور المصري وتغيرت حالته، فأصبح يستعمل الأدوات النحاسية بدلًا من مثيلاتها من الحجر، إذا كان اكتشاف النحاس في سينا قد تم قبل ما يقرب من ألفين من السنين سبقت بناء الهرم الأكبر. أي أن المصري القديم قضى نحو ألفي سنة وهو يعرف النحاس ولكن لم يكن لذلك أثر على فن البناء. وكانت مقابر الملوك الأوائل تبنى من الطوب. وكانت لا تزيد عن حجرة تحت الأرض يغطيها سقف من الخشب في مستوى الأرض ويوضع فوقها كوم كبير من الرمل والحصى، وأقدم ما عرفناه من البناء بالحجر هو حجرة دفن أحد الملوك، كانت جدرانها مبنية بالطوب وكسيت– جدرانها– من الداخل بقطع من الحجر الجيري، ولكن لم يمض على ذلك العهد مائة وخمسون سنة أو أقل حتى وجدنا هؤلاء الملوك يبنون مدافنهم الملكية على شكل أهرام من الحجر.

كانت أقدم المدافن الملكية تبنى تحت مستوى سطح الأرض، وجاءت الخطوة التالية فبنوها فوق الأرض ولكنها كانت من الطوب اللبن. وفي القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد أقام المهندس المعماري "إمحتب" للملك زوسر أول بناء من الحجر، فبنى له قبرًا كان وما زال أقدم بناء من الحجر في تاريخ العالم، وحول هذا القبر الضخم بنى إمحوتب مجموعة رائعة من المباني الجميلة المبنية بالحجر الجيري. أنها بناءان[1] حليت واجهتهما بأعمدة رشيقة مضلعة، يخيل لمن يراها أنها لا تختلف عن الأعمدة الرشيقة اليونانية التي بناها اليونانيون بعد عصر إمحوتب بألفين وخمسمائة سنة.



شكل ٢٨ أقدم بناء حجري في العالم ما زال قائمًا حتى الآن

(1) ذكر المؤلف أن هذين البناءين مقبرتان لبعض أفراد عائلته. وكانت هذا هو الرأي السائد منذ بضع سنوات، ولكن قد تغير ذلك الرأي الآن بعد فحص البناءين. وعرف أنهما أتيما للاحتفال بأعياد الملك، أحدهما يسمى الآن "بيت الوجه البحري" والثاني "بيت الوجه القبلي" وأحيانًا يسميان في كتب الآثار "بيت الشمال" و"بيت الجنوب" (المعرب)

الهرم المدرج هو قبر الملك زوسر. وقد بنى على هيئة مصاطب يعلو بعضها البعض وارتفاعه نحو ٢٠٠ قدم. بناه المهندس المعماري امحوتب حوالي عام ٢٨١٥ ق. م[١].

كانت فكرة إمحوتب في تشييد الهرم المدرج خطوة هامة نحو تشييد المقابر الملكية على شكل هرمي. ولم يمض إلا أقل من قرن واحد حتى رأينا المعماريين المصريين يقيمون الهرم الأكبر في الجيزة. كان هذا القرن فترة تقدم كبير في فن البناء. وهو راجع إلى تحسين الانسان للقوى الميكانيكية التي كانت ميسورة له. ونحن لا نجد في تاريخ العالم فترة تقدم سريع مطرد شبيهة بهذه الفترة لذلك القرن إلا في القرن التاسع عشر الميلادي.

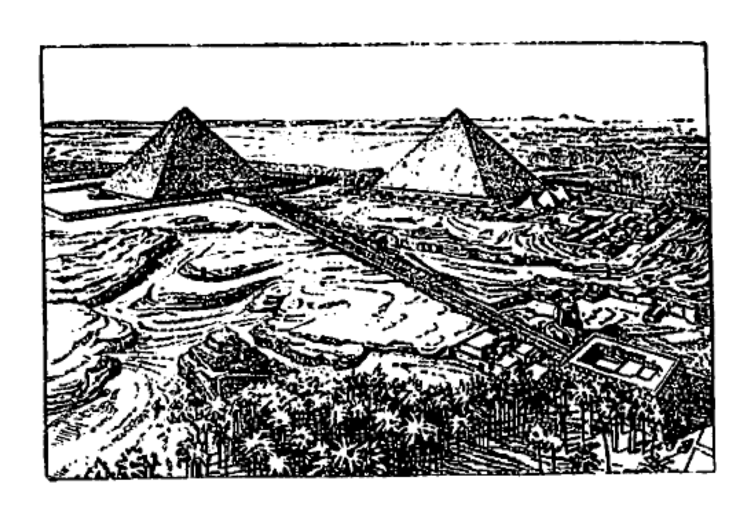
ويزداد تقديرنا لهذا التقدم عندما ندرك أن مساحة قاعدة الهرم الأكبر تبلغ ثلاثة عشر فدانًا، وأن البناء كله مبني بكتل من الحجر الجيري يبلغ عددها ٢.٣٠٠.٠٠٠ حجرًا على وجه التقريب، متوسط وزن كل حجر منها طنان ونصف طن، وطول ضلع الهرم عند القاعدة ٧٥٦ قدمًا[٢] (٢٣٠.٥٧ مترًا) وارتفاعه عندما كان كاملًا ٥٠٠ قدم تقريبًا (أكثر من ١٥٠ مترًا) وحسب رواية هيرودوت– وهي جديرة بالتصديق–

---

(١) التاريخ المذكور في المؤلف هو ٢٩٤٠ق.م. كما ذكر المؤلف أيضًا في التعليق على هذا الشكل أنه من المحتمل أن الأماكن بين المصاطب ملئت وكان يغطيها كلها جدار مائل وبذلك كان الهرم المدرج هو أقدم المحاولات للحصول على الشكل الهرمي الصحيح. ولكنه من المؤكد الآن بعد الأبحاث الحديثة استحالة هذا الاحتمال. ولم يكن الهرم المدرج عند بنائه إلا على هيئة مصاطب يعلق بعضها بعضًا. أما الهرم الأول الحقيق فلم يبنه المصريون إلا بعد قرن من الزمان. وكان أول الأهرام الحقيقية هو هرم الملك سنفرو في دهشور (المعرب).

(٢) إذا قارنا هذا الهرم بمبنى الكلوسيوم (Colosseum) في روما فإننا نرى أن طول الكلوسيوم هو ٦٠٠ قدم تقريبًا مع الفارق الكبير وهو أن الكلوسيوم لم يكن إلا سورًا كبيرًا حول فضاء، أما الهرم الأكبر مبنيًا كله بالحجر.

فإن مائة ألف عامل ظلوا يعملون في بناء هذا الهرم عشرين عامًا. ومثل هذا العمل الكبير يحتاج إلى حاكم قدير وعدد كبير من الموظفين الأكفاء الذين كانوا حوله، فليس من السهل إطعام مائة ألف شخص وتنظيم عمل كل منهم عندما كانوا جميعًا يعملون حول هذا البناء. ولا شك أن الحاكم الذي يأخذ على عاتقه مثل هذا المشروع الضخم كان أقوى رجل رآه العالم. كان القصر الذي يعيش فيه يسمى "البيت الكبير". وكان الناس عندما يتحدثون عن ملكهم يشيرون إليه باسم "البيت الكبير" وهو الاسم نفسه الذي وصلنا عن طريق اللغة العبرية "فرعون" الذي أصبح لقبًا عامًا لكل الملوك.



شكل ٢٩: رسم يمثل الهرم الأكبر في الجيزة وبعض ما حوله من آثار كما كانت بعد تشييدها مباشرة

شيد بعض عظماء ملوك عصر الأهرام تلك المقابر، ونرى إلى يمين الصورة هرم الملك خوفو، وهو المعروف باسم الهرم الأكبر وإلى اليسار هرم الملك خفرع الذي يصغر قليلًا في الحجم عن الهرم الأول. وفي الجهة

الشرقية من هذا الهرم يقوم معبد تقدم المأكل والمشروبات والملابس ليستخدمها الملك المتوفي في حياته الأخرى. وبنى القدماء تلك المعابد فوق الهضبة على حافة الصحراء إلى جانب الأهرام. أما المدينة التي كان يعيش فيها الملك فإنها كانت في الوادي في وسط الأراضي المنزرعة. وكان هناك معبد على حافة الزراعة هو معبد الوادي يدخله الزائرون ويصعدون إلى المعبد العلوي شرقي الهرم سائرين في ممر طويل مسقوف مبني بالحجر. ونرى في الصورة الممر الموصل بين المعبد الجنازي للملك خفرع ومعبد الوادي لهذا الملك الذي كان على مقربة من المدينة، ونرى في الصورة أيضًا تمثال "أبو الهول" في الناحية الشمالية من هذا المعبد. وحول أهرام الملوك نرى عددًا من أهرام الملكات ومقابر كبار الرجال في كل عهد. وإلى اليسار في الصورة نرى مقبرة ملكية كان العمل جاريًا فيها وحولها الجسور الصاعدة المبنية بالطوب والتي كانت تزال بعد إتمام البناء[١] "عن هولشر"

وقامت حول أهرام الملوك مقابر كثيرة مبنية بالحجر بعضها لأفراد عائلته والبعض الآخر لذوي النفوذ من رجال بلاطه الذين كانوا يريدون دفة أعمال الحكومة تحت إشراف الملك، فقد كانوا حوله في قصره في حياته وأرادوا أيضًا أن يكونوا حول هرم سيدهم بعد مماته، وبذلك أصبحت جبانة الجيزة وما زالت حتى اليوم، صورة من الإدارة الحكومية في مصر في عهد الاتحاد الثاني. وكان يعاون الملك نوعان من الموظفين أحدهما

---

(١) ورد في الأصل– اعتمادًا على رأي هولشر في أوائل القرن الحالي– أن البناء الذي على اليسار هرم لم يتم بناؤه، ولكن اتضح بعد كشف هذا البناء في عام ١٩٣٢ أنه مقبرة ملكية للملكة "خنتكارس" وأنها كانت على شكل تابوت كبير فوق صخرة، ولم يكن الجزء العلوي منها هرمي الشكل.

الموظفون المحليون المنتشرون في جميع أرجاء مصر، والنوع الثاني الموظفون المركزيون الذين كانوا يعيشون في العاصمة حول الملك. وكان موظفو الأقاليم مكلفين بجمع الضرائب ويدخل في اختصاصهم الفصل في القضايا. وكان أمام كل قاض منهم قانون مكتوب يحكم بمقتضاه[1].

أما المبنى المركزي في العاصمة على مقربة من الملك فكان عبارة عن مكاتب متعددة مبنية من الطوب اللبن قليلة الارتفاع يعمل فيها مئات من الكتبة، يجلس كل منهم وقلمه في يده وأمامه قراطيس البردي يكتب فيها حسابات الملك وكل ما يتطلبه العمل من تدوين. وكان لدى هؤلاء الكتاب سجلات بأسماء دافعي الضرائب والمبالغ المستحقة عليهم، وهذا هو ما نفعله اليوم. ولكن يجب ألا يغيب عن ذهننا أن أوروبا لم تعرف مثل هذه الإجراءات إلا في أيام الإمبراطورية الرومانية فقط.

أما الضرائب المستحقة فكان الناس يدفعونها عينًا سواء من الحيوانات أو الحبوب أو النبيذ أو العسل أو القماش أو ما شابه ذلك، وكانت هذه الضرائب توضع في حظائر وشونات غلال ومخازن، وهي في مجموعها الخزانة الملكية على مقربة من بعضها في مجموعات كبيرة من المباني والأحواش.

(1) لم يعثر العلماء حتى الآن على نسخة من القانون المصري القديم، ولكن هناك إشارات كثيرة إليه في كتابات المصريين والمناظر التي على الآثار.

وأعطت تلك المباني الحكومية لعاصمة البلاد مظهرًا خاصًا، وزادت في عمرانها واتساع رقعتها، فأصبحت أكبر مدينة عرفها الانسان حتى ذلك الوقت، وكان أهم أحياء تلك العاصمة هو الجزء الذي قام فيه القصر الملكي تحوط به الحدائق يليها بيوت كبار الموظفين ومكاتب الحكومة، وخاصة الخزانة، تلك هي المدينة الملكية التي امتدت من الجيزة وما يليها إلى الجنوب، وخاصة الخزانة، تلك هي المدينة الملكية التي امتدت من الجيزة وما يليها إلى الجنوب وأصبحت تعرف فيما بعد باسم "منف" ولم يبق من تلك المدينة الملكية القديمة أي أثر لأنها كانت مبنية بالطوب اللبن والخشب.

أما مدينة الأموات وهي الأهرام وما تجمع حولها من مقابر، فلم تلق المصير نفسه لأنها كانت تبنى بالحجر وهي مادة أكثر بقاء على الزمن من الطوب، ولهذا أصبح من السهل علينا أن نتتبع تاريخ العائلة الملكية وأقاربها في جبانة خلال مائة سنة وعشرة وهي الفترة التي كان يدفن فيها أكثر ملوك الأسرة الرابعة وموظفوها كما تمدنا الجبانات الأخرى بمعلومات تجعلنا نتتبع تاريخ هذه العائلة إلى مدى أبعد من ذلك.

إن المنظر الذي نراه من قمة الهرم الأكبر من أجمل ما تقع عليه العين وبخاصة إذا ألقينا ببصرنا نحو الجنوب ورأينا تلك السلسلة من الأهرام يتلو بعضها بعضًا حتى يغيبها الأفق عن ناظرينا. إن كل واحد من هذه الأهرام كان مدفنًا لملك عاش وحكم ثم مات. حكم هؤلاء الملوك نحو خمسمائة عام. وكان كل من يموت منهم يدفن في أغلب الأحيان في هرم، وكان يختار

كل منهم لهرمه مكانًا على هذه الهضبة حتى امتدت فأصبحت أكثر من ستين ميلًا تقص علينا هي وما حولها من جبانات قصة مصر خلال خمسة قرون من الزمان– هذه الفترة تبدأ من القرن التاسع والعشرين حتى القرن الربع والعشرين قبل الميلاد، وهي ما يطلق عليها الكثير من العلماء اسم عصر بناة الأهرام.

عقائد المصريين وآراؤهم الدينية

بذل المصريون كثيرًا من مالهم ووقتهم ومهارتهم وجهودهم في بناء مقابرهم وتأثيثها، وذلك لعقائد خاصة بالحياة بعد الموت، إذ اعتادوا على دفن موتاهم قبل أن يكون لهم ملوك أو مملكة بآلاف السنين، ومع هؤلاء الموتى وضعوا الأدوات التي كانوا يستعملونها أثناء الحياة حتى في الوقت الذي كان يعيش فيه سكان وادي النيل كصيادين بدائيين. دفنوا موتاهم ومعهم أسلحتهم وأوان فيها المأكل والمشارب، فلما تقدم الزمن وصار لهم ملوك وحضارة زاد ما كانوا يدفنونه مع موتاهم، وبنوا المقابر الضخمة ووضعوا فيها الأثاث الجنازي الكثير. وبالرغم من أن المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سيحيون حياة أخرى في مكان بعيد عن القبر وبعيد عن الجسد الموسد فيه فإنهم لم يستطيعوا يومًا من الأيام أن يفصلوا فصلًا تامًا بين الجسد الذي في القبر وبين تلك الحياة الأخرى، ولم يتصوروا الخلود للموتى دون أن يكون للجسد نصيب فيه، ولهذا كانوا يحرصون على سلامته وكانوا يتفننون في المحافظة عليه حتى وصل بهم الأمر إلى إقامة تلك المقابر العظيمة المبنية بالحجر.

ولم يقف بهم الأمر عند بذل الجهد لإيواء وحماية الجسد بعد الموت بل بدأوا أيضًا في تحنيط تلك الأجساد وحفظها كموميات. وكانوا يهدفون من وراء ذلك أن يظل ذلك الجسد المحنط محتفظًا بشكله في حجرة صغيرة عميقة داخل القبر تحت بناء عظم من الحجر. وهذه العقيدة هي السبب الذي جعل كل حاكم من الحكام ينفق الموارد الطائلة على بناء قبر ليكون مقرًا لجسده ليأمن سلامته بعد الموت، وحذا أقارب الملك والموظفون حذو سيدهم في الاستعداد للحياة بعد الموت. وكثيرًا ما كانوا يرتبون الأوقاف للصرف منها على صيانة مقابرهم.

ولكي نفهم تلك العقيدة الخاصة بالحياة بعد الموت يجدر بنا أن نعود بذاكرتنا إلى الوقت الذي كان يعيش فيه الصيادون في العصر الحجري ونذكر كيف غيروا طريقة حياتهم وأصبحوا يزرعون الأرض ويحصلون منها على القوت. فلا شك أن الزرع الأخضر الذي نبت من الأرض السوداء قد لفت نظرهم إلى التفكير في أصل الحياة. وكان لهذا التغيير في حياتهم من صيادين إلى زراعيين في الأرض أثره في عقيدتهم الدينية. ولم يكن هذا قاصرًا على المصريين فحسب بل كان عامًا في شعوب بلاد الشرق الأدنى الذين اعتمدوا على الزراعة في حياتهم، وبدأوا منذ وقت مبكر يعتمدون في حياتهم على ثمرات الأرض. وكان كفاحهم لأجل البقاء يدور حول تلك الزراعة وما تمدهم به من حاصلات. وبث فيهم هذا الإحساس روح الاحترام والاعتراف بالجميل وأدخل على ديانتهم لونًا جديدًا. وهذه الروح الجديدة هي الأساس الذي تقوم عليه عقائد هنود أمريكا الشمالية، بل أنها في الواقع ما زالت ذات أثر كبير في ديانتنا حتى اليوم. وقد ورثناها كإحدى

النتائج الهامة لما طرأ على أفكار الناس من تغير عندما تركوا حياة الصيد إلى الحياة الزراعية.

رأى الزارع أن تلك الحبة التي بذرها نبتت وأخضرت وأتت ثمارها ثم زرع من تلك الثمار حبة أخرى فتكررت معجزة الحياة، وفكر في تلك الحياة المتجددة التي لا يمكن أن تموت موتًا نهائيًا، وكان من الطبيعي أن يدخل في روعة الاعتقاد بأن هذا الشيء الحي الذي لا يموت يجب أن يكون إلهًا. وسمي المصريون هذا الإله باسم "أوزيريس" واعتقدوا أنه روح هذه الحياة الخضراء النابتة من الأرض وكانوا يرون هذه النباتات المخضرة تذوي كل عام وتتراءى لناظرها كأنها ماتتت وفارقت الحياة ولكنها كانت تعود مرة أخرى إلى حياتها ونضرتها. وانتشرت مثل هذه العقيدة على طول الجانب الشرقي من البحر الأبيض المتوسط وامتدت إلى الخليج الفارسي، وكان هذا الإله يسمى في غرب آسيا أحيانًا باسم "تموز" وأحيانًا باسم "أدونيس" كما كانت له أسماء أخرى تختلف من بلد إلى آخر. لذلك نرى في قصة "أوزيريس" أحب الآلهة إلى قلوب المصريين القدماء أنه عاش ثم مات ثم بعث بعد الموت. وهذا هو ما حدث لجميع الآلهة المحلية في غرب آسيا وبخاصة في سوريا وفلسطين وآشور وبابل.

ولم ينس المصريون هذه الصلة القديمة التي تجمع بينهم وبين آسيا في العقيدة فنقرأ في أسطورة "أوزيريس" أنه مات ثم سبح جسده حتى استقر أخيرًا في جبيل[1] على الشاطئ الفينيقي حيث عادت إليه الحياة فأصبح شجرة خضراء وعاش مرة أخرى.

---

(1) هي مدينة ببلوس Byblos القديمة وتقع على الشاطئ شمال مدينة بيروت الحالية.

وكانوا يرمزون في غرب آسيا للحياة المتجددة بشجرة. وكانوا يقيمون في كل عام احتفالًا كبيرًا ينصبون فيه شجرة ويزرعونها ثم يزينونها ويكسونها بالأوراق الخضراء، وورث الغربيون هذه العادة، وما زالوا يحتفلون بها عندما يقيمون "عامود شهر مايو "Maypole" الذي ينصبونه ويزينونه ويقيمون المآدب ويرقصون حول احتفاء بعودة الربيع.

وكان الناس يقصدون من هذا العيد أن يعبروا عن شعورهم نحو اعتمادهم على تجديد الأرض للحياة، ذلك التجديد الذي أمدهم بالقوت الذي يحصلون عليه من حقول الحبوب، وبعبارة أخرى كان مظهرًا دينيًا لاعتراف الناس بفضل الزراعة عليهم.

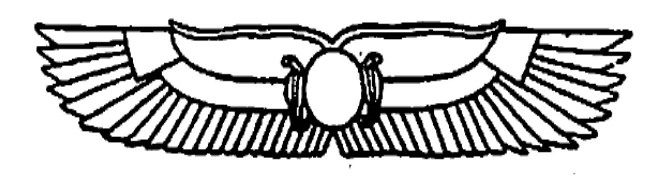
ولم يكن لهذا الاعتقاد في غرب آسيا تأثير يقود الناس إلى الايمان بحياة ينعمون بها بعد الموت في العالم الآخر. أما في مصر فإنهم فضلوا أن يؤمنوا بأن أوزيريس لم يكن القوة التي تمدهم بالحياة وتعطيهم القوت في هذه الدنيا فحسب، بل أنه كان يعني بهم أيضًا في الحياة الأخرى فيعيشون سعداء عندما يأتي اليوم الذي يموتون فيه وتستقر أجسادهم في القبور التي يدفنون فيها على حافة الصحراء.

آمن الناس إيمانًا قويًا بأن عقيدتهم في أوزيريس تيسر لهم حياة مباركة في العالم الآخر، وكانوا يرون في هذا الإله رمزًا للموت ثم الحياة مرة أخرى، وكانوا يرمزون له بشجرة في بعض الأحيان وفي الوقت ذاته كان يرى فيه بعض المصريين أنه هو الأرض السوداء التي تخرج منها الحياة المخضرة

ويرسمون سنابل الحب وهي تنبت من جسده. ورأى البعض أن الأرض لا يمكن أن تؤتي ثمارها إلا إذا روتها مياه النيل فاعتقدوا أن أوزيريس هو النيل، وهكذا اعتقد المصريون أن نهرهم العظيم وأرضهم الخصبة التي ترويها مياهه والحياة المخضرة التي تزدهر بسببه ليست إلا شيئًا واحدًا هي إله واحد هو أوزيريس الذي كانوا يرون فيه رمزًا لحياة الأرض التي لا تفنى.

وأعتقد المصريون في آلهة كثيرة ولكنهم آثروا عبادة اثنين كان لهم السبق على جميع الآلهة الأخرى، أحدهما أوزيريس الذي لم يقهره الموت، والآخر هو الشمس التي تبهر البصر بضيائها في سماء مصر الصافية، هذا هو الإله "رع" الذي كان أعظم الآلهة المصرية كإله للأحياء والذي أقام المصريون لعبادته أفخم معابدهم ولم يكن الهرم إلا رمزًا مقدسًا له.

ورمز المصريون للكثير من آلهتهم ببعض الحيوانات. وقد سبب ذلك وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن في أصل ديانتهم وإنما دخل عليها في أيام اضمحلالهم وفي الوقت الذي بدأت فيه ديانتهم في الاحتضار في العصر الروماني. كما كان كل من قرص الشمس المجنح والهرم رمزًا لإله الشمس.



شكل ٣٠: قرص الشمس المجنح. رمز إله الشمس

نرى قرص الشمس في الوسط وعلى كل جانب منه رأس أفعى من نوع "الكوبرا" أما الجناحان فإنهما جناحا صقر، وكانوا يعتقدون أن إله الشمس في هذه الهيئة ليس إلا صقرًا يطير في السماء.

الاقتصاد * المجتمع * الفن

اهتم المصريون في عصر الأهرام بتسجيل مناظر مختلفة على جدران المقابر التي حول الأهرام، وبهذا كانوا أقدم شعب في العالم ترك لنا مناظر مصورة تكشف لنا عما كانت عليه حياتهم. ولذلك فإنه يخيل لزائرها كأنما انتقل به الزمن وأنه يجوس خلال بيوت أولئك القدماء ويمشي في بلاد وادي النيل في الوقت الذي كان فيه يبني سكانه تلك الأهرام العظيمة.

وحرص المصريون في ذلك العهد على أن يبنوا لكل مقبرة هيكلًا يقيمونه فوق سطح الأرض بينما يدفنون الميت تحتها، وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن روح صاحب القبر تخرج من حجرة الدفن لتزور الهيكل، ولهذا كان أقارب الميت يتركون المآكل والمشروبات في الهيكل ويضعونها على مائدة من الحجر لتجدها الروح وكانوا يحرصون أيضًا على أن ترى الروح حولها ما اعتادت على رؤيته أثناء الحياة، ولذلك اهتموا بنفس مناظر الحياة اليومية على جدران الهيكل من السقف إلى الأرض وتفننوا في إتقان رسمها وتلوينها، وهي توضح لنا نوع الحياة التي عاشوها.

وإذا فحصنا هذه الصور التي على جدران الهياكل فإننا نتعلم منها الشيء الكثير. فهذا هو الوجيه نفسه مرسوم بحجم كبير يقف ناظرًا إلى حقوله ويراقب ما يجرى فيها من عمل. ونحن إذ تمتع ناظرينا برؤية المنظر يجب ألا يغيب عن ذهننا أن هذه هي أقدم مناظر في تاريخ العالم تبين لنا

العمل في زراعة وحرث الحقول. وإلى جانب هذه المناظر نرى قطعان الماشية مرسومة في صفوف طويلة، فهنا أبقار يقيدونها ليحلبوا منها اللبن. وهناك ثيران تجر المحاريث وتساعد الانسان بالتخفيف عن عاتقه. وعلى هذه الجدران التي نقشت في عصر الأهرام لا نرى أثرًا لرسم الخيل لأنها كانت غير معروفة في مصر إذ ذاك ولكننا نرى الكثير من رسوم الحمير وعلى ظهورها أحمال من الحبوب، ولولاها لما تمكن الإنسان من جمع المحاصيل.



شكل ٣١: رسم بارز على الحجر في مقبرة وجيه من عصر الأهرام

يقف هذا الوجيه إلى اليمين وقد رسمه الفنان بحجم كبير. وهو يتفقد صفوفًا ثلاثة من الماشية وصفًا من الطيور جاءوا بها إليه. وفي الصفين اللذين في الوسط نرى الكتاب وهم يسجلون بأقلامهم في قراطيس البردي، ونرى واحدًا منهم وقد وضع قلمين خلف أذنه. وكانت أمثال هذه المناظر تنقش على الحجر ثم يلونها الرسامون بألوان زاهية.

وعلى الحائط الثاني نرى الوجيه مرة أخرى مرسومًا بحجم كبير يلقى نظرة على المظلات والقاعات التي يعمل فيها الصناع الذين في خدمته. فهناك يجلس نحاس من المؤكد أنه لم يسمع في حياته بسلفه الذي التقط أول قطعة من هذا المعدن قبل ألفي سنة تقدم خلالها الصانع المصري تقدمًا كبيرًا وأصبح الآن قادرًا على صناعة أدوات دقيقة من النحاس من جميع الأنواع. ولكن الآلة التي كانت تحتاج إلى مهارة أكثر من كل ما عداها كانت المنشار الطويل المستوي الذي عرف النحاس كيف يطرقه ويشكله من قضيب من النحاس طوله خمسة أو ستة أقدام. ولم يقف الأمر بصانع النحاس عند هذا الحد بل بلغ من القدرة صناعته أن ينفذ طلبات تدهشنا اليوم مثل ماسورة من النحاس طولها ١٣٠٠ قدم (نحو ربع ميل) كشفت عنها الحفائر في معبد أحد الأهرامات، وكانت موضوعة تحت أرضيته لتصريف المياه، وهذه الماسورة هي أقدم أعمال السباكة التي عرفها العالم حتى الآن.

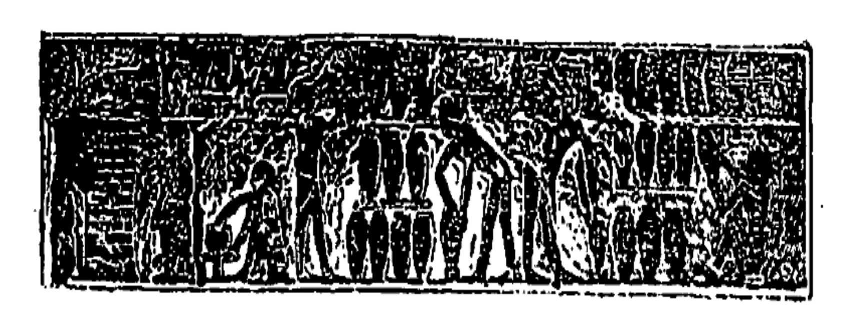
وعلى الجدار نفسه تقع أعيننا على صانع الأواني وهو يقدم للوجيه أواني فخمة من الحجر الديوريت راجيًا أن تحوز إعجابه، وبالرغم من أن هذا الحجر في درجة معدن الصلب في صلابته، فقد كان في مقدرة الصانع القديم، يرقق من جدرانه إلى أن يصبح شفاف ويخترقه الضوء فنرى من خلاله عروق الحجر الرمادية اللون. وهناك أيضًا صناع الأحجار الثمينة يقطعون ويصقلون قطعًا صغيرة منن الفيروز الأزرق الجميل لكي يرصعوا بها في دقة مدهشة سطح أناء فخم من الذهب أتم الصائغ صنعه.



شكل ٣٢: فلاح يحلب بقرة– من عصر الأهرام

وقفت البقرة ساكنة بعد أن ربط الراعي رجليها الخلفيتين بالحبال ونرى خلفها رجلًا آخر يمسك بعجلها الرضيع الذي يثب على رجليه الخلفيتين ويندفع باذلًا جهده ليصل إلى اللبن.

إلى جانب ذلك نرى مظلة الصائغ وقد اكتظت بالصناع ومساعديهم يطرقون ويصبون ويلحمون ويجمعون أجزاء من الحلى بعضها إلى بعض. فقد نبغ هؤلاء الصياغ في عملهم، وكانوا يصنعون حليًا لا يمكن أن تخرج يدا الصائغ أو الجوهري الحديث أفضل منها.



شكل ٣٣: عجلة الفخار وقرنه

يجلس الفخاري أمام عجلته الأفقية التي تشبه طبقًا مسطحًا مستديرًا ويشكل الفخاري الإناء بإحدى يديه بينما يدير هذه العجلة باليد الأخرى، وعن هذه العجلة البسيطة تطورت فكرة المخرطة في العصور الحديثة.

وبعد أن يتم الفخاري صنع الأواني يضعها داخل الفرن الذي نراه إلى اليسار ونرى الفخار وقد وضع يده أمام وجهه ليدرأ عنها الحرارة المنبعثة من الفرن. أما الرجل الذي يقف في الوسط فإنه يرتب تلك الأواني في

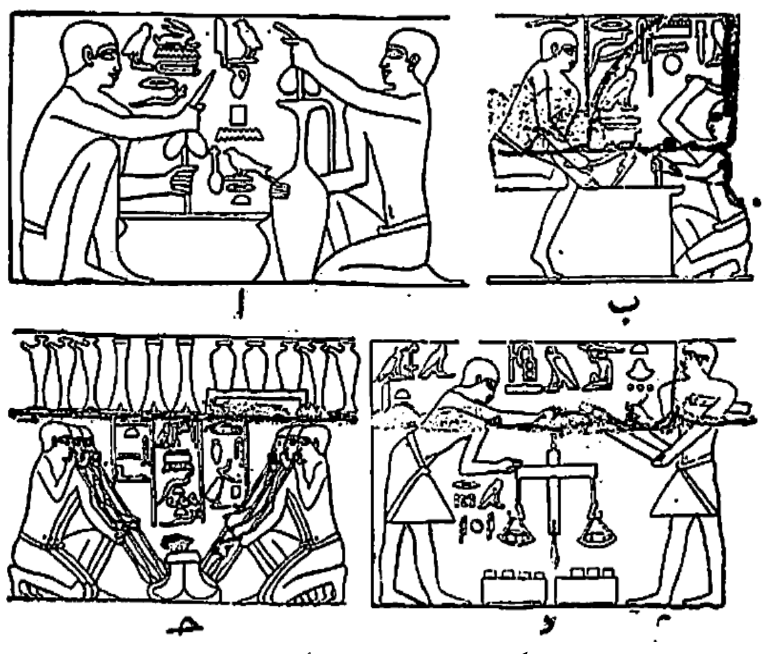
صفوف بينما يعمل الثلاثة الذين على اليمين في حك السطح الخشن لهذه الأواني وخاصة في الأماكن التي لم تتم العجلة صناعتها على الوجه الأكمل. ومن الجائز أن واحدًا من هؤلاء الرجال الثلاثة يحك الإناء الذي بين يديه بمحارة وهي عادة كانت متبعة أيام قدماء المصريين وما زالت أيضًا مستعملة بين أحفادهم حتى الآن.

وعلى مقربة منه نرى صانع الفخار الذي لم يعد يصنع أوانيه بأصابعه كما كان الحال في العصر الحجر، بل ها هو يجلس أمام عجلة أفقية الوضع يديرها ويشكل أوانيه عليها بمهارة تامة، وبعد أن تجف هذه الأواني المصنوعة من الطين لا يضعها الصناع في وسط نار فيحرقوها كما كان يفعل الفخاريون في العصر النيوليتي في قرى البحيرات السويسرية، بل نراهم يحملونها إلى حوش صفت فيه أفران مغلقة من الطين الناشف ارتفاعها مثل قامة الرجل، وكانت الأواني ترص داخل هذه الأفران ويخرجها بعد أن يتم حرقها في تلك الأفران التي لا يؤثر الريح فيها أو يسبب عيوبًا في صناعتها. وعلى هذا الجدار نرى الصناع وهم يصنعون الزجاج، ولكن ليس بالصورة التي نعرفها، وإنما بوضع طبقة زجاجية Glaze فوق مادة من المواد، فقد عرف المصريون ذلك قبل بضعة قرون، وكانوا يصنعون قوالب صغيرة يغطون سطحها بطبقة زجاجية ذات ألوان زاهية ليجملوا بها جدران المنازل والقصور، وفي العصور التالية عرف الصانع المصري كيف يصنع الزجاج الحقيقي وصنع منه زجاجات وأواني ذات ألوان عديدة كثيرًا ما بعثوا بها كسلع تجارية إلى الشعوب الأخرى.

وترينا المناظر التي على هذه الجدران نساء ينسجن الملابس الكتانية. ولسنا نتوقع أن تعطينا الصورة فكرة عن دقة صناعته ولكن وصلت إلينا لحسن الحظ بعض قطع من الثياب الكتانية المصنوعة للملوك كانت قد لفت بها مومياء أحد ملوك ذلك العصر، وعرفنا منها إلى أي مدى تفوقت الصناعة المصرية، فأخرجت كتانًا على النول اليدوي بلغت فيه دقة النسيج ما جعل من الصعب أن يميزه عن الحرير، وإذا قارناها بخير ما يمكن أن ينتجه النول الميكانيكي الحديث فإن صناعتها الحالية خشنة بالنسبة إليها. وأخرج النساجون المصريون في تلك الأيام كثيرًا من أنواع الثياب كانوا يصنعونها على أنوالهم اليدوية، وكثيرًا ما صنعوا أنسجة موشاة لتعلق على جدران قصر الملك أو لتستعمل سقفًا يظلل حديقة السطح في بيوت الوجهاء، لأن هؤلاء النساجون كانوا أول من صنع تلك الأنسجة الموشاة بين شعوب العالم.

وهناك أيضًا مناظر لرجال حفاة الأقدام يجمعون حزمات كبيرة من أعواد البردي التي تنمو في المستنقعات على مقربة من النيل، ومع مرور الزمن حملت المراكب المصرية كثيرًا من كميات الورق المصنوع في وادي النيل مع ما كانت تحمله من بضائع وتنقله في البحر الأبيض المتوسط إلى سوريا وأوروبا. فإذا ما انتقلنا إلى الحائط المجاور نرى النجارين وبناة السفن وهم يعملون. وقد أجاد الفنان رسمهم حتى ليكاد يخيل إلينا أن نسمع صوت ضربات الشاكوش والقادوم، فهؤلاء النجارون يقومون بصنع الأثاث الفخم لبيت الوجيه، وبلغ هؤلاء الصناع حدًا كبيرًا من التقدم وكانوا يحلون الكراسي والأرائك التي يصنعونها للملوك بصفائح الذهب

ويطعمونها بالأبنوس والعاج وينجدونها بوسائد من الجلد الأملس. وعلى مقربة من مصانع الأثاث نرى صفًا من المراكب، ونرى العمال منتشرين فوقها كالنمل يجمعون أجزاء الزوارق وأجزاء أقدم السفن البحرية التي عرفها التاريخ.



شكل ٣٤: صناع مصريون أثناء العمل

(أ) صانعو الأواني يجوفون أواني حجرية بآلة تشبه المثقاب المجنح، ولهذه الآلة يد، ومثبت في أعلاها ثقلان ليحفظا التوازن، وكانت اليد من الخشب أما السلاح القاطع فكان من الظران. (ب) نجارون يستعملون قادومًا أو أزميلًا ومدقة في عمل باب. (ج) صانعو معادن ينفخون في قصبات لعمل تيار من الهواء يدفعون به إلى مزيج من الفحم والنحاس الخام ليحصلوا على معدن النحاس نقيًا. وهذا هو أبسط أنواع الكور. (د) صياغ يزنون قضبانًا من الذهب (مناظر من مقبرة مروركا في سقارة).

وزادت الملاحة النهرية التي بدأت في عصر "الاتحاد الأول" زيادة كبيرة لأن التقدم السريع في الصناعة أخرج كثيرًا من الأدوات وساعد على

تشجيع التبادل التجاري بين المدن المختلفة، وكثيرًا ما نرى تلك المراكب مرسومة على جدران المقابر، وكانت صفحة مياه النيل زاخرة بها، وكانت حمولتها إما ضرائب مرسلة للخزانة الملكية أو سلعًا في طريقها إلى أسواق المدن للتبادل عليها بسلع أخرى.

وبين مناظر المقبرة نفسها أحد الأسواق، ونرى فيه صانع الأحذية يعرض على الخباز زوجًا من الصنادل مقابل رغيف أو أرغفة من الخبز، وزوجة النجار وهي تعطي صائد السمك صندوقًا صغيرًا من الخشب ثمناً لسمكه، وزوجة الفخاري وهي تعرض أناءين مما أخذته حديثًا من الفرن على العطار مقابل أناء في داخله بعض العطور.



شكل ٣٥: مناظر في سوق مصرية (عن ليسيوس)

كان هؤلاء الناس لا يعرفون العملة النقدية. وكان تبادل السلع أساس التعامل بينهم. وهذا هو ما كان يحدث بين كل طبقات العامة. ولكن الأمر يختلف في سراي الملك ومكاتبها. فقد كانوا يتعاملون بحلقات ثقيلة من الذهب ذات وزن محدد متفق عليه، كانت تقوم مقام النقود. وكانت هناك أيضًا حلقات من النحاس لتأدية الغرض نفسه. ولا شك أن تلك الحلقات كانت الأصل في عملة النقد فيما بعد.

ولم يكن أولئك الناس الذين رأيناهم في السوق إلا من عامة الشعب في عصر الأهرام، وكان بعضهم أحرارًا لهم الحرية التامة في ممارسة تجارتهم أو صناعتهم، والبعض الآخر كانوا أرقاء يعملون في حقول أصحاب الملكيات الكبيرة. ولم يكن في هاتين الطبقتين الفقيرتين من يملك أرضًا. وكانوا يأتمرون بأمر من يملكون الأراضي وهم الملك ورجاله وموظفوه الذين عرفنا أسماء الكثيرين منهم لأنهم تركوها مكتوبة في مقابرهم. وإذا تجولنا بين مقابر الجيزة وسقارة نستطيع أن نكتب بيانًا بأسمائهم ويكون هذا البيان أشبه "بدليل" لعظماء المصريين الذين كانوا يقطنون في أفخم أحياء العاصمة في الوقت الذي كانت تبنى فيه الأهرام، أي منذ وقت يقرب من خمسة آلاف عام. فمن قراءة أسمائهم وألقابهم نعرف من كان منهم وزراء أو رؤساء للخزينة ومنهم الذين تولوا المناصب الرئيسية في القضاء ومنهم الذين كانوا مهندسين معماريين أو أمناء في القصر أو من كانوا رجال البلاط وهكذا. نعرفهم جيدًا ونعرف مقابرهم. بل وصل بنا الأمر أننا نعرف شبه الكثيرين من أولئك الوجهاء. وذلك من تماثيلهم التي كانوا يحرصون على جعلها صورة مطابقة لشكل صاحبها.

وكان أعضاء البيت المالك هم أهم طبقة بين أولئك الوجهاء. ولنتحدث قليلًا عن أم الملك خوفو. كان قبرها الأصلي في مكان بعيد عن الجيزة وتمكن اللصوص من دخول قبرها وسرقة جزء مما كان فيه. فلما علم ابنها بهذا الحادث جزع وأمر موظفيه أن يحضروا تابوتها وجميع الأثاث الجنازي الذي كان مدفونًا معها إلى الجيزة لأنه أراد أن تدفن أمه في مكان أمين. وكان العمل جاريًا في الهرم الأكبر، ولهذا اختاروا لمستقرها الجديد مكانًا إلى الشرق، وحفروا بئرًا عمقها نحو مائة قدم قطعوها في الصخر، وفي نهايتها نحت العمال حجرة نقلوا إليها الأثاث الجنازي الخاص بأم الملك. وبعد أن أتموا ذلك املأوا البئر كله إلى أسفله إلى أعلاه بأحجار مبنية وأحسنوا إخفاء معالم الجزء العلوي من هذا البئر، ونجحت هذه الطريقة في حماية ذلك المستودع من العبث فلم تمسسه يد إنسان قرابة خمسة آلاف عام.

فلما اكتشفنا بعثة هارفارد– بوسطون، وجدوا أن أخشاب ذلك الأثاث الجميل قد بلى أو انكمش إلى حد غير معالمه، ولكن صفائح الذهب التي كانت تغطي تلك الأخشاب بقيت كما هي. وبذلك أصبح في استطاعتنا أن نرى الهودج الذي كان تحمل فيه الملكة عند خروجها للنزهة، وهو يشبه عربة لا عجل لها كانت تجلس فوق الملكة مادة رجليها إذا شاءت ويحمله أتباعها فوق أكتافهم. ومع ذلك الهودج نرى الكرسي الذي كانت تستريح فوقه عندما كانت تعود إلى القصر، والسرير الذي كانت تنام فوقه، وصندوق حليها الذي كانت وصيفاتها يضعن فيه حلقات فخمة من الفضة مرصعة بفراشات صنعت من الفيروز الأزرق واللازورد والعقيق

الأحمر، وكانت الملكة تزين رجليها بهذه الحلقات (الخلاخيل) في الحفلات التي كانت تقام في القصر. وقد احتوت المقبرة على الكثير من أشياء الملكة الخاصة حتى الإبرة النحاسية التي كانت وصيفات الملكة يخيطن بها ثياب سيدتهن. وكانت كل هذه الأشياء هدايا من زوجها الملك سنفرو وابنها الملك خوفو وهي مصدرنا الأوحد لمعرفة حياة الرفاهية التي عاشها الملوك في عصر الأهرام[١]. وهي تكشف لنا عن صفحة من الفن والحياة في قصور الملوك في عصر يسبق الملك "توت عنخ أمون" بأكثر من ألف وخمسمائة سنة.

وكان رجال البلاط يحيون حياة رفاهية لا تكاد تقل عن حياة أفراد العائلة الملكية. ففي مقابر هؤلاء الرجال مناظر جميلة تمثل الواحد منهم وهو يجلس في الهودج عائدًا إلى منزله بعد أن تفقد أحوال أملاكه، وقد حمله أرقاؤه إلى الحديقة التي أمام منزله. وها هم يضعون الهودج على الأرض ويتوقفون عن الغناء[٢]، ثم تتقدم زوجته لتحيته وتأخذ مكانها إلى جواره، فهي زوجته الوحيدة ولها مقام عظيم وتتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها زوجها. وحديقة المنزل جنة الوجيه، وأحب الأماكن إلى قلبه، وفيها يستطيع أن يستجم ساعة من ساعات فراغه مع عائلته وأصدقائه يلعب السيجة أو يستمع إلى أنغام القيثار الذي تمسك به زوجته أو فرقة مكونة من ثلاث آلات موسيقية هي القيثار والمزمار والعود، أو ينظر إلى

---

(١) انظر مقالات ريزنر (G.A. Reisner) في مجلة Bulletin of the Boston Museum of Fine arts, May. 1927. Supplement to Vil. XXVI (1935) pp. 76-88; vol. XXVII (1929). Pp. 83-90: vol. XXX (1932). Pp. 55-60.

(٢) هذه الأغنية وأمثالها مسطورة على جدران المقابر في ذلك العصر.

النساء اللاتي يرقصن أمامه تلك الرقصات البطيئة الوقورة التي كانت سائدة في ذلك العصر، وفي تلك الأثناء يمرح أطفاله بين الأشجار أو يخوضون في البركة التي في الحديثة يطاردون ما فيها من سمك. وأحياناً يلعبون بالكرة أو بالعرائس أو يلعبون "النطة" أو يعاكسون القرد الأليف الذي يحتمي منهم بالكرسي ذي الأرجل المصنوعة من العاج الذي يجلس عليه أبوهم.

ولن نستطيع أن نعرف معرفة تامة جميع المؤثرات التي رفعت الناس في أوائل عصور التاريخ من الهمجية والغرائز الحيوانية إلى اللطف والمجاملة، ولكن هنا في مصر حيث نرى من المناظر المرسومة على آثارها، أول المناظر للحياة العائلية يمكننا القول بأن الفترة الطويلة التي يعتمد فيها الأطفال الذين لا حول لهم على معونة وحماية أبيهم وأمهم، كانت لها تأثير في تهذيب همجية الانسان الذي عاش في العصور المبكرة وتحويلها إلى رغبة واهتمام عاطفي لإسعاد الزوجة والأطفال. وهذه المناظر العاطفية التي تأخذ بألبابنا عندما نراها مرسومة على الأثار المصرية، توضح لنا تلك النتيجة السعيدة التي وصل إليها الإنسان بعد عصر طويل.

وفضلًا عن ذلك فإن النقوش التي في مقابر ذلك العهد السحيق توضح لنا كيف كان المجتمع يعترف بأن حق الفرد في لقيبه بأنه حسن الخلق يتوقف على أخلاقه والروح التي يتعامل بها عائلته أي أباه ولأمه وإخوته وأخوته. وكثيرًا ما نقرأ في مقابر هؤلاء الوجهاء عندما يريدون تلخيص جميع ما فيهم من صفات حميدة: "كنت شخصًا يحبه أبوه وتعزه أمه، وكان إخوته

وأخواته يحبونه" ولكن في الوقت ذاته نرى أن الأخلاق الحسنة لم تقتصر على البر بالأهل فقط بل اتسعت هذه الدائرة عصر الأهرام وأصبحت تشمل البر بالجيران وبجميع من عاش في المنطقة. وكان هؤلاء الناس الذي عاشوا منذ ٤٥٠٠ سنة أو ٥٠٠٠ سنة يكررون مرة بعد أخرى أنهم لم يقترفوا إثمًا لأنهم اعتقدوا بأن الاستقامة الخلقية كانت ضرورية في نظر الآلهة ولها أثرها فيما يتوقع أن يلاقيه الانسان من سعادة في حياته التي سيحياها بعد الموت. وها هو "حرخوف" أحد وجهاء جزيرة أسوان (جزيرة الفنتين) والذي قام برحلات استكشافية في السودان في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد يشرح لنا السبب الذي جعله يحيا حياته المثالية: "لقد أردت أن يكون الأمر خيرًا بالنسبة إلى في حضرة الآله العظيم". كان أمثال هذا الوجيه يدركون تمامًا أنه كانت عليهم واجبات رفيعة، وها هي إحدى حكم الوزير العظيم "بتاح حتب":- "طوبى للرجل الذي يجعل الحق رايته ويسير وراءها دائمًا" ولقد كان قدماء المصريين لا يفكرون في الجمال إلا إذا قرنوه بالخلق الطيب. وقد نمت هاتان الصفتان معًا في وسط التنعم والترف.

وكثيرًا ما كان يجلس أمثال هذا الوجيه في الحديثة واضعًا إحدى يديه على رأس كلبه ويشير بيده إلى رئيس البساتين مصدرًا إليه تعليماته بشأن الخس الطازج الذي يريد أن يأكل منه في المساء في بيته الفسيح المريح المبني من الطول اللبن والخشب. وكان مثل ذلك البيت بسيطًا راعي فيه من بناه أن يكون ملائمًا للجو، يجري فيه دائمًا النسيم، وله نوافذ في كل جانب، وجدران قاعات الاستقبال تكاد تكون إطارات فيها ستائر زاهية الألوان يتركونها ملفوفة ولا ينشرونها إلى عند الضرورة لحمايتها من الرياح أو

العواصف الرملية. وأعطى هذا التنظيم للمسكن مظهرًا لطيفًا ترتاح إليه النفس وجعل منه تحفة فنية ترينا كيف كان المصري القديم يحب أن يرى نفسه محاطًا بالجمال، وكيف استطاع أن يجعل أشياءه المفيدة الضرورية له جميلة جذابة.

وعندما يجلس الوجيه ومعه زوجته وأصدقاؤه إلى العشاء فإن الجمال يحيط به من كل ناحية، فكانت يد ملعقته مزخرفة برسم زهرة اللوتس، وكان النبيذ يتلألأ في كأس شرابه، وكان أزرق اللون يشبه زهرة اللوتس أيضًا، وكان أرجل كرسيه الذي يجلس عليه أو الآريكة التي يلقي نفسه عليها للاستجمام مصنوعة على شكل أيادي وأرجل الأسد أو الثور. أما القاعة التي كان يجلس فيها فكان سقفها ملونًا باللون الأزرق كالسماء تسبح فيها النجوم، ويحمل هذا السقف أعمدة على هيئة جذع النخل يزين الجزء العلوي منها ما يمثل الجريد. وكان هاذ الجزء مصنوعًا من الخشب وملونًا باللون الأخضر الداكن ليكون شبهاً بالطبيعة، وأحيانًا كانت أعمدتهم شبيهة بساق زهرة اللوتس، ترتفع من الأرض لتحمل هذا السقف الفيروزي اللون فوق أزهارها المتفتحة. وكثيرًا ما كانوا يضيفون رسم بعض الحمام أو الفرشات إلى رسم النجوم في سقف القاعة. وكذلك زينوا الأرضية بمناظر شديدة الخضرة تمثل نباتات متعددة يتخللها الماء ويسبح فيها السمك بين أعواد القصب المتمايلة ونرى هناك أيضًا رسم الثور الوحشي وهو ينظر إلى الطيور التي تزقزق وهي تطير فوق تلك النباتات محاولة أن تخيف ابن عرس إذا جاء يتلصص ليلتهم ما في أعشاشها. ولولا وجود الفنانين المتنمرين، لما أمكن رسم أمثال تلك المناظر على جدران

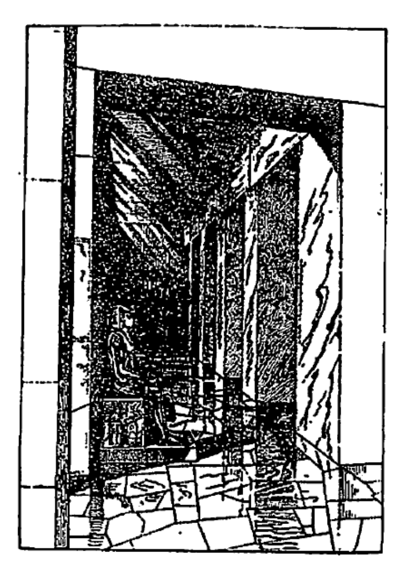
المقابر. وفي مقبرة منها نرى الرسام الذي نقش المقبرة قد رسم نفسه جالسًا إلى مائدة مع غيره من الموظفين الذين يعملون في دائرة الوجيه. لقد نجح أمثال هذا الفنان في تلوين مناظرهم، وجعلوا المظهر العام للحائط أو للحجرة مقبولًا وجميلًا. ويثبت لنا نجاحه في التكوين أنه كان ذكيًا مرحًا، ولكنه لم يأبه بقواعد الرسم المنظور ولم يعرفها في رسومه. وكان يستوي لديه في الحجم المناظر البعيدة أو التي على مسافة متباينة مع تلك التي أمامه.

وكان أهم الفنانين في ذلك العصر هم المثالون الذين كانوا ينحتون من الخشب أو الحجر تماثيلهم ويلونونها لتصبح أكثر محاكاة للأصل. وكانوا يضعون في مكان العين بللورًا صخريًا يشع دائمًا بنور الحياة. كانت هذه التماثيل صورة صادقة لأصحابها ووصل فيها الفنانون إلى مستوى رفيع من الاتقان لم يصل إليه فنانون آخرون فيما بعد، مع أنها أقدم التماثيل التي جاءت مطابقة لصورة أصحابها في تاريخ الفن.

وتماثيل الملوك كانت رائعة في أغلب الأحيان، وكانت توضع عادة في معابد الأهرام. وأضخم ما صنعته يد المثال في عصر الأهرام هو تمثال "أبو الهول" في جبانة الجيزة ورأسه على شكل الملك خفرع باني الهرم الثاني، والتمثال كله نحت في نتوء من صخر على مقربة من المدينة الملكية.

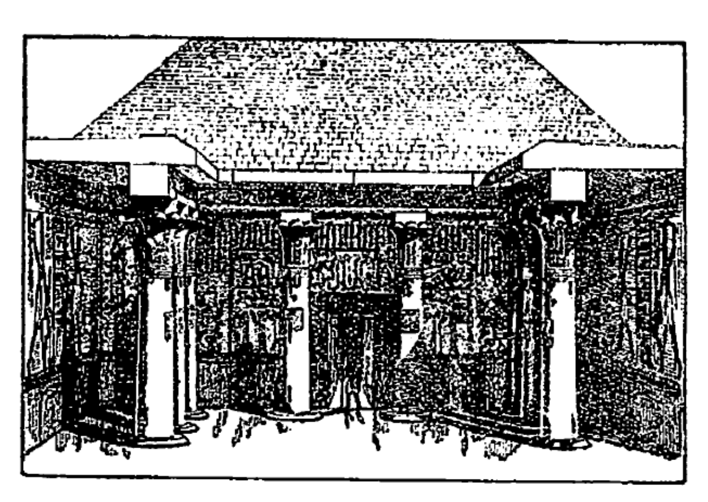
أشرنا قبل الآن إلى جمال المباني التي أقامها "إمحوتب" وقد تلا ذلك خطوة هامة في فن العمارة نراها واضحة في أعمدة وجدران معبد الوادي الخاص بالملك خفرع، وهو الذي يقع إلى جوار "أبو الهول" وكان الضوء يدخل إلى البهو الكبير في هذا المعبد من عدد من الفتحات المائلة على مقربة من

السقف. وكان سقف الجزء الأوسط من البهو أكثر ارتفاعًا من السقف الذي على الجانبين. وكان النور يدخل من فتحات في الجزء الذي بين السقفين، ونقل اليونان والرومان هذا النوع من تنظيم الأبهاء عن المصريين، وعنهم اقتبس المعماريون في العصر المسيحي واستعملوه في بناء السقف والنوافذ في الجزء الأوسط من الكنائس المقامة على طراز البازيليكا (basilica) وفي الكاتدرئيات. وهكذا كان البهو الجرانيتي في معبد خفرع الأصل الذي نقل عنه أهم أنواع العمارة المسيحية الذي انتشر في أوروبا بعد عهد خفرع بأكثر من ثلاثة آلاف سنة.



شكل ٣٦: رسم يمثل البهو الكبير في معبد خفرع كما كان عند تشييده

يحمل صفان من الأعمدة الجرانيتية المربعة سقف القاعة ويزن كل منها ٢٢ طنًا. ونرى في هذه الصورة صفًا واحدًا من هذه الأعمدة، أما الصف الأخر فهو على اليمين وليس في الصورة. ويدخل الضوء مائلًا من النوافذ قليلة الارتفاع وكانت هذه القاعة ملأى بالتماثيل، وفي وقت من الأوقات رميت هذه التماثيل في حفرة عميقة في الصالة المجاورة. ولسنا نعرف السبب الذي من أجله حطمت هذه التماثيل وألقين في تلك الحفرة حيث عثر عليها منذ مائة سنة تقريبًا (هولشر).



شكل ٣٧: أعمدة في ردهة أحد معابد الأهرام

نرى في هذا الرسم أن الردهة كانت غير مسقوفة في الوسط وكانت جوانبها فقط محمولة على سقف مقام على أعمدة من نوع الأعمدة النخيلية ذات التيجان على شكل الجريد. وكانت هذه الردهة بما في ذلك الجدران التي خلف الأعمدة ملونة بألوان زاهية طبيعية.

ويحس الزائر لمعبد خفرع بضخامة وعظم وزن الأعمدة، ولكن لم يكد يمر قرن واحد حتى أخذ المعماريون المصريون يفضلون الرشاقة على العظمة، وبدلًا من أن يقيموا تلك الأعمدة المربعة الثقيلة الوزن، فإنهم فضلوا استعمال أعمدة مستديرة رشيقة النسب خفيفة الوزن ذات تيجان جميلة، شبيهة بطراز سبق أن رأيناه في مباني "إمحوتب"، وكانوا يبنون هذه الأعمدة في صفوف. وبهذا كانوا أول شعوب العالم في بناء الأبهاء القائمة على الأعمدة.

ولم تلبث هذه الأشياء النافعة الجميلة أن شقت طريقها في مصر عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا، وعن طريق البر إلى غرب آسيا، وكان الفضل في ذلك للصلة التجارية التي حملت معها هذه الأشياء.

وسنرى فيما بعد أن غرب آسيا كان يتقدم بدوره نحو الحضارات خطوات تثير الدهشة، وبدأت حضارته تترك لنفسها أثرًا في مصر، وكان للتجارة أثرها أيضًا في الاتصال بين غرب الدلتا وكريت. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن ملوك مصر بدأوا هذه الصلات الخارجية وخاصة ما كان منها بطريق البحر قبل عصر الأهرام بقرون عديدة.

ولم يقف نشاط الملوك عند حد إرسال السفن التجارية وحملات التعدين إلى سيناء بل كانوا يرسلون أيضًا حملات إلى السودان لتتجر مع أهل الجنوب. وكانت تفرغ البضائع على ظهور الحمير وتعود محملة بعد ذلك بالأبنوس والعاج وريش النعام وأنواع البخور. وكان يذهب على رأس تلك الحملات موظفون لدى الملك رويت أخبار رحلاتهم على واجهات مقابرهم في أسوان، وفيها الكثير من مخاطراتهم بين القبائل غير المتمدينة في الجنوب التي كلفت بعضهم حياته. وهؤلاء الرحالة أقدم من استكشف داخل القارة الأفريقية[1] وحاول معرفة الطرق الموصلة إلى المجهول من أرجائها.

وكان أسطول الملك ينزل أيضًا إلى البحر الأحمر ليصل إلى بلاد "بنت" عند باب المندب حيث كان يجد أيضًا حاصلات السودان فتعود بها السفن عن طريق البحر.

---

(1) انظر مؤلف Breusted, Ancient Records of Egypt. Vol. I 825-336, 350-374.

وتدلنا عظمة حضارة المصريين في عصر الأهرام على أن الحياة العامة كانت منظمة تحت حكم أولئك الملوك، ولكن وجهاء البلاد أخذوا يقوون حتى جاء اليوم الذي لم يعد للملك السلطة التامة عليهم، وأصبحت الحكومة المركزية في حالة تفكك شديد، ولم يأت منتصف القرن الثالث والعشرين ق.م. إلا وأصبحت البلاد مفككة الأوصال، وانقسمت إلى مجموعات من الإمارات الصغيرة، وبهذا انهار ذلك البنيان الذي ظل فترة طويلة، وعادت حالة البلاد إلى ما كانت عليه قبل اتحادها.

كان ذلك العصر المبكر في مصر فترة إنتاج غير عادية لشعب في فتوته وجد لأول مرة من ينظمه فأخذ ينتج ويتقدم ما شاءت له مقدرته ونشاطه، وأصبحت مصر بعدها في مفترق الطرق فإما الوصول إلى انهيار السلطة المركزية وإفناء قوى الشعب بسبب التطاحن بيم الحكومة وامراء الأقاليم وإما بلوغ المصريين حلًا يهيئ للبلاد وحدتها مرة أخرى ويجعلها تستمر في تطورها الثقافين وسنرى في الفصل القادم كيف خرجت مصر من هذه الأزمة.



شكل ٣٨: أقدم رسم لسفينة بحرية (القرن السادس والعشرون ق.م)

أحد المناظر في معبد هرم الملك "ساحورع". وفيه نرى جميع من في السفينة يرفعون أذرعهم وينحنون لتحية الملك الذي كان واقفًا على الشاطئ ولكنه قد تهشم الآن، وارتفعت أصواتهم بالدعاء له. وفي السطر الذي فوقهم: "التحيات لك ياساحورع يا ملك الأحياء، إننا نمتع أنظارنا بجمالك" ونرى بين ركاب السفينة بعض الأسرى الفينيقيين الذين كانوا على ظهرها، وكانت هذه السفينة واحدة من ثمانية ذهبت إلى الطرف الشرقي من البحر الأبيض ثم عادت سالمة، وأنزل بحارتها الصاري الكبير المزدوج. وأصبح هذا النوع من السفن شائعًا بعد ذلك في البحر الأبيض المتوسط، وانتشر في جميع البحار بين إيطاليا والهند.

الفصل الرابع

قصة مصر عصور الفترة الأولى والدولة الوسطى والامبراطورية

اضطراب النظام الحكومي وبدء عصر الفترة الأولى[1]

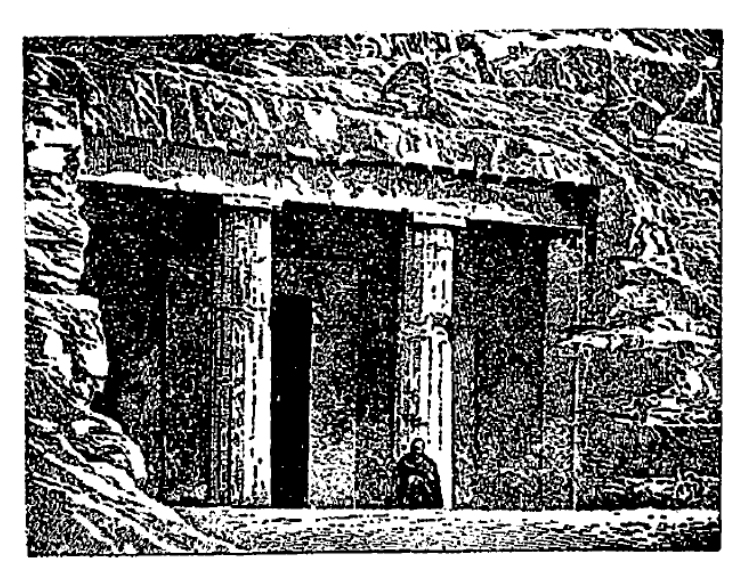
انتهى عصر الأهرام وانهار صرح نظامه بعد أن ظل نحو ألف عام، وكان لهذه الحوادث أثر كبير في الشعب، ولكنها لم تجد صدى في نفوس الناس وقت حدوثها بحيث يسطرون وقائعها أولًا بأول، غير أن بعض الذين شاهدوها لم يستطيعوا نسيانها فكتبوا عنها فيما بعد مثل ما حدث تمامًا عند سقوط روما. ففي مثل تلك الأيام السوداء ينصرف المفكرون عن الانشغال بالزخرف الخارجي ويحصرون تأملاتهم في القيم الداخلية للنفس الإنسانية بعد أن يتضح لهم عبث الاعتماد على الماديات. فقد كان ملوك مصر في عصر الأهرام يعتمدون على الماديات، وقضوا قرونًا عديدة يكافحون لينتصروا على الموت بإقامة أهرامهم العظيمة وعمل الاحتياطات الكبيرة لصيانة جثثهم، ولكن ها هم يرون الأهرام ومقابر وجهاء البلاد تحت رحمة الفوضى وكيف بدأت تتهدم. وكلما تقدمت الأيام وظل الناس في فوضى اقتنع هؤلاء المفكرون أن لا فائدة من هذه الحياة المادية الفانية.

([1]) فضلت تغيير (Fendal Age) أي العصر الاقطاعي إلى عصر الفترة الأولى (First intermediate Period) والدولة الوسطى لأن ذلك هو المتبع الأن في جميع كتب التاريخ الحديث. وعدل المؤرخون بالإجماع عن استعمال تعبير العصر الاقطاعي لأنه لا سند له في الوثائق القديمة ولم يكن في مصر يومًا من الأيام نظام يشبه العصر الاقطاعي المعروف في تاريخ أوربا (المعرب).

وبعد أن انتهى عصر الاتحاد الأول رأي الحكماء المصريون ما وصل إليه حال البلاد من الانهيار، وحرك أشجانهم ما رأوه من انتهاك حرمة قبور أسلافهم وتركها دون عناية. فأخذوا يتأملون فيما عساه أن يكون قد نفع هؤلاء الاسلاف ما اتخذوه من احتياطات وما أنفقوه على تلك المقابر وما أوقفوا عليها من أموال. ونحن نعرف أن بعض الشكوك بدأت تفسح لنفسها مكانًا في نفوس بعض الناس في عصر الأهرام فأخذوا يتساءلون عند مدى فائدة تلك الاحتياطات المادية ومدى تأمينها لخلود النفس. ولكن عندما يرى الناس هذه الآثار العظيمة وقد أصبحت خرائب، فإن الشك يتحول إلى الحاد وإنكار. ولم يمض وقت طويل حتى وجد هذا الالحاد طريقه إلى الكتابات الأدبية.

وظلت مصر ألف سنة يسودها نظام وطني يمثله الملك ويحافظ عليه. ولكن في الوقت الذي تداعى فيه هذا النظام وانهارت أركانه انكشفت مواطن الضعف للأجانب وبدأوا يغزونها ويتدفقون على الدلتا من ناحية الشرق آتين من آسيا ومن ناحية الغرب من ليبيا، فعمت الفوضى ووقف دولاب العمل الحكومي، ونقرأ فيما خلفه أحد الحكماء: "ورمى الناس ملفات القوانين والمحاكم على الأرض وداسوا عليها في الأماكن العامة، وأخذ عامة الناس يفتحونها في وسط الطريق" ووقف التعامل الاقتصادي وتغيرت الأوضاع الاجتماعية تغيرًا تامًا، وعفت الأيام على القيم الأخلاقية التي اعتبرها الناس مثلهم العليا، تلك القيم التي وصلت إليها الإنسانية بعد ألفي سنة تقريبًا وجاءت نتيجة للحياة المنظمة، وظن القوم أنها خالدة. وكان هذا الانهيار الاجتماعي أقدم النكبات التي وصلت إلينا أخبارها

مدونة بعد أن كتبها بعض من عاشوا في تلك الأيام، وأدركوا تمام الادراك ما أصاب المجتمع من انهيار، وعرفوا العواقب الوخيمة التي يمكن أن تصيب البلاد من جراء الفوضى في حكم البلاد، وكانوا يحلمون بتغيير الحالة وتحسن الأيام. وكان بعضهم يؤمن بأن عصرًا جديدًا سيبدأ عندما يتولى الأمر جيل من الموظفين العادلين ذوي الأمانة، بينما آمن البعض الآخر أن هذا العصر الجديد يمكن أن يجيء على يد ملك عادل يتفقد الناس ويعيد تنظيم المجتمع. وكان الفريق الأول يرى أن علاج الحالة يمكن أن يتم تطبيق العدل والمبادئ الاجتماعية السليمة في الحياة اليومية على أيدي طبقة الموظفين، ونرى هذا المعنى واضحًا فيما كتبه ملك مجهول عاش في ذلك العهد المظلم الذي جاء بعد سقوط عصر بناة الأهرام ضمن نصائحه لولده: "إن الرجل المستقيم الذي يقيم العدل خير من ثوره الذي يسبب الأذى" وها هو كاتب من الفريق الثاني ويدعى "نفروهو" يصف ما آلت إليه حالة البلاد من سوء ويتنبأ بمجيء ملك يخلص الناس مما هم فيه ويسمى هذا الملك "أميني" وهو اختصار لاسم امنمحات الذي لا شك أنه ....



شكل ٣٩: مقبرة منحوتة في الصخر لأحد الكبراء من عصر الدولة الوسطى

ليس هذا القبر مبنيًا بالحجر مثل مقابر عصر الأهرام وإنما هو منحوت في صخر الجبل. وفي داخل الهيكل الذي يوصل إليه الباب الظاهر في الصورة مناظر ملونة تشبه مناظر مقابر عصر الأهرام كما نجد هناك أيضًا كثيرًا من الكتابات. ويقص علينا صاحب هذا القبر كيف كان يحسن معاملة الناس. فيكتب على أحد جدران مقبرته "لم أسيء إلى فتاة من بنات الفقراء. ولم أظلم أرملة. ولم يحدث أنني طردت فلاحًا أو أخرجت راعيًا عن عمله. لم يكن هناك بائس بين رعاياي ولم يجمع أحد في عهدي. ولما حلت سنوات القحط حرثت جميع الحقول فلم يبق جائع بين الناس وأعطيت الأرملة مثل ما أعطيت المرأة ذات البعل. ولم أمير غنيًا على فقير في أي شيء منحته".

هو "امنمحات الأول، مؤسس الأسرة الثانية عشر الذي نظم حالة مصر حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م. والذي قيل عنه بعد ثلاثة أجيال من وفاته إنه "طرد الظلم بعيدً لأنه أحب العدل كثيرًا".

ورأى المتنبئون أن حلمهم قد تحقق عندما تولى امنمحات الأول عرش البلاد ولكن ما الذي حدث للفريق الأول الذي كان لا يرى أملًا في انقاذ البلاد إلا على أيدي أجيال من الموظفين الصالحين؟ في الواقع أن كلا

الأمرين مرتبطان لأن حكم الملك الصالح لا يمكن أن يكون مثمرًا إلا إذا قام على اكتاف موظفين صالحين ينفذون سياسته. وبذل امنحمات "الصالح" كل ما وسعه من جهد ليعيد المثل العليا القديمة ولكنه لم يتمكن من اخضاع امرأة الأقاليم إخضاعًا تامًا إذ ظل لهم الكثير من حقوقهم القديمة واستقلالهم، شأنهم في ذلك شأن الأمراء الاقطاعيين في العصور الوسطى بأوروبا، وهذا هو ما دعا بعض الكتاب لتسمية هذا العصر في بعض الأحيان بعصر الاقطاع في مصر.

الأدب والعلم في عصر

الفترة الأولى والدولة الوسطى

كانت هذه الفترة في تاريخ مصر من العصور الزاخرة بالآثار الأدبية التي وصل إلينا منها قطع كانت في يوم من الأيام ضمن مكتبات أمراء الأقاليم فقد عنى هؤلاء الناس بجمع الكتب، وكانت على هيئة ملفات من البردي تلف بعناية وتختم ثم توضع داخل أواني من الفخار وتصف على رفوف المكتبات. ولو تسنى لأحد أن يمسك بيده بعض هذه الأواني ويفتحها ويفحص ما فيها، فإنه لا يرى فيها فقط ما يثبت فوضى المجتمع وآلام الفقراء والضعفاء ولكنه يرى بينها أيضًا أقدم كتب القصص في تاريخ العالم، مثل قصة أسفار ومغامرات "سنوهي" فهي قصة مصري في آسيا شبيهة بمغامرات "أوديسيوس" في الأدب اليوناني، أو قصة البحار الغريق الذي غرقت سفينته عند باب ذلك المحيط المجهول الذي يبدأ بعد

نهاية البحر الأحمر. وفي هذه القصة نقرأ مغامرات بطل من أبطال البحر نرى فيها صورة سالفة لقصة "السندباد البحري" ومن بين تلك الكتب أيضًا قصص عجائب قام بها حكماء وسحرة في أعمال تشبه ما قام به النبي "موسى" ورجال فرعون بعد ذلك بأكثر من ألف وخمسمائة عام.

ولو أننا قارنا تطور الحضارة في عصر الفترة الأولى بما كان عليه الحال في عصر الأهرام لوجدنا كثيرًا من التغييرات الأساسية، فقد كان من مميزات عصر بناة الأهرام الازدهار المعجز الجبار في البناء وفي الفنون، كما امتاز أيضًا بجعل الأخلاق أساسًا يقوم عليه صرح الحياة الإنسانية، فلما جاء عصر الفترة الأولى حاول المفكرون الاجتماعيون أن يقيموا فوق الأساس القديم بنا آخر، فرأوا أن الضمير لا يصلح الأخلاق فحسب، بل أنه قادر على أن يجعل من الأخلاق قوة اجتماعية، وكان لهذا التقدم في التفكير أثر كبير على الديانة. لقد نظر الناس إلى آلهتهم في عصر الفترة الأولى على أنهم أكثر من حاكمين مسيطرين على دنيا الطبيعة ومسيرين للشمس والقمر أو الأرض والماء. وبدأ المصريون في ذلك العهد يعتقدون أن آلهتهم كانوا أيضًا كائنات عليا في دولة فيها حق وفيها باطل، وأن كل انسان كان إنسان كان مسئولًا أمامهم عن تصرفاته، وأن روح كل إنسان ستسأل في الحياة الدنيا.



شكل ٤٠ : صفحة من قصة الملاح الغريق، وهي الأصل القديم الذي اقتبست منه قصة السندباد البحري. وكان أمثال هذه القصة مما يقرأه الصبية والفتيات في مصر قبل أربعة آلاف سنة (هذا الرسم ثلث الحجم الطبيعي).

نقرأ في هذه الصفحة ما يأتي: "وهلك كل من كان على ظهر السفينة ولم ينج منهم أحد، ورمتني موجة من موجات البحر إلى جزيرة حيث ظللت ثلاثة أيام وحيدًا لا مؤنس لي إلا قلبي. أنام وسط مأوى من فروع الأشجار حتى يغمرني ضوء النهار. وزحفت بعد ذلك باحثًا عما أسد بع رمقي فوجدت هناك التين والعنب وأنواع الخضروات المختلفة..، ويستمر نص هذ القصة فيذكر كيف وقع هذا البحار في قبضة حية هائلة الحجم لها لحية طويلة اتضح له أنها كانت ملكًا على تلك الجزيرة النائية في البحر الأحمر عند مدخل المحيط الهندي. وأبقت الحية ذلك البحار ثلاثة شهور كاملة أحسنت فيها معاملته، ثم عاد البحار بعد ذلك إلى مصر محملًا بالهدايا، ويقص البحار أن الجزيرة اختفت بعد ذلك في جوف الماء.

وكانت أمثال هذه القصص تكتب على صفحة طويلة واحدة من البردي يبلغ عرضها بين اثني عشر أو ثلاثين سنتيمترًا. وطولها يتراوح بين أربعة أمتار وثلاثين مترًا. وكانت تلف هذه الأوراق بعد الانتهاء من قراءتها وهكذا كانت أقدم الكتب في العالم على هيئة ملفات اسطوانية مثل الشهادات الجامعية إذا كانت صغيرة الحجم أو مثل ملفات الأوراق التي تستعمل لتغطية الجدران إذا كانت كبيرة.

وهنا نرى للمرة الأولى في حياة الإنسان أنه بدأ يترك الصراع مع القوى الطبيعية والمادية، وأخذ يرتفع بنفسه ويتقدم نحو مثل خلقية عالية، وكان هذا التقدم أهم وأعظم ما وصل إليه الإنسان في حياته، وكان الأساس الذي مهد لأشياء أساسية في حضارته مثل معرفته استعمال النار أو استخدام المعادن.

ومن بين هذه الآثار الأدبية قصة "أوزيريس" التي سطرت على الأرجح في عدة ملفات، وكانت مسرحية دينية صوروا فيها حياة "أوزيريس" ثم موته وبعد ذلك دفنه ثم بعثه. وكانت هذه المسرحية تمثل أثناء عيد يقام كل سنة. وكان الناس يقبلون عليها اقبالًا كبيرًا ويقومون بدور فيها، وهذه المسرحية هي أقدم ما عرفه العالم عن التمثيل الديني، وكان تمثيلها يستغرق بضع أيام.

ومما كشفت عنه حفائر الآثار قطع من بردية كتبت فيها مسرحية من النوع الذي يحتاج أداؤه إلى تسيير المواكب، ونجد فيها أجزاء من أحاديث

بين شخصين وفيها توجيهات المخرج وفيها بعض المناظر، ويرجع تاريخ هذه البردية إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر قبل الميلاد، ويمكننا أن نقول عنها أنها ربما كانت أقدم كتاب مصور في العالم.

ومن بين ما وصل إلينا من هذه البرديات، ملفات تحوي أغنيات وقصائد شعرية مثل ذلك النشيد الجميل الذي يغنيه رجال البلاط يحيون به الملك في كل صباح، وكان هناك نشيد آخر في مدح الملك يغنيه فريقان يرد أحدهما على الآخر في أيام الاحتفالات الكبرى في البلاط، وهذا النشيد مكتوب في سطور متماثلة تشبه مثيلاتها في المزامير عندما كتبت باللغة العبرية، وهي أقدم ما وصل إلينا من أنواع الشعر.

ومما يدعو إلى الدهشة أن كثيراً من هذه القراطيس البردية التي كتبها المصريون في ذلك العهد البعيد بينها بعض ملفات في مبادئ العلوم، وأهم هذه البرديات، بردية "إدوين سميث" "Edwin Smith Papyrus" وهي نسخة نقلها كاتب في القرن السابع عشر قبل الميلاد عن نسخة أقدم منها، وهي بلا نزاع أقدم مؤلف صحيح، لأننا نقرأ فيه لأول مرة كيف يحاول العقل الإنساني أن يميز الحقائق ويسجلها ثم يستخلص منها النتائج على ضوء الحقائق التي لا حظها، فهي دراسة عن الجراحة وعن الطب الظاهري تبدأ من أعلى الرأس ثم تتناول الجسم جزءًا جزءًا، ولكن لسوء الحظ لم تصل إلينا هذه البردية كاملة. وينتهي الجزء الذي لدينا عند الحالات التي تتناول الصدر وأعلى السلسلة الفقرية. وللمرة الأولى في تاريخ العالم نقرأ بعض الملاحظات عن مخ الإنسان، بل أن كلمة "مخ"

تظهر في هذه البردية لأول مرة في مخطوط. وتمكن ذلك الجراح المصري الذي ألف هذه الوثيقة من معرفة أن المخ هو الذي يتحكم في أعصاب الأعضاء المختلفة، وأوضح لنا نوعًا من التحقيق العلمي عن وظيفة المخ لم يصل إليه الباحثون إلا منذ عهد قريب. واكتشف ذلك الطبيب أيضًا أن القلب هو القوة المحركة للنظام في الجسم، وهو في الوقت ذاته مركز هذا النظام، ولكن هذا الاكتشاف لا يعني أن ذلك الطبيب عرف أسرار الدورة الدموية. ومما يدهشنا أيضًا أنه ورد للمرة الأولى في مؤلفات الطب ذكر الخياطة الجراحية في تلك البردية.

وهناك ملفات فيها قواعد الحساب قائمة على الأساس العشري الذي ما زلنا نستعمله في حياتنا الآن. فيها مبادئ الجبر والهندسة، ونحن لا نملك أنفسنا من الاعجاب عندما نقرأ في أمثال تلك البرديات الشيء الكثير عن هندسة المسطحات؛ ونرى كيف عرف هؤلاء الرياضيون الأوائل قواعد لحساب مساحة المثلث على وجه دقيق أو المربع المنحرف أو الدائرة التي حسبوها على أنها تربيع ثمانية أتساع القطر. وعرفوا أيضًا قيمة النسبة التقريبية (ط– II) وهي في حسابهم ٣.١٦٠٥، وهي نتيجة قريبة إلى حد مدهش من قيمتها الصحيحة. فإذا ما وصلنا إلى هندسة المجسمات نرى في تلك البرديات الرياضية طرق حساب عدد كيلات الحبوب التي توضع في صومعات غلال اسطوانية تختلف ارتفاعاتها وأحجامها، وشرحوا أيضًا كيف يحسب الإنسان كتلة هرم مربع الأضلاع، علمًا بأم طريقة حل هذه المسألة لم تعرفها أوروبا إلا بعد ذلك التاريخ بثلاثة آلاف عام، وكان

الناس قد نسوا طريقة قدماء المصريين حتى ظهرت أخيرًا ترجمة إحدى البرديات فكشفت عنها.

وتمكن المصريون أيضًا من عمل أرصاد للأجرام السماوية بآلات بسيطة، ولكن هذه المدونات لم تصل إلى أيدينا مثلها في ذلك مثل المدونات الجغرافية. ومع هذا فإننا نعرف أنهم عرفوا كيف يميزون بين الكواكب وبين النجوم الثوابت ولكنهم لم يصلوا إلى معرفة نظام سير الكواكب في السماء، وليست أشكال الأبراج الاثني عشر في الدائرة الفلكية مصرية الأصل.

حكام مصر في عصر الفترة

الأولى والدولة الوسطى

يرجع الفضل في تقدم الآداب والعلوم في عصر الفترة الأولى والدولة الوسطى إلى الحياة الرغدة المتنوعة التي عاشها الناس في ذلك الحين، كما يرجع الفضل فيما أحرزته البلاد من تقدم اقتصادي إلى أسرة الملك امنمحات التي قامت بأعمال رفعت كثيرًا من مقدرة مصر في الإنتاج إلى حد لم تعرفه من قبل. فقد أقام ملوك هذه الأسرة جسورًا عظيمة وبنوا خزانات كبيرة ليملأوها بمياه النيل ثم يستعملوها بعد ذلك في شئون الري، ولذلك زاد دخل الأراضي وعم الرخاء.

واهتم هؤلاء الملوك بتسجيل ما وصل إليه النيل في فيضانه من ارتفاع، ونقشوا علامات تدل على ذلك المستوى من عام إلى عام على الصخور في منطقة الشلال الثاني أي أن المصريين كانوا يفعلون قبل أربعة آلاف سنة ما لم تفكر حكوماتنا المتعاقبة في عمله إلا منذ وقت قريب عندما قامت هذه الحكومات بعمل مشاريع للري لاستصلاح الأراضي غير المنزرعة.

وأظهر ملوك ذلك العهد همة وقوة في تنظيم الحكومة لأن ذلك كان ضروريًا للحد من سلطة حكام الأقاليم واخضاعها لنفوذ الملوك.

وأعدوا كشوف التعداد للمساعدة في جباية الضرائب، وقد أبقت الأيام على بعض هذه الكشوف فوصلت سالمة إلى أيدي علماء الآثار، وكان من بين أعمال الملوك في عهد الدولة الوسطى أنهم بدأوا تنظيم جيش صغير دائم، وربما كانت هذه المرة الأولى لوجود جنود محترفين في تاريخ مصر، وكان على هؤلاء الجنود حراسة القصر والحصون التي أنشأها الملوك من بلاد النوبة حتى حدود مصر الآسيوية.

ولعب هذا الجيش دورًا هامًا في الحروب. وكان الملك يعتمد أيضًا على الجنود الذين يرسلهم له حكام الأقاليم ليكونوا تحت تصرفه عند إرساله الحملات للقيام بأعمال حربية سواء في الشمال أو في الجنوب. فقد أغرم أمنمحات الأول ومن خلفه من الملوك بإرسال مثل هذه الحملات الحربية. وكان من نتيجتها أن وصلت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال

الثاني، أي أنهم أضافوا أكثر من ثلاثمائة كيلو مكتر من نهر النيل إلى بلادهم، وبنوا كثيرًا من الحصون الحربية في تلك المنطقة لحماية البلاد من خطر القبائل النوبية، وما زلنا نرى بقايا تلك الحصون القوية، وكثيرًا ما بعث هؤلاء الملوك بغزوات إلى سوريا وفلسطين، وإن كان هناك شك في أن الآسيويين الذين كانوا يعيشون في مدن الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط لم يخضعوا للحكم المصري، فإنه من المؤكد أن هذه البلاد كانت داخلة في دائرة نفوذ مصر، ويدل على ذلك وجود أسماء ملوك هذه الأسرة مرات كثيرة على الأثار التي ظهرت في الحفائر في البلاد المختلفة الواقعة على هذا الشاطئ.



شكل ٤١: تاج مصري

وسادة عليها تاج من الذهب كان موضوعًا على رأس أميرة من أميرات الأسرة الثانية عشر، وعثر عليه كما وضع يوم دفنها قبل أربعة آلاف سنة. وهذا التاج على شكل باقة مستديرة من الزهور المرسومة على شكل نجوم من الذهب ومرصعة بأحجار زاهية اللون غالية القيمة. وهذا التاج يعتبر من أجمل ما قام بصنعه الصائغ والجوهري في العهد الفرعوني.

وبذل ملوك ذلك العهد مجهودًا كبيرًا لإنماء ثروة البلاد، فحفروا قناة بدأت عند الطريق الشمالي للبحر الأحمر متجهة غربًا إلى أن وصلت إلى أقرب فرع من فروع النيل في شرق الدلتا، وبذلك تيسر للسفن المصرية في

البحر الأبيض المتوسط أن تدخل هذا الفرع الشرقي من فروع النيل في الدلتا إلى أن تصل إلى تلك القناة ثم تسير فيها متجهة نحو الشرق حتى تدخل البحر الأحمر، وبعبارة أخرى فإن هذه القناة وصلت البحرين الأحمر والأبيض قبل أن تظهر قناة السويس إلى عالم الوجود بأربعة آلاف سنة.

وكان وصل هذين البحرين وإنشاء تلك القناة هامًا لمصر مثل أهمية قناة بناما للولايات المتحدة الأمريكية، ومكن الأسطول المصري القديم من أن يسافر إلى بلاد بعيدة، فكان يصل إلى جزر بحر إيجه وإلى سوريا في الشمال، وإلى بلاد الصومال ومدخل المحيط الهندي في الجنوب حيث كانت تلك السفن تذهب إلى بلاد بونت. وتراءت تلك البلاد النائية للبحارة المصريين كأنها آخر أطراف الأرض، وكانت قصصهم الت يشحنوها بأخبار مخاطراتهم مبعث عجب من كانوا يستعمون إليهم بعد عودتهم.

ومهد حكم عائلة أمنمحات لمصر أن تتبوأ مكان الصدارة في العالم القديم، ولكن لم يمض على عام ١٨٠٠ ق.م. إلا وقت قصير حتى تضاءل نفوذ الملوك فجأة وجاءت النهاية المحزنة على يد غزاة أجانب. هؤلاء الغزاة هم الهكسوس الذين جاءوا من أسيا فاحتلوا مصر وقضوا على استقلالها.

تأسيس الإمبراطورية

استمرت سيادة الهكسوس في مصر ما يقرب من مائة سنة، ومن المحتمل أن بعض الأمراء المصريين كانوا يحكمون أقاليمهم في بعض الجهات

ولكنهم كانوا دون شك خاضعين لملوك الهكسوس. وفي أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد ثار أمير طيبة على هؤلاء الأجانب وانتهى الأمر بإخراجهم من البلاد. وأعاد قاهر الهكسوس تنظيم الحكومة وجعل طيبة عاصمة الملك، في المكان الذي تقوم فيه الآن مدينة الأقصر، ولهذا فإن الباحث عن تاريخ الإمبراطورية المصرية يحصل على ما يريده عند دراسته لما بقى من آثار ذلك العهد المجيد هناك في تاريخ مصر[1].

وآثار الأقصر غنية جدًا بنقوشها وما على جدرانها من مناظر مرسومة، وأمامها في الناحية الغربية من النيل مئات المقابر نحتت في جوانب الصخر ودفن فيها ذوو النفوذ ممن عاشوا في عصر الإمبراطورية وتركوا على جدران هياكلها فصولاً كاملة لتاريخ البلاد وحضارتها، وعلى جدران المعابد الفخمة في الناحيتين الشرقية والغربية من النيل نرى المناظر التي تمثل مواكب المجد في ذلك العصر. ونرى فيها مناظر المعارك الحربية التي

---

(1) يقسم المؤلف تاريخ مصر إلى ثلاثة عصور أولها عصر الأهرام وفي راية الأصلي أنه يبدأ من القرن الثلاثين ق.م. حتى القرن الخامس والعشرين، وثانيها العصر الاقطاعي ويصل إلى أوج ازدهاره حوالي ٢٠٠٠ ق.م. وثالثها عصر الإمبراطورية من ١٥٨٠– ١١٥٠ ق.م. ولكن الغالبية العظمي من علماء الآثار تفضل أن تبدأ عصر بناة الأهرام– أي الأسرة الثالثة في القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد ونقسم التاريخ المصري إلى ست عصور وهي:

١– العصر العتيق (الأسرتين الأولى والثانية).

٢– ثم الدولة القديمة.

٣– عصر الفترة الأولى.

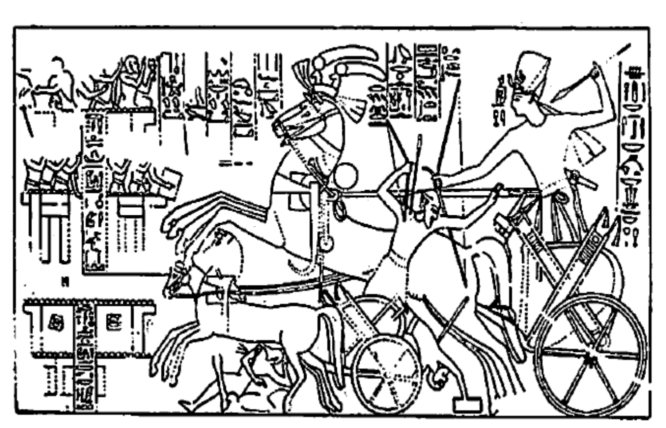
٤– الدولة الوسطى (وتبدأ حوالي سنة ٢١٠٠ ق.م. بالأسرة الحادية عشر)

٥– عصر الفترة الثانية.

٦– وأخيرًا الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشر حتى نهاية الأسرة العشرين.

أما باقي الأسرات أي من الواحدة والعشرين حتى نهاية الأسرة الثلاثين فإنها تسمى بأسماء أخرى. (المعرب).

خاض غمارها ملوك مصر المحاربون. ويستلفت أنظارنا الملوك وقد رسموا بحجم كبير يقودون عرباتهم الحربية وقد تفرق أعداؤهم مذعورين أمام جياد عرباتهم. وكان الجواد جديدًا على مصر ولم يره أحد ممن عاشوا في عصر الأهرام أو في الدولة الوسطى، ولكن بعد انتهاء تلك الفترة بدأ المصريون يستوردون الخيل من غرب آسيا حيث عرفها الناس هناك قبل ذلك الوقت بنحو خمسمائة عام على الأقل. وعرف المصريون أيضًا العربات. وعندما أتقن أهلها فنون الحرب على نطاق واسع بعد طردهم للهكسوس، بدأوا عهدًا جديدًا في تاريخهم فسيروا الجيوش وكونوا امبراطورية كبيرة.



شكل ٤٢: أحد ملوك الإمبراطورية فوق عربته الحربية

الملك رمسيس الثاني بعد انتصاره على الأسيويين الذين كانوا في الحصنين اللذين على يسار الصورة. وكان الاسيويون يطلقون لحاهم كما نراهم في الصورة وإذا فحصنا رسم الملك نراه قد ربط أعنة الخيل في وسطه لتبقى يديه طليقتين وقد أمسك بإحدى يديه زعيمًا أسيويًا كان يركب عربته ورفع حربته القصيرة في يده اليمنى ليطعنه. وهذا الرسم جزء من سلسلة مناظر طولها نحو ٥٢ مترًا مرسومة على الحائط الخارجي للبهو الكبير في معبد الكرنك– وكانت هذه المناظر منقوشة على الحجر وملونة بألوان زاهية أعطت للبناء روعة وجمالًا وكان لها في الوقت نفسه الأثر المطلوب في نفوس من يراها من الشعب، فيعرفون بطولة ملكهم ولم يبق للون أثر في أكثر هذه المناظر كما تأثرت الرسوم نفسها وتهشمت أجزاء كثيرة منها.

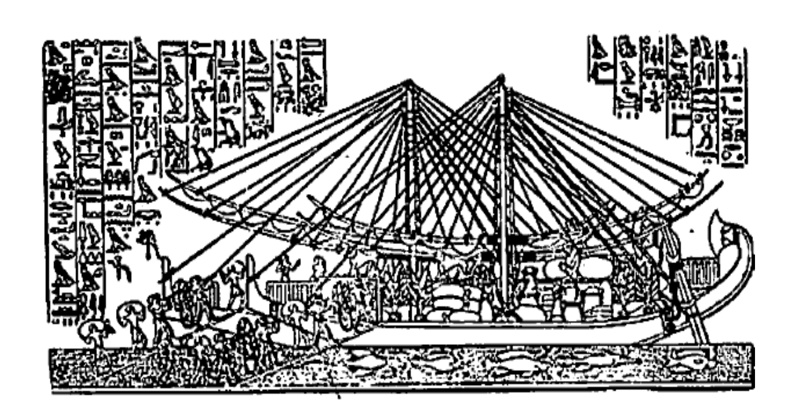
وأصبح الفراعنة قوادًا لجيوشهم التي أحسنوا تنظيمها وخاصة فرق الرماة بالقوس والسهم وفرق العربات. ولازمهم النصر فكونوا امبراطورية امتدت من شاطئ الفرات في آسيا إلى الشلال الرابع في أفريقا.

وكانت الأمم في العصور القديمة تبدأ في جمع المدن والأمارات الصغيرة لتكون منها مملكة واحدة توحد إدارتها، ولكن التطور الجديد في حياة البشرية جعل هذه الشعوب المختلفة تتجمع في امبراطورية واحدة ضمت جزءًا كبيرًا من الشرق الأدنى القديم، وظلت هذه الإمبراطورية من القرن السادس عشر حتى منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد أكثر من أربعمائة سنة.

وكان معبد الكرنك أعظم مباني طيبة، وقد زاد في مبانيه الملوك الذين حكموا في الأسرات المختلفة حتى أصبح سجلًا جامعًا تقرأ فيه تطور الإمبراطورية في تاريخها وفنها ودينها. ويرى الزائر بهو الأعمدة الكبير ويرى خلفه مسلة عظيمة من حجر الجرانيت من قطعة واحدة ارتفاعها أكثر من ثلاثين مارًا أقمتها الملكة حتشبسوت أول امرأة عظيمة في تاريخ العالم، وكانت هذه المسلة واحدة من اثنتين أحضرهما معماريو هذه الملكة من صخور الشلال الأول، وكان قطعهما ونقلهما ووضعهما في مكانهما عملًا مجيدًا. لم تكن الملكة حتشبسوت محبة للحرب، ولم تخرج على رأس الجيش، ولكنها وجهت عنايتها لإقامة المباني العظيمة وتوسيع نطاق النجارة الخارجية. فإن هذه الملكة كانت في حاجة إلى بعض أشياء كمالية لمعابدها

ومقبرتها فأرسلت حملة إلى بلاد بونت[1] سجلت مناظرها على أحد جدران معبدها الفخم الذي ينتهي في الناحية الغربية من النيل حيث عثرت بعثة متحف المتروبوليتان في نيويورك عندما كانت قائمة بحفائرها لتنظيف هذا المعبد على كثير من بقايا رسومها وتماثيلها على طول الطريق الموصل إلى الهيكل، كما عثرت أيضًا على معالم البرك التي كانت في الصالة السفلى في المعبد، ولكن هذه الأشياء التي ساعدتنا على فهم تاريخ تلك الملكة ومعرفة أعمالها أتتنا رغمًا عن معاصريها الذين أرادوا محو ذاكرها من الوجود، ولكن الأحجار الصامتة في معبد الكرنك لم تلزم صمتها إلى الأبد بل حدثتنا عن كثير من الأسرار وكشفت لنا نقوشها التي أرادوا اخفائها عن كثير من أعمالها لأن أعداءها أقاموا مبنى حول قاعدة هذه المسلة ليخفوا نقوشها عن الناس. أراد تحوتمس الثالث بعد أن تولى العرش أن يمحو تلك الذكرى التي كان يكرهها فشن على آثارها حربًا وأصدر أمره إلى العمال ليذهبوا إلى معبدها في غرب طيبة ليحطموا أكثر من مائة تمثال لتلك الملكة أقامتها فيه لتجميله، كما حطموا أيضًا اسمها أينما عثروا عليه وحطموا أسماء جميع من عاونوها من الرجال ومن بينهم ذلك المهندس الذي أقام مسلتي الكرنك، ولكن الجدران التي بناها رجال تحوتمس الثالث حول قاعدتي المسلتين تهدمتا الآن وأصبح في استطاعتنا أن نقرأ النقش المسطر عليها وعرفنا منه الكثير عن أعمال حتشبسوت.

(1) لم تكن بلاد بونت قاصرة على الشاطئ الأفريقي أي في مكان بلاد الصومال فقط بل كانت تطلق على الشاطئ الاسيوي أيضًا وكانت بلاد بونت تشمل المنطقة الواقعة حول بوغاز باب المندب فرناحيتيه أي الصومال وجنوبي الجزيرة العربية. (المعرب)



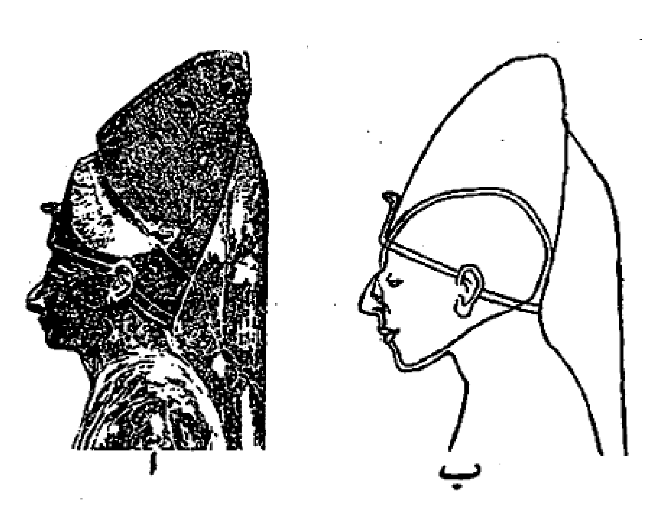
شكل ٤٣ : جزء من أسطول الملكة حتشبسوت في بلاد بونت

كان أسطول الملكة حتشبسوت إلى بلاد بونت مكونًا من خمس مراكب نرى في هذا الرسم اثنين منها وقد رسا الاسطول على الشاطئ وطويت القلوع وأخذ الملاحون بعد أن مدوا "السقالات" يحملون البضائع لشحنها وأخذ بعض هؤلاء الملاحين يعاكس قردًا جلس على ظهر المركب. وتتحدث النقوش قائلة "تم تجميل المراكب بجميع الأشياء الجميلة في بلاد بونت والأخشاب العطرية من أرض الإله (أي بلاد العرب) وأكوام من البخور الجاف، وأشجار البخور، وكذلك الأبنوس والعاج وذهب بلاد "امو" الأخضر، وخشب القرفة، وخشب الخسيت، ونوعين من أنواع البخور، والكحل، والقرود والنسانيس والكلاب وجلود الفهد الجنوبي وكذلك بعض الأهالي وأطفالهم. ولم يحدث أن جيء إلى ملك من الملوك بمثل هذه الأشياء منذ بدء الخليقة". وهذا المنظر منقوش على أحد جدران معبد هذه الملكة في طيبة.

وإذا رأى بعض الناس فيما فعله الملك تحوتمس الثالث أمرًا كان يحسن تجنبه فإن ذلك لا يؤثر قليلًا أو كثيرًا في الحقيقة المعروفة وهي أنه أول قائد حربي عظيم في التاريخ وأنه أعظم ملوك مصر المحاربين، ولهذا نسميه نابليون مصر، فحكم أكثر من خمسين عامًا منذ حوالي عام ١٥٠٠ ق.م.– (عام ١٤٤٧ ق.م) ونقرأ على أحد جدران معبد الكرنك

أخبار حروبه في مدى عشرين عامًا حطم خلالها مدنا وممالك في غرب آسيا ثم كون منها امبراطورية ثابتة الأركان. وبنى تحوتمس الثالث أول أسطول حربي كبير مكنه من بسط نفوذه على بحر إيجة.

وجاء بعده ملوك فاتحون آخرون لم تبدأ قوتهم في الانحلال إلا بعد مضي قرون من الزمان على وفاته.



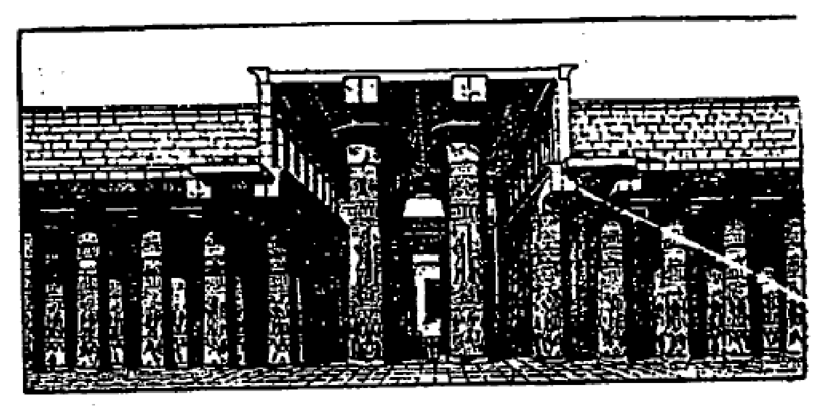
شكل ٤٤ : تمثال للملك تحوتمس الثالث نابليون مصر ومقارنته بموميائه

نرى في (أ) تمثالًا من الجرانيت لذلك الفاتح العظيم ويمكننا، نقارن ملامح وجهه بموميائه. ونرى في الخطوط الجانبية للآثنين في (ب) أن التشابه تام وأن الفنان المصري القديم أجاد في النحت إجادة تامة في ذلك العصر.

حياة الرفاهية في أيام الإمبراطورية

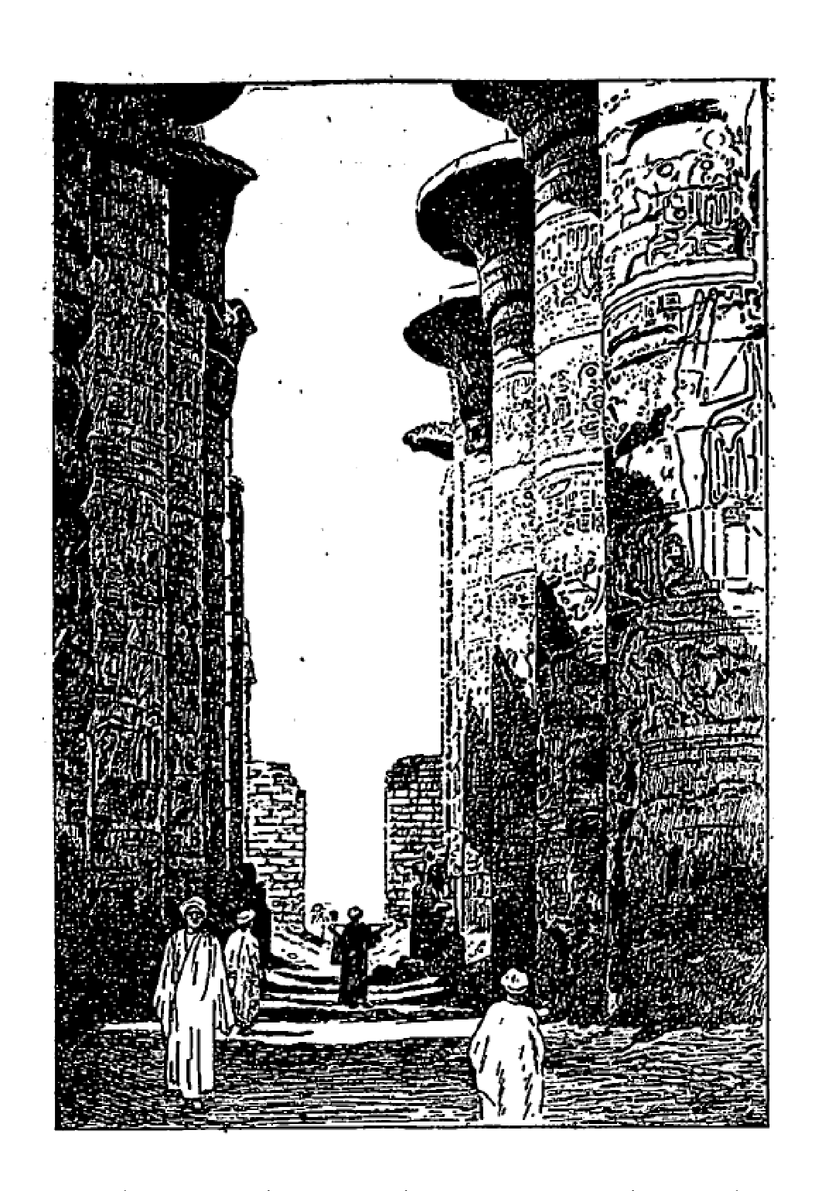
تدفقت الأموال على مصر آتية من آسيا ومن بلاد النوبة فساعدت هذه الثروة على وجود عهد يمتاز بالفخامة والقوة لم تعرف الدنيا له شبيهًا من قبل، ووضح أثر هذا العهد وبخاصة فيما تركه من مبان فخمة رحبة.

فنرى مثلًا في معبد الكرنك القاعة الكبرى المعروفة باسم بهو الأعمدة، فهي أعظم ما أقامه الانسان، وارتفاع لأعمدة التي في الجزء الأوسط منه ٦٩قدمًا ويستطيع مائة شخص أن يقفوا مجتمعين فوق تاج أي عامود منها. وتطورت نوافذ مرتفعة جميلة الشكل، نرى فيها الأصل الذي أخذ عنه مهندسو الكنائس طراز البازيليكا فيما بعد.



شكل ٤٥ : القاعة الكبرى في الكرنك كما كانت عند تشييدها، وهي أفخم بناء أقيم في عصر الامبراطورية

ليست هذه القاعة إلا حجرة واحدة في المعبد ويبلغ طولها ٣٣٨ قدمًا وعرضها ١٧٠ قدمًا أي أن مساحتها تقارب كتدرائية نوتردام في باريس وعدد أعمدتها ١٣٤ عمودًا مرتبة في ١٦ صفًا وارتفاع أعمدة الجزء الأوسط ٧٩ قدمًا. وفي هذا الجزء صفان من اثني عشر عمودًا يزيدان في ارتفاعهما عن الأعمدة الأخرى الجانبية، وكان النور يدخل القاعة من النوافذ فوق الأعمدة الوسطى. وإذا قارنا هذا النوع من النوافذ بالنوع الضيق (انظر شكل ٣٦) الذي كان يفضله المصريون في العصور السابقة لرأينا فارقًا كبيرًا. وقد اقتبست أوربا هذا النوع المرتفع واستعملته في مبانيها.



شكل ٤٦: الأعمدة الضخمة في الجزء الأوسط من بهو الأعمدة في معبد الكرنك

وكانت معابد طيبة في أيام الإمبراطورية معابد فخمة تحيط بها حقول ملأى بأشجار النخيل، وقامت أمامها المسلات وتماثيل الفراعنة، وكان كل شيء دقيق الصنع ملونًا بألوان زاهية جذابة، وكانت بعض الأجزاء من هذه

المباني مغطاة بصفائح من الذهب أو الفضة تذهل الأبصار بضيائها وتنعكس صورها في مياه بحيرة المعبد، فإذا مادلف الزائر إلى داخلها وجد نفسه في ردهة متسعة تضيئها الشمس وتحيط بجوانبها البواكي المقامة فوق الأعمدة، ولكن هذا الزائر العادي لا يستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك. أنه يلقى ببصره إلى الأمام فيرى أبهاء أخرى ولكن تلك المباني كانت بالنسبة إليه مليئة بالأسرار.

وكانت هناك معابد مختلفة توصل بينها طرقات طويلة صفت على جوانبها تماثيل من الحجر من الطراز المعروف باسم "أبو الهول" وكانت هذه المباني وطرقاتها مجموعة عظيمة جعلت من طيبة مدينة تعد من أعظم مدن[1] العالم القديم، وكسبت لها صيتًا بعيدًا بأنها أعظم المدن وأكبرها، وأعظم المدن التي بناها الانسان وكانت مقامة على نظام متجانس جعلها كأنها مبنى واحد فخم واسع الأرجاء.

ويعود الفضل الأكبر في تقدم العمارة المصرية إلى كل من المثال والرسام فقد لونوا الأعمدة ذات التيجان الزهرية بألوان تماثل ألوان النباتات الأصلية، كما لون الرسامون مناظر الحرب بألوان زاهية براقة، وقامت تماثيل الملوك أمام المعابد، وكان بعضها عظيم الحجم إلى درجة تفوق ارتفاع صرح المعبد نفسه، وكان يراها الناس من مسافة أميال، وكان في مقدرة المثالين أن يصنعوا مثل هذه التماثيل الضخمة من قطعة واحدة

---

(1) عرفت أوربا فنون تخطيط المدن وتنظيمها على أنها وحدة متجانسة متوازنة ولكن ذلك لم ينتشر في أمريكا بعد، ولم يبدأ فيها هذا النوع إلا من عهد قريب.

من الحجر بالرغم من أن ارتفاعها ثمانون أو تسعون قدمًا، ووصل وزن بعضها إلى ألف طن. وفي محاجر أسوان مسلة لم ينته العمل منها وتركت ملقاة في مكانها، يبلغ ارتفاعها مائة وسبعة وثلاثين قدمًا، ولو قدر لها أن تستخرج من مكانها لبلغ وزنها أكثر من ١١٠٠ طن. وقد استطاع مهندسو العصر الإمبراطوري نقل كثير من أمثال هذه الأحمال الثقيلة إلى مسافات تبعد مئات الأميال من أماكنها دون أي قوة غير القوة الإنسانية. ونرى في أمثال هذه الأعمال ما أحرزه قدماء المصريين من التفوق العظيم وفاقوا بذلك غيرهم من الشعوب.



شكل ٤٧: نقل مسلتي حتشبسوت على السفن في النيل– وكانت كل منهما تزن ٣٥٠ طنًا.

نقلوا هاتين المسلتين في سفينة نيلية طولها ٣٠٠ قدم ووضعوها بحيث تتلامس القاعدتان. وطول كل مسلة ٩٧.٥ قدم ووزن المسلتين ٧٠٠ طن وكان يجر هذه السفينة ثلاثون زورقًا، وفي كل واحد منها اثنان وثلاثون بحارًا يستعملون المجاديف أي أن العدد الذ لزم لتسيير سفينة المسلات كان

٩٦٠ بحارًا. وقد أشرف المهنسون على نقل هاتين المسلتين من محاجر أسوان عند الشلال الأول ثم أشرفوا على نقلهما في النيل حتى وصلت طيبة التي تبعد ١٥٠ ميلًا عن أسوان.

ونرى في الرسم أنهم وضعوا كل مسلة فوق زحافة ليسهل جرها كما هي إلى المكان الذي أقيمت فيه في معبد الكرنك.

والشكل المنشور في هذا الرسم أخذ حسب المنظور الحديث عن رسم مصري قديم على أحد جدران معبد هذه الملكة في طيبة.

ويقوم في طيبة على الشاطئ الغربي للنيل تمثالان كبيران للملك أمنحوتب الثالث أعظم الأباطرة المصريين حبًا للترف والفخامة، ونرى خلفهما الجبل الذي نحتوا في جوانبه مئات الهياكل لمقابر ذوي الأهمية من رجال الإمبراطورية.

وهنا يرقد كبار القواد الذين رافقوا الملوك في حروبهم في آسيا وفي بلاد النوبة وهنا دفنوا أيضًا المهندسين المعماريين والفنانين الموهوبين الذين أقاموا المباني التي أشرنا إليها وجعلوا من طيبة أفخم المدن في العالم القديم.

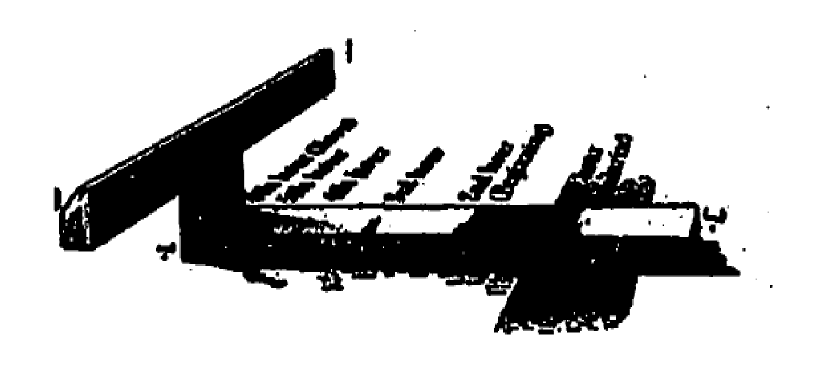
وعلى جدران هذه المقابر نقرأ أسماء هؤلاء العظماء، وفي بعض الأحيان نقرأ أيضًا كثيرًا مما حدث لهم في حياتهم، فمثلًا نقرأ في إحدى المقابر قصة أحد القواد الذي أنقذ حياة الملك تحوتمس الثالث أثناء صيده

للفيلة في آسيا. فقد أسرع هذا القائد في اللحظة المناسبة فضرب بسيفه خرطوم فيل هائج كان يطارد الملك.

وكان هنا في طيبة قبر القائد الذي استولى على مدينة يافا في فلسطين وذلك بإخفاء جنوده في غرائز وضعها على ظهور الحمير وأدخلها إلى المدينة كبضائع للتجارة، وهي إحدى المخاطرات التي كونت فيما بعد جزءًا من قصة، علي بابا والأربعون لصًا".

ولم يعثر الأثريون على مقبرة هذا القائد بعد، ولكن طبقًا ذهبيًا يحمل اسمه يوجد الآن في متحف اللوفر بباريس. ومن المرجح أنه كان في تلك المقبرة، لأن مقابر المصريين الذين عاشوا في تلك الأيام كانت تملأ بالكثير من أدوات المنزل يضعها أقارب الميت الغني بعد وفاته، فنجد في هذه المقابر الأثاث المنزلي والملابس والطعام الذي يحتاج إليه في العالم الآخر، حتى الآلة التي كانت يستعملها في قياس الوقت لم ينسوا أن يضعوها معه.

أما الملوك فكانوا يعدون أنفسهم بكل ما يساعدهم على أن يحيوا حياة رغدة مترفة بعد الموت. وأفخم ما وجدناه من الأثاث الجنازي في مقابر الملوك هو محتويات مقبرة الملك توت عنخ آمون أحد ملوك الأسرة الثامنة عشر. وتمدنا مقابر الإمبراطورية بأشياء أكثر من تلك الأدوات التي كانوا يستعملونها أثناء الحياة. فإننا إذا درسنا النقوش والنصوص التي تغطي جدران مقابر جبانة طيبة نرى التقدم الكبير الذي أحرزه قدماء المصريين في الآراء الدينية بعد عصر الأهرام....



شكل ٤٨ : أقدم الساعات في العالم– مزولة مصرية

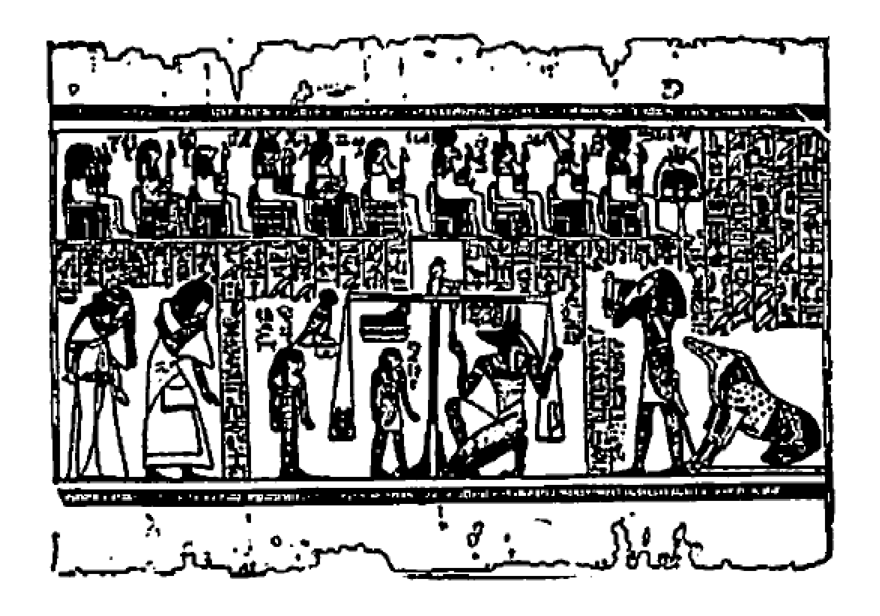
ساعدت شمس مصر الصافية على جعل المزولة آلة سهلة الاستعمال ففي الصباح كانوا يدعون القائم (أ– أ) في ناحية الشرق يسقط ظله على القاعدة (ب– ب) في المكان الذي نرى فيه علامة الساعة الأولى– وكلما ارتفعت الشمس كلما أصبح الظل أقصر، ونرى بعد ذلك علامات الساعة الثانية حتى الساعة السادسة فيكون الوقت قد أصبح ظهرًا، وعند ذلك تدار هذه الألة لتصبح ناحية القائم (أ– أ) ناحية الغرب حتى يقاس ظل شمس بعد الظهر بالطريقة عينها وقد أخذت أوروبا عن المصريين تقسيم اليوم إلى اثنى عشر ساعة.

وتحمل هذه الساعة الشمسية اسم الملك تحوتمس الثالث أي أنها صنعت منذ ثلاثة آلاف وأربعمائة سنة. وبعد عهد تحوتمس الثالث بما يقرب من ألف سنة اقتبس اليونانيون هذا النوع من الساعات. والساعة المنشورة في الشكل أعلاه توجد في متحف برلين، وقد رمم الأثري بورخارت قائمها العلوي (ا– ا).

.... فكان كل واحد من أصحاب القبور يتوقع، يلاقي حسابه في العالم الآخر حيث كان أوزيريس هو القاضي الأعظم والملك بين هؤلاء الموتى. وكان كل ميت يستطيع أن يحيا مرة ثانية، ويقوم من الموت كما فعل أوزيريس، ولكنه كان مجبرًا– قبل أن يحصل على ذلك– أن يقف بين أيدي أوزيريس لتوزن روحه فيوضع قلبه في أحد كفتي ميزان ويوضع في الكفة الأخرى رمز الحق والعدل على شكل ريشة.

وكان أصدقاء الميت وأهله يضعون في التابوت الذي يحوي جثته ملفًا من البردي يحوي أدعية وتعاويذ سحرية كان من المفروض أن تعينه في حياته التي سيحياها بعد الموت، ونحن نطلق الآن على أمثال تلك الملفات "كتاب الموتى" وكان هذا "الكتاب" في أكثر الحالات حاويًا لمناظر تمثل بعض ما سيراه أو سيلاقيه الميت في الحياة الأخرى، ومن أهم تلك المناظر صورة المحاكمة في قاعة الحق أمام الإله أوزيريس.

وجاء اليوم الذي تولى الملك امنحوتب الرابع عرش مصر بعد أبيه الملك امنحوتب الثالث، وكان قد مضى على تأسيس الإمبراطورية نحو مائتي سنة اتصلت فيها مصر بغيرها من البلاد واكتسبت خبرة من حكم مناطق كثيرة تقع في قارتين على شاطئ برزخ السويس، وهي منطقة أكبر بمراحل متعددة من وادي النيل الذي كانوا يعيشون فيه.



شكل ٤٩: منظر المحاكمة كما وردت في أحد كتب الموتى

نرى المتوفي "آني" وخلفه زوجته يقفان على يسار الصورة وأمامهما الميزان. ونرى في احدى الكفتين قلب الانسان يقوم بوزنه الاله أتوبيس (ورأسه على هيئة رأس ابن آوى) ليعرف أن كان صاحبه صادقًا أو غير صادقًا، وإلى جانبه يقف الإله تحوت وقلمه في يده ليسجل الحكم وعلى اليمين زي المعبودة البشعة التي تلتهم الأرواح المذنبة.

وينحني "آني" احترامًا وينظر إلى قلبه الذي في احدى كفتي الميزان وفي الكفة الأخرى ريشة الحق.

وفي الجزء الأعلى من الصورة نقرأ تضرعات آني إلى قلبه أن يقف إلى جانبه وألا يتخلى عنه، كما نرى أيضًا صفًا من الآلهة الذين يشهدون هذه المحاكمة: (عن بردية في المتحف البريطاني).

كانت الإمبراطورية هي السبب الذي جعل ملوك مصر يجدون أنفسهم وسط معترك دولي، وظل آلهة مصر يشدون أزر الملوك أينما امتد نفوذ مصر كما فعلوا من قبل، وهكذا تدرج المصريون إلى الإيمان بأن إله الشمس "رع" مد نفوذه أيضًا على مصير البشر في خارج حدود مصر، أي أنه أصبح إلهًا دوليًا وليس إلهًا مصريًا فقط.

ولم يفكر أحد في ذلك العهد أن العالم وحدة أو أن لهذا العالم كله إله واحد يسيطر عليه. ونضجت فكرة الصلة الدولية في مصر حوالي ١٤٠٠ ق.م. وسرعان ما نمت معها فكرة وحدة العالم. وللمرة الأولى في تاريخ الدنيا ظهرت فكرة إله واحد للعالم كله له سلطان امبراطوري، وتلك هي أقدم صورة في التاريخ لفكرة التوحيد كما وصلت إليها خبرة الشرق.

وهنا بزغ فجر جديد في تاريخ العالم عندما استطاع سكان وادي النيل أن يدركوا أنهم جزء من عالم كبير لا يمكن للإنسان أن يلم بأطرافه، وظهر بينهم أيضًا التوحيد قرونًا عديدة قبل أن يظهر في أي قطر آخر.

وفي مثل ذلك الوقت الحرج تولى الملك امنحوتب الرابع عرش البلاد حوالي عام ١٣٧٥ ق.م. وكان شابًا كثير التفكير، شجاعًا لا يخاف، ولكنه لم يراع الحكمة في إصراره على إجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة. حاول أن يحطم في إصراره على إجبار رعاياه على اعتناق فكرة العالمية الجديدة. حاول أن يحطم آلهة مصر القدماء، وحاول أن يغري

الناس بعبادة إله واحد فقط هو إله الشمس، فكان هذا العمل من جانبه حادثًا جديدًا لا مثيب له في التاريخ البشري

وأصدر أمره إلى جميع شعوب الإمبراطورية بما فيها آسيا وإفريقيا ليعبدوا إلهًا واحدًا سماه "أتون" وأغلق المعابد وطرد الكهنة ليحمل الناس على نسيان دينهم القديم وأمر بمحو أسماء هؤلاء أينما وجدوا وبخاصة في نقوش المعابد، وكره الشرك فأمر أيضًا بتكسير علامة الجمع أينما وردت في أي نص يذكر جمع كلمة "إله" وكانت كراهيته شديدة بنوع خاص للإله "أمون"[1] إله طيبة في عصر الإمبراطورية.

ووصلت به كراهيته لأمون إلى حد تغيير اسمه لأن كلمة الإله مذكورة فيه فإن معنى اسم امنحوتب هو "أمون راض" فغير اسمه إلى "أخناتون" ومعناها "المفيد لأتون".

وأخيرًا ترك اخناتون مدينة طيبة الفخمة بما فيها من معابد وقصور وبنى له عاصمة جديدة في مصر الوسطى سماها "مشرق أتون" ومكانها الآن بلدة تل العمارنة ولم يستمر الناس في سكني تلك المدينة بعد وفاة اخناتون فهجروها بعد سنين قليلة وما زالت بقايا جدران منازلها وقصورها قائمة حتى الآن بعد أن كشف الباحثون الأثريون عنها. وقبل الحرب العالمية الأولى اكتشفت إحدى بعثات الحفر الألمانية في منزل من منازل تلك

(1) "أمون" هو النطق الصحيح لاسم هذا الإله عندما يكون وحدده أو عندما يأتي في آخر اسم يكون الإله جزءًا من تركيبه. أما إذا جاء في أول اسم مركب مثل امنحوتب (كتبه اليونانيون امينوفيس) فإن نطقه يتغير وينطق أمن. وعلى ذلك فتكون كتابته "توت عنخ أمن" خطأ ويجب أن تكتب "توت عنخ أمون".

المدينة بقايا معمل أحد المثالين، ووجدت فيه عددًا كبيرًا من القطع الجميلة التي أمدتنا بمعلومات جديدة مدهشة عن فن النحت في ذلك العصر.

وتبع اخناتون عدد من الناس آمنوا بدينه واعتنقوه وقطعوا مقابرهم في صخر الجبل القائم وراء المدينة ونقشوا جدران تلك القبور بمناظر جميلة ترينا مظاهر الحياة في تلك المدينة التي نسيها الناس. فنقرأ على جدرانها الأناشيد[١] التي كتبها اخناتون نفسه في تمجيد إله الشمس وهي ترينا بساطة وجمال إيمان هذا الملك الشاب بالإله الأوحد. فقد أوصلته عقيدته إلى الإيمان بأن الإله الواحد لم يخلق المخلوقات الدنيا فقط، بل أنه خلق جميع الناس على اختلاف أجناسهم بما فيهم المصريون والأجانب. وكان "أتون" أبا رحيمًا يحافظ على كل مخلوقاته ويغمرها برعايته، حتى الطيور التي تعيش بين النباتات كانت تعترف برحمته فترفع أجنحتها كما يرفع الانسان ذراعيه شكرًا له كما يقول النشيد. ولقد تتبعنا تطور الإنسان وتقدمه في خلال آلاف السنين ولكننا لم نر أحدًا قبل اخناتون عرف الصورة الصحيحة للإله الواحد الرحيم بكل الكائنات.

---

(١) انظر كتاب Breasted. The Dawn of Conscience New York. 1933 pp. 281-286.



شكل ٥٠: الملك اخناتون يجلس إلى مائدة الغذاء مع عائلته

حرمت التقاليد القديمة على الملك أن يصور وهو يقوم بأعمال الحياة اليومية بين أفراد عائلته. ولم نكن قبل عصر العمارنة نرى إلا لمحات قليلة من الحياة الرسمية ولكن في المقابر الصخرية في العمارنة نرى وجهاء الدولة يتبارون في رسم ملكهم في حياته الخاصة على جدران مقابرهم، وذلك أمر كان حدوثه مستحيلًا قبل عصره. فترى مثلًا في هذا الرسم الملك الشاب يجلس إلى مائدة محملة بأنواع الطعام، يمسك بيده اليمنى قطعة كبيرة من اللحم يأكل منها بشهية بينما الملكة إلى جواره وقد أمسكت بيدها دجاجة كاملة. وإلى جانب الملكة جلست أميرتان صغيرتان تأكلان بأيديهما كما يفعل والدهما، وفي الناحية اليمنى من الصورة جلست أم الملك وإلى جانبها ابنة لها تشاركان العائلة في طعام الغذاء. ونرى في وسط الصورة أربعة من الخدم يحملون الطعام بينما أخذت فرقه موسيقى وترية تشنف أسماعهم بأنغامهم أثناء الأكل.

ولم يكن في استطاعة عامة الشعب في القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن يفهموا عقيدة مثل العقيدة التي نادى بها اخناتون، وامتلأت البلاد بكهنة المعابد الساخطين على الدين الجديد كما امتلأت أيضًا بجنود الجيش الذين أحسوا أنهم أصبحوا مهملين. وتآمر الكهنة سرًا مع الجند ووجدوا منهم أذنًا صياغة، وبدأت الفوضى والاضطرابات تأخذ سبيلها في كل مكان، ولم تقتصر على مصر وحدها بل وصلت أيضًا إلى ممتلكات مصر في آسيا فأخذت هذه الولايات تعد نفسها للقيام بالثورة.

وقد وقفنا على سير الأمور في آسيا من "خطابات تل العمارنة" وهي مجموعة من الخطابات يبلغ عددها أكثر من ثلاثمائة خطاب كانت مودعة في إحدى مكاتب حكومة اخناتون في تل العمارنة حيث ظلت في مكانها أكثر من ثلاثة آلاف عام حتى عثر عليها بعض الأهالي عندما كانوا يحملون السباخ من خرائب تل العمارنة ليخصبوا به حقولهم.

وهذه الخطابات محررة على قوالب صغيرة من الطين باللغة البابلية والخط المسماري وأكثرها جاء إلى ملك مصر من ملوك غرب آسيا وهي في مجموعها أقدم مراسلات دولية في العالم، ونرى فيها كيف أن هؤلاء بدأوا يفكرون في التحرر من حكم مصر وكيف بدأت الإمبراطورية المصرية تتحطم وتتهاوى أركانها.

فالحيثيون نزلوا من آسيا الصغرى واستولوا على حدود فرعون الشمالية في سوريا وغزا العبرانيون حدودهم في فلسطين آتين من الصحراء، وكانت هذه المتاعب والاضطرابات في داخل مصر وفي خارجها على أسوأ ما يكون عندما مات اخناتون فيتل العمارنة. ومهما قيل عن هذا الملك بأنه كان حالمًا ويعيش على آراء مثالية غير واقعية فليس هناك من ينكر عليه أنه كان أعظم نابغة ظهر في العالم حتى ذلك الوقت.

لم ينجب أخناتون ولدًا ذكرًا ليخلفه على العرش فزوج كبرى بناته من شاب من الحاشية الملكية وأشركه معه في الملك، ولكن هذا الشاب لم يعش طويلًا، وعندما أدركته المنية اختار اخناتون شابًا يافعًا آخر اسمه "توت عنخ أتون"، أي (صورة أتون الحية) وزوجه من ابنته الثالثة لأن ابنته الثانية قد ماتت قبل ذلك، وفعل اخناتون مع توت عنخ أتون ما فعله مه من سبقه فأشركه معه في الملك، فلما جاء اليوم الذي مات فيه اخناتون أصبح صهره الصغير وحده على العرش.

واستطاع كهنة أمون أن يجبروا الملك الحديث السن على ترك عاصمة اخناتون في تل العمارنة ويعود إلى طيبة مدينة أمون ويغير كلمة أتون في اسمه إلى أمون فأصبح اسمه توت عنخ أمون (أي صورة أمون الحية).

وهكذا عادت مصر إلى عبادة أمون وغيره من الآلهة واختفت ديانة أتون الجميلة أقدم ما عرفه العالم عن التوحيد ووقف المخلصون لهذه الديانة

في وجه توت عنخ أمون ولكن هذا الشاب الصغير لم يلبث أن أصبح ألعوبة في يد الرجال المجربين الذين كانوا حوله.

ومات بعد أن حكم فترة تزيد عن ست سنوات[1] ولم يكن عمره يزيد عن الثانية عشر إلا قليلًا. وربما كان موته في هذه السن المبكرة لم يكن طبيعيًا وإنما قتلة المهنة ذوو المطامع والجنود الذين حوله. وبعد وفاته دفن توت عنخ أمون على مقربة من أسلافه العظماء أجداد زوجته، ولم يكن هناك أمير قوي في العائلة المالكة يشق طريقه إلى العرش، ولذا زالت أيام حكام الأسرة الثامنة عشر حوالي عام ١٣٥٠ ق.م. بعد أن حكمت مائتين وثلاثين سنة، والتي كانت أعظم البيوت المالكة في تاريخ مصر، وتركت وراءها ذكرى عظيمة لأن ملوكها كونوا أول امبراطورية كبيرة في تاريخ الشرق القديم.

انتهى حكم توت عنخ أمون قبل أن يبلغ مبلغ الرجال، ولو فرضنا جدلًا أنه كانت لديه الحكمة وقوة الخلق التي تساعده على الصمود في وجه أعدائه فإننا لا نتوقع من أي حاكم في مثل ظروفه أن يتابع آراء أخناتون وينجح في تطبيقها أي ينجح في تغيير الديانة في مصر وإمبراطوريتها.

---

(١) تميل الأبحاث الحديثة إلى القول بأن مدة حكم توت عنخ أمون لم تقل عن ٨ سنوات وأنه تولى العرش عندما كان في العاشرة من عمره، كما يقول أكثر الباحثين بأن كلا من سمنخكارع الذي تزوج كبرى بنات اخناتون، وتوت عنخ أتون كانا أميرين من العائلة وربما كان أخوين له من أبيه. ويقول المؤلف أن توت عنخ أمون مات مقتولًا ولكن لا يوجد في الآثار المصرية أي دليل على ذلك ولم يصادف قبولًا عند أحد من المشتغلين بالتاريخ (المعرب).

لم يكن اخناتون يرمي إلى تغيير الديانة تغييرًا تامًا فحسب، بل أراد أيضًا أن بغير العقلية والعادات والفن. وأراد أن يقتلع كل شيء من جذوره كما يقتلع الانسان جذور النبات، فقد كان يرمي من وراء حركته أن يخرج من قلوب المصريين عقائدهم التي ربوا عليها وأن يخرج من قلوبهم عاداتهم وعلى الأخص ما كان يتعلق منها بآمالهم الدينية وما كانوا يرجونه من حماية وسعادة في مملكة أوزيريس بعد الموت.

ومن الطبيعي أن نتوقع أن يلجأ الكهنة إلى جميع أعمال الوحشية لتحطيم كل ما أخرجه صناع وفنانو أخناتون، ونجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا فلم يبق إلا النادر القليل الذي يكشف عن جمال الديانة وروعة الفن في أثناء تلك الأيام الثائرة في عهد أخناتون.

وكانت هذه الحقيقة من الأسباب التي زادت في أهمية اكتشاف مقبرة توت عنخ أمون لأنها حوت قطعًا فنية قام بصنعها فنانو عصر أخناتون، وكانت هذه القطع الفنية مكدسة في مقبرة صغيرة ذات حجرات أربع نحتت على عجل في وادي الملوك في الناحية الغربية من النيل، واستطاعت الملكة والمخلصون للبيت المالك أن يملأوا قبر الملك الشاب بجميع ما يليق بفرعون مصر من أشياء فخمة فوضعوا فيها الأثاث الجميل الصنع ومصنوعات أخرى هي آيات في الفن والعظمة.

وفي تلك الأيام الممتلئة بالاضطرابات السياسية التي مرت على البلاد بعد دفن توت عنخ أمون تمكن اللصوص من الوصول إلى مقبرته

ولكنهم ضبطوا وهم متلبسون بجرمهم وحاول حراس الجبانة أن يعيدوا كل شيء إلى أصله وأن يصلحوا ما أفسده اللصوص ولكنهم لم يتقنوا ما أرادوا عمله.

وبعد مائتي سنة من وفاة توت عنخ أمون عندما كانت الإمبراطورية في أواخر أيامها أمر الملك رمسيس السادس بحفر مقبرته في وادي الملوك فوق المكان الذي كانت فيه مقبرة ذلك الملك الشاب ورمى العمال بقطع الأحجار فوق مدخلها وبنوا فوق ذلك الردين أكواخًا بسيطة ليقيموا فيها، هذا هو السبب الذي جعل مقبرة توت عنخ أمون تظل مجهولة وبعيدة عن أيدي المخربين بعد سقوط الإمبراطورية المصرية. وظلت على الحالة التي تركها عليها حراس الجبانة حتى عثر عليها رجال الأثري هوارد كارتر (Howard Carter) في خريف عام ١٩٢٢ فكانت المقبرة الملكية الوحيدة التي بقيت سليمة حتى العصر الحاضر.

وكنت ممن أسعدهم الحظ فزاروا الصالة الأولى من مقبرة توت عنخ أمون بعد اكتشافها ببضعة أيام فكانت من الأشياء التي لا يمكن للمرء أن ينساها، فها هو الأثاث الفخم الذي كان يزين يومًا من الأيام قصر أحد فراعنة مصر قبل ثلاثة آلاف ومائتين وخمسين عامًا. وكان أجمل ما في هذا الأثاث كرسي من كراسي القصر. كان اسم توت عنخ أمون مكتوبًا على ذراعيه، ولن أنس ما تسرب إلى نفسي من إحساس عندما قرأت على الذراع الآخر اسم هذا الملك الصغير عندما تولى العرش وهو اسم توت عنخ أتون. وبعبارة أخرى كان هذا الكرسي الدقيق الصنع مما أخرجته يد

الفنانين الذين عاشوا في أيام أخناتون وأنه كان يستعمل في القصر الملكي في العمارنة قبل أن يرى توت عنخ أمون نفسه مضطرًا لتغيير اسمه. ومن هنا اتضح أن تلك المقبرة العظيمة كانت مملؤة بالكنوز الفنية التي تصور لنا الحياة والفن في أيام ثورة أخناتون في الوقت الذي حرر فيه العقل البشري نفسه من جميع القيود واتجه ناحية جديدة في الفن وفي الحياة.

وكانت النتائج السياسية لمثل هذا التحرر الثوري وخيمة العاقبة، فقد زالت أيام العائلة المالكة القديمة وانتقل الملك إلى بيت جديد تولوا العرش واحدًا بعد آخر وكان أهمهم الملك سيتي الأول (حوالي ١٣١٣- ١٢٩٢ ق.م) وابنه الملك رمسيس الثاني (حوالي ١٢٩٢- ١٢٥٢ ق.م).

وبذل كل من الأب والابن جهودًا جبارة متتالية ليعيدا- ولو إلى حد ما الإمبراطورية المصرية، ولكنهما لم يستطيعا طرد الحيثيين من سوريا لأن هؤلاء الغزاة الأقوياء الذين جاءوا من آسيا الصغرى كانت لهم مواهب حربية ممتازة وكانوا قد عرفوا استعمال الحديد فصنعوا منه أسلحتهم، بينما كانت الإمبراطورية المصرية آخذة في التضاؤل وكانت آخر الممالك العظيمة التي عاشت في العصر البرونزي[1].

وما زلنا نرى اليوم في أثار طيبة مظاهر السقوط الذي كانت مصر على وشك التردي فيه. ففي مناظر المعارك الحربية التي خاضتها مصر في

(1) لا نعرف على وجه التدقيق الوقت الذي بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز ولكننا نجد أن أقدم وقت بدأ فيه المصريون يستعملون البرونز على نطاق واسع وخلفوا وراءهم أدوات برونزية كثيرة كان في الأسرة الثانية عشر أي حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م.

أواخر أيام الإمبراطورية نرى كثيرًا من الأجانب الذين كانوا في الجيش، ففي ذلك دليل على أن المصريين بدأوا يفقدون تحمسهم للجندية وأخذوا يستدعون الأجانب ليخوضوا حروبهم بدلًا منهم. وكان من بين هؤلاء الأجانب شعوب من شمال البحر الأبيض الذين تحدثنا عنهم عند كلامنا عن العصر الحجري، نرى أفرادًا من هذه الشعوب على الآثار المصرية بعد أن تعلموا من شعوب الشرق صناعة المعادن، تراهم الآن جنودًا مأجورين في الجيش المصري ومصورين على جدران معابدها يحملون في أيديهم سيوفًا من البرونز عظيمة الحجم. وأخيرًا جاء اليوم الذي اتحد فيه أقارب هؤلاء الجنود الأجانب الذين كانوا يعيشون في موطنهم مع غيرهم من شعوب البحر الأبيض المتوسط وغزوا مصر في جموع كبيرة حتى سقطت الإمبراطورية المصرية المتداعية، وكان ذلك في منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وفي مدى الأربعمائة سنة التي مرت على الإمبراطورية المصرية كان ملوك الفراعنة يدفنون في طيبة في البر الغربي، في واد بين الجبال الواقعة خلف تمثالي الملك أمنحوتب الثالث، وهو الوادي الذي ذكرناه عند حديثنا عن مقبرة توت عنخ أمون. ففي جنبات هذا الوادي نحت المصريون ستين مقبرة كانت تسير كل منها على شكل دهليز في جوف الجبل وبلغ طول بعضها بضعة مئات من الأقدام.

وفي نهاية تلك المقابر كانت توضع موميات أولئك الفراعنة لتكون آمنة ولكن في اليوم الذي بدأ فيه الضعف يتسرب إلى الدولة وآذنت

الإمبراطورية بالسقوط بدأ اللصوص يعيشون بها فلم ينج منها إلا قبر ملك واحد وهو الملك توت عنخ أمون. وحاول الملوك الضعفاء الذين تولوا العرش بعد الأباطرة أن ينقذوا ما بقي من موميات أسلافهم فأخذوا ينقلونها من مكان إلى مكان حتى أخفوها نهائيًا في مكان قطعوه في الصخر في الجبل الغربي. وبقيت موميات الفراعنة آمنة في ذلك المكان ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة حتى عثر عليها في عام ١٨٨١ ونقلتها الحكومة المصرية إلى متحف القاهرة.

وكانت تلك الموميات إلى ما قبل أعوام قليلة معروضة في المتحف وكان في استطاعة الزائر أن يقف إلى جانبها ويتأمل قسمات وجه أولئك الفراعنة الذين حكموا مصر وآسيا قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام، ولكن الحكومة المصرية قررت وضع تلك الموميات في قاعة خاصة بالمتحف ولا يسمح بزيارتها لا لأغراض علية.



شكل ٥١: وادي الملوك في طيبة حيث دفن المصريون ملوكهم في عهد الإمبراطورية

لم يستمر الملوك في عهد الإمبراطورية (بعد ١٦٠٠ ق.م) على تشييد أهرام يدفنون فيها جثثهم بل فضل هؤلاء الملوك أن ينتحوا مقابر في جوف الصخر في ذلك الوادي. وكانت هذه المقابر تمتد مئات الأقدام داخل الصخر. وفي وسط الصورة نرى باب مقبرة رمسيس السادس واضحًا، وقد عثر كارتر على مقبرة توت عنخ أمون تحت هذا الباب مباشرة.

ودب الضعف في قوى الأمة بعد سقوط الإمبراطورية وفقدت حيوتها وقوة ابتكارها وأصبحت مغنمًا للغزاة الأجانب يستغلون أهلها وينقلون القمح ليطعموا به شعوب البحر الأبيض المتوسط.

وجاء كثير من اليونان والرومان ليزوروا مصر ويتأملوا ما فيها من عجائب قام بها القدماء، وترك كثير من هؤلاء الزوار أسماءهم منقوشة على

الآثار كما يفعل بعض السائحين اليوم عندما يحضرون إلى مصر ليشاهدوا الآثار نفسها.

إن قصة التاريخ المصري مسطرة على هذه الآثار ولكن بعد مضي دورة من دورات الزمن نسى الناس هذا التاريخ. وكان قد مضى أكثر من ألف سنة على موت آخر شخص كان في مقدوره قراءة اللغة المصرية القديمة، ومرت قرون طويلة كان زائر الآثار يتطلعون إلى تلك الكتابات التي تغطي جدران المعابد والمقابر وغيرها في جميع أرجاء وادي النيل فلا يفهم أحد شيئًا منها.

شمبوليون يحل رموز الكتابة المصرية

ظل العلماء متحيرين وقتًا طويلًا من تلك الألغاز المسطرة على الآثار المصرية والتي لم يستطع أحد منهم قراءتها. ثم جاء الشاب الفرنسي جان فرانسوا شمبليون (Jean Francois Champollion) وصمم على التغلب على هذه المعضلة وبدأ ينجح في ذلك بعد سنوات من الفشل المر. وكان عالم الطبيعيات الإنجليزي توماس يونج (Dr. Thomas Young) قد اكتشف أسماء بطليموس وكليوباترا مكتوبة بالهيروغليفية فاستطاع شمبوليون بالاستعانة بهاذين الاسمين أن يحدد أصوات اثنى عشر من العلامات التي ثبت أنها علامات أبجدية ورأى شمبوليون أنه يستطيع قراءة بعض أسماء الملوك الآخرين وفي عام ١٩٢٢ أرسل خطابه المشهور

إلى الأكاديمية الفرنسية معلنًا اكتشافه[١] وموضحًا الخطوات التي اتبعها حتى وصل إليه.

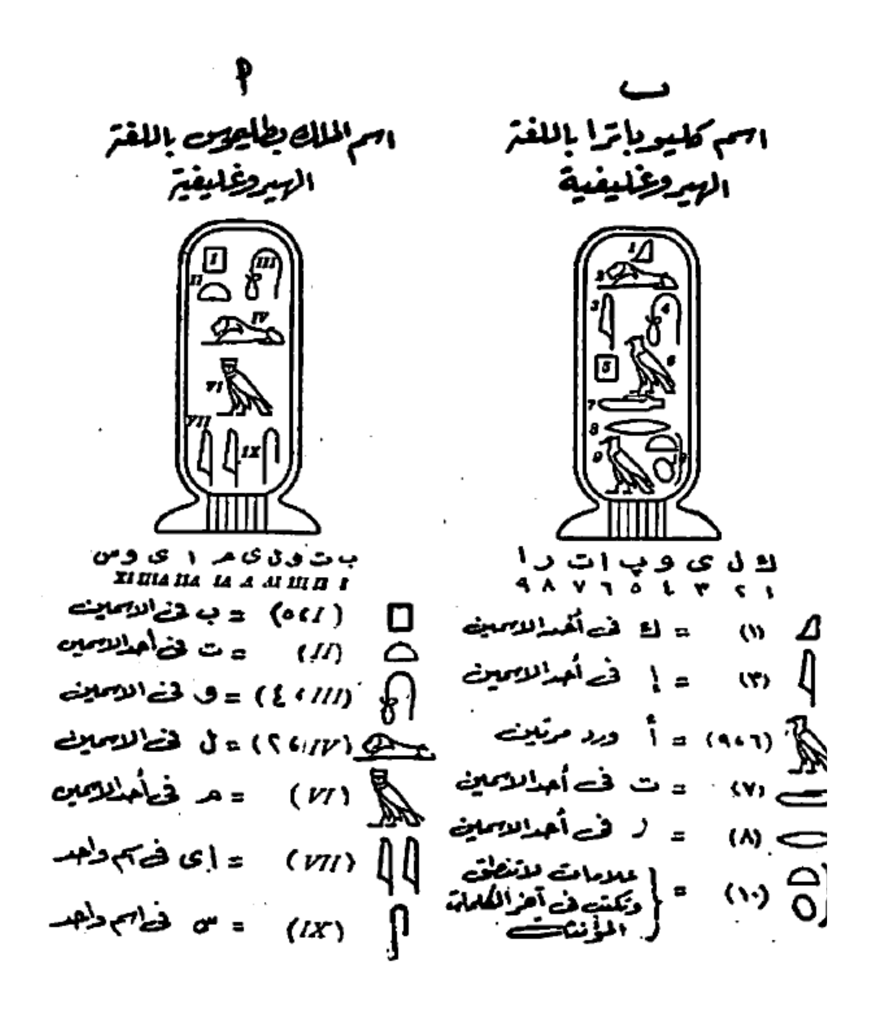
ولم يكن في استطاعة شمبوليون أن يستفيد من حجر رشيد قبل أن يصل إلى هذا الحد في أبحاثه، وبعبارة أخرى لم يكن حجر رشيد هو المفتاح الأول الذي استعمله شمبوليون في حل رموز اللغة الهيروغليفية، بل إن حجر رشيد في الواقع هو الذي ساعده على زيادة محصوله من معرفة العلامات الهيروغليفية في وقت قليل كما ساعده أيضًا على معرفة معاني الكلمات وتراكيب الجمل، ومات شمبوليون في عام **١٨٣٢** ولكنه استطاع قبل أن توافيه منيته أن يكتب أجرومية صغيرة وأن يعد قاموسًا صغيرًا لغة الهيروغليفية.

وما زال ينقصنا الكثير لنقول أننا عرفنا كل ما يتعلق باللغة الهيروغليفية وكتابتها، ولكن المجهودات العظيمة التي توصل إليها شمبوليون وضعت الأساس الذي قام عليه العلم الجديد الذي نسميه الآن علم الدراسات المصرية القديمة (Egyptology). وهذا العلم أعاد للعالم كتابة

---

(١) وجد شمبوليون مسلة مكتوب على قاعدتها نص يوناني يذكر أنها مسلة أحد البطالمة وزوجته المسماة كليوباترا وكان على المسلة نفسها مقش باللغة الهيروغليفية، فكان من رأيه أن هذا النص يجب أن يحتوي على اسمي بطليموس وكليوباترا. وكان قد سبقه باحثون قالوا بأن تلك الخانات البيضاوية الشكل التي يكثر تكرارها على الآثار المصرية بيست إلا أسماء الملوك. ورأى شمبوليون أنه يوجد في نقش المسلة اثنان من هذه الخانات البيضاوية وأنه يجب أن يكون أحدهما اسمه بطليموس والثاني اسم "بتو ليايوس وكليوباترا" وخرج من أبحاثه باكتشاف حل لرموز الكتابة المصرية.

فصل من تاريخ البشرية في مدى ثلاثة آلاف عام ومكن الآثار المصرية من أن تقص علينا القصة المدهشة التي أوصلت الإنسان إلى الحضارة.



شكل ٥٢: رسم يمثل الخطوات الأولى في حل شمبوليون للغة المصرية الهيروغليفية

وكما توصل شمبوليون إلى حل رموز اللغة المصرية تمكن علماء آخرون بطرق مشابهة لطريقة شمبوليون من حل رموز الكتابات التي

انتشرت في طول وادي دجلة والفرات في آسيا وأخذت آثار تلك البلاد تقص علينا هي الأخرى كيف خرج سكان غرب آسيا من حالتهم البدائية فعرفوا الصناعات وعرفوا أيضًا استعمال المعادن ووصلوا إلى استنباط طريقة للكتابة ثم ارتقوا إلى أن أصبحوا قوة عظيمة في العالم القديم.

ولنترك الآن قصة مصر وننتقل في الفصل التالي إلى قصة التاريخ المبكر في الشرق الأدنى في آسيا.

الفصل الخامس

غرب آسيا - بلاد بابل

أقطار وأجناس آسيا الغربية

إن أهم مكان سكنه الانسان في غربي آسيا هو ذلك الجزء المحصور بين الجبال في الشمال والصحراء في الجنوب، وهو يكاد يكون حدودًا تفصل هاتين المنطقتين وساعدتها الطبيعة لأن تصبح أرضًا منزرعة، وذلك المكان هو ما نسميه الهلال الخصب[1] لأنه يكون شكلًا نصف دائري على وجه التقريب.

ويرتكز حرفه الغربي في جنوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، ووسطه فوق شبه جزيرة العرب ويرتكز حرفه الآخر عند الخليج الفارسي وخلف ظهر هذا الهلال تقوم الجبال المرتفعة، وعلى ذلك تكون فلسطين عند نهاية الجزء الغربي منه وبلاد بابل في الجزء الشرقي بينما تكون بلاد أشور جزءًا كبيرًا من وسطه.

وهذا الهلال الخصيب ليس إلا امتداد لصحراء العرب، وهو يشبه شواطئ جون صحراوي تحيط به الجبال، ولكن هذا الجون ليس مملوءًا بالمياه ولكنه مملوء برمال الصحراء التي تمتد نحو خمسمائة ميل.

---

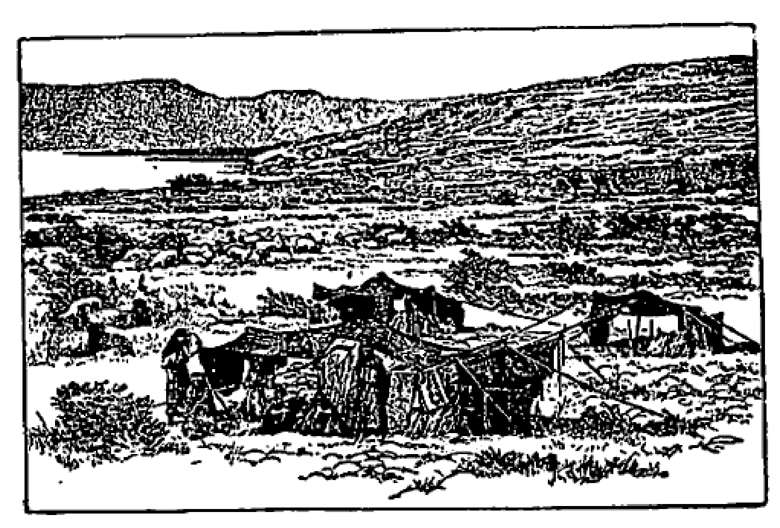
(١) لا يوجد اسم جغرافي أو سياسي يطلق على البلاد التي تتجمع في نصف هذه الدائرة، ونحن مضطرون عند الحديث على هذا الجزء من الناحية التاريخية كوحدة أن نجد اسمًا له ولهذا أطلقنا عليه في كتابنا المقرر على طلبة المدارس الثانوية Ancient Times (Boston 1916) اسم الهلال الخصيب وأصبح هذا الاسم منذ ذلك العهد شائع الاستعمال.

وفي أيام الربيع بعد ما تسقط مياه الأمطار تتحول مناطق كثيرة من هذا الجون الصحراوي إلى أرض مغطاة بالحشائش يتنازع عليها سكان الجبال وسكان الصحراء، كل يريد امتلاك ما يقدر عليه ويتصارع كل منهما على الفوز به، وهذا الصراع ما زال يحدث إلى اليوم وكان يحدث في جميع الأزمان بل إن تاريخ غرب آسيا إلا تاريخًا للصراع بين سكان الجبال وسكان الصحراء.

وحرمت الطبيعة بلاد العرب من الأنهار ولا تسقط فيها الأمطار إلا مدة أسابيع قليلة في وسط الشتاء ولهذا فإن أكثر مساحتها أراض صحراوية وليس فيها إلا جزء صغير يمكن للناس أن يعيشوا فيه بصفة دائمة.

ومنذ أقدم الأزمنة حتى الآن كان سكان هذه المنطقة مجموعة من شعوب من الجنس الأبيض اسمهم الساميون، وهم الآن– كما كانوا دائمًا– ينقسمون إلى قبائل متعددة لم تتحدد في تاريخا لمدة طويلة فتكون أمة واحدة متماسكة وتشبه في ذلك هنود أمريكا الذين ينقسمون إلى قبائل مختلفة يعرفون بها مثل السيوكس (Sioux) أو السيمينول (Seminole) أو الاريكوي (Iroquois).

ومن أهم قبائل هذه الشعوب السامية اثنان يعرفهما كل فرد حق المعرفة وهما العرب والعبرانيون الذين يعيش أحفادهم بين ظهر أنينًا في أمريكا.



شكل ٥٣: بدو ساميون من سكان الهلال الخصيب على مقربة من بحر الجليلية

يستطيع هؤلاء البدو أن يحملوا خيامهم المصنوعة من وبر الجمل الداكن اللون من مكان إلى آخر حيث يجدون أماكن جديدة للمرعى.

ويتكلم هؤلاء العرب والعبرانيون حتى الآن لهجات لغة واحدة في الأصل. وما زال العرب إلى يومنا هذا يفعلون ما فعلوه أجيالًا طويلة، يسيرون وراء المرعى في بلاد الجزيرة العربية وما جاورها. وعندما تجف الحشائش على حافة الصحراء كان هؤلاء البدو، منذ أقدم الأيام، يتركون رمال البيداء ليقيموا على حافة الأراضي المنزرعة، فإذا أمكنهم أن يثبتوا أقدامهم ينقلبون على مدى الأيام من حياة البدو الرحل إلى حياة الزراعة، وكثيرًا ما كانوا يهاجرون إلى المناطق التي على حافة الصحاري في جموع كبيرة. جموع تعيش حياة أقرب إلى حياة الهمجية. وكانت تنزل على تلك البلاد كما ينزل السيل. ويتركون الصحراء ويذهبون إلى المدن لا يلبثون حتى يطغوا على من فيها من سكان، وقد تكرر ذلك مرات عدة خلال

آلاف السنين نذكر منها هجرة العبرانيين إلى فلسطين كما تصفها التوراة وغزو جحافل العرب لمن جاورهم من الشعوب بعد اعتناقهم للدين الإسلامي، ووصلت فتوحاتهم إلى أوروبا وكادوا يطوقون البحر الأبيض المتوسط. فإن تلك القبائل السامية التي خرجت للغزو واستقرت في البلاد المختلفة على هيئة جاليات ثم أخذت تنتشر نحو الغرب على طول البحر الأبيض وشمال أفريقيا إلى أن وصلت إلى أسبانيا والمحيط الأطلنطي، ولكن لم يتم وصلوهم إلى الاطلنطي إلا بعد قرون عديدة، ولنقصر الآن حديثنا على الساميين في الصحراء ونبدأ بهم.

ففي فيافي الصحراء لا يعرف الناس حدودًا معينة، والمرعى مباح لأول قادم، مثل الهواء لا يمتلكه أحد. فليس بين رجال القبيلة الواحدة من يمتلك أرضًا، أو فيهم من يقال أنه غني لأنه صاحب أرض واسعة أو فقير لأنه لا أرض له. ولا يعرف أهل الصحراء قانونًا، فإن البدوي ذا العين الفاحصة يرمي ببصره نحو التلال التي أمامه ناظرًا إلى قطعان القبيلة الأخرى ويتمنى لو تصبح ملكه، وهو يعلم أن ذلك يصبح محققًا لو أنه ذهب وقتل الراعي الذي يجلس على مقربة من البئر، ولكن يمنعه من ذلك علمه بأنه لو أقدم على ما فكر فيه فإنه سيجلب الموت أو الدمار لأهله، وأن دم هذا الراعي لن يذهب هدرًا، وسينتقم أهل هذا الراعي له دون أن ينتظروا من الحكومة أن تفعل شيئًا لأن عادة الأخذ بالثأر مرعية الجانب بينهم وتوقف كل شخص عند حده ولها ما للقانون من أثر رادع.

وفي مثل تلك البيئة لا يمكن أن تقوم دولة لأنه لا يعرف أحد الكتابة أو حفظ المستندات وتكاد الصناعات أن تكون معدومة.

ويحيا رجال القبائل في الصحراء حياة حرية مطلقة. وليس للحكومات القائمة في بلاد العرب اليوم سلطة تامة على البدو الذين ينتقلون من مكان إلى مكان في تلك البادية المترامية الأطراف، وتشبه سلطتها عليهم ما كان للسلطة الأمريكية من نفوذ على رعاة البقر الذين لم يردعهم قانون.

وينتقل رجال هذه القبائل ومعهم قطعان أغنامهم على حافة الهلال الخصيب حتى تلوح لأعينهم مدينة من المدن تحف بها أشجار النخيل فيذهبون إليها ويقصدون سوقها ليشتروا السلاح والثياب وبعض الأدوات التي لا يستغنى عنها البدو. وتعلم هؤلاء البدو منذ وقت بعيد نقل السلع من مكان إلى مكان فأصبحوا الناقلين للتجارة بين مدينة وأخرى، ثم تقموا بعد ذلك فصاروا أصحاب التجارة، يتاجرون لحسابهم الخاص ويسافرون دون خوف أو وجل في ذلك المتسع العظيم من الصحراء الذي يفصل بين سوريا وفلسطين وبابل. وأصبح هؤلاء المتسع العظيم من الصحراء الذي يفصل بين سوريا وفلسطين وبابل. وأصبح هؤلاء البدو أعظم التجار في العالم القديم كما أصبح أحفادهم العبرانيون أعظم التجار في أيامنا هذه.

والبرية وطن البدوي، اعتاد على الحياة فيها وحيدًا فصبغت روحه بالوقار، وملأت خياله بكائنات لا يراها ولكنه يخشاها، واعتقد أن تلك

الكائنات سكنت في كل شجرة أو صخرة وفي كل مرتفع أو عند مورد المياه. وكانت تلك المخلوقات هي آلهته التي اعتقد أن في استطاعته التغلب على أذاها إذا ما تمتم ببعض الألفاظ التي فيها قوة سحرية. كانت تلك التعويذات هي أقدم أنواع الصلاة، وكان البدوي يعتقد أنن تعويذاته تضمن له أن تلك الآلهة لا تصيبه بأذى بل ويذهب إلى أبعد من ذلك فيعتقد أنها تجبر هؤلاء الآلهة ليقدموا له المعونة.

وتصور البدوي أن سلطة كل كائن من هذه الكائنات كانت تمتد على مكان محدودة في هذا الكون المترامي الأطراف، مثل بئر وما حوله من مراع، أما البئر التالي والذي لا يبعد أكثر من مسيرة يوم واحد فإنه كان تحت سلطان إله آخر القبيلة أخرى. لأنه كان لكل قبيلة إلهها الذي يعبده أفرادها، وكان هذا الإله يسير مع أفراد القبيلة إينما ذهبوا يشاركهم في طعامهم وفي أعيادهم ويقدم له كل شخص أول ما تلده إناث ماشيته وأغنامه. ولم ير ذلك البدوي المتنقل في إلهه إلا إلهها ذا خلق فج محب للقسوة وله عادات همجية طالما حملته على ذبح أبنائه ليرضيه ويتقي غضبه، ومن ناحية أخرى آمن هذا البدوي في قراره نفسه بالعدل والحق وكان يؤمن بأن واجبه يحتم عليه أن يكون عطوفًا على زملائه واعتقد أن ذلك من مر الله، وأخيرًا أصبح هذا الشعور نظرية خلقية عالية.

وفي عام ٣٠٠٠ ق.م كان الساميون قد أخذوا يتوافدون من الصحراء ليستقروا في فلسطين في الجزء الغربي من الهلال الخصيب ولم يأت عام ٢٥٠٠ ق.م حتى نراهم يعيشون في مدن تحيط بها الأسوار. هؤلاء هم

الكنعانيون أسلاف العبرانيين، وكان هناك ساميون آخرون استوطنوا في الشمال وفي الشرق أشهرهم الأكديون ثم العموريون فيما بعد. أما الفينيقيون فاستوطنوا الشاطئ الشمالي لسوريا، وكان هؤلاء القوم بدوًا رحلا كغيرهم ولكن لم يلبثوا حتى أخذوا يجوبون البحار وأصبحت ميناء جبيل Byblos من أقدم مواني فينقيا وأهمها. وكانت غابات الأرز تتوج الجبال التي تقع خلفها، وكان خشب هذه الأشجار ثمينًا، وكان المصريون يحرصون على الحصول عليه مما حملهم على إنشاء الصلات التجارية بينهم وبين امرأة جبيل قبل عام ٣٠٠٠ ق.م.

وما وافى عام ٢٠٠٠ ق.م. حتى كان الساميون الذين عاشوا في الجزء الغربي من الهلال الخصيب قد وصلوا إلى درجة غير قليلة من الحضارة استدوا أكثرها من مصر وبابل، لأن هذه البلاد التي تقع على طول الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط كانت في الطريق الذي يربط بين تلك المملكتين، ولهذا كانت دائمًا على صلة بكل منهما.

وإذا كان الساميون قد غزوا الهلال الخصيب من جنوبه أي من ناحية الصحراء، فإن سكان الجبال غزوه أيضًا في شماله واتخذ بعضهم لنفسه موطنًا فيه. ولم يكن هؤلاء الجبليون من الجنس السامي ولكنهم كانوا على حال من فروع مختلفة من الجنس الأبيض، وقد تطاحن هؤلاء الجبليون مع القبائل السامية قرونًا طويلة متنافسين على امتلاك الهلال الخصيب.

ونشات أقدم الحضارات في آسيا الغربية في الطرف الشرقي من الهلال الخصيب في وادي نهري دجلة والفرات اللذين سنطلق عليهما من الآن اسن "الرافدين" ويبدأ هذان النهران في الجبال الشمالية ثم يصلان إلى الهلال الخصيب ثم ينحني مجراها متجهًا نحو الجنوب الشرقي. وفي هذا المكان من بلاد الشرق أي على شاطئ الرافدين يمكننا أن نتبع تاريخ بعض الشعوب القديمة في مدى بضع آلاف من السنين، ونرى تطور مدنتها.

وينقسم تاريخ دجلة والفرات إلى ثلاثة فصول، أقدمها تاريخ بابل في الجنوب عند مصب النهرين. وعلى بعد ثلاثمائة وعشرين ميلًا تقريبًا من الخليج الفارسي[1] أي عند المكان الذي يقترب فيه النهران من بعضهما، نرى هذين النهرين وقد تركا المناطق الصحراوية في الشمال ويبدآن سيرهما في وادي واطئ خصب التربة كونته رواسب النهرين. وذلك هو الوادي المسمى أرض بابل الذي يكون الحد الشرقي للهلال الخصيب.

ولم تكن مدينة بابل ذات أهمية أثناء الألف سنة الأولى من تاريخ تلك البلاد وورد اسم الوادي في التوراة تحت كلمة "شنعار" وسنستعمل هذا الاسم عند الحديث على العصور القديمة لتلك البلاد لأن اسم بلاد بابل لم يصبح علمًا على الجزء الشرقي من الهلال الخصيب إلا في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، فإننا إذا أصررنا على استعمال كلمة بلاد بابل

---

(1) يصب مهرا دجلة والفرات في الخليج الفارسي ويحملان معها رواسب تملأ هذا الخليج عاما بعد عام. ومنذ الأيام الأولى في تاريخ بابل حتى الآن ملأ النهران من هذا الخليج مسافة ن١ ميلًا تقريبًا.

فإننا نكون كمن يطلق اسم فرنسا عند حديثه على بلاد الغال في أيام يوليوس قيصر.

وسهل شنعار لا يكاد يزيد عن أربعين ميلًا في العرض، وتقل مساحته عن ثمانية آلاف كيلو متر مربع من الأراضي الصالحة للزراعة أي ما يقارب ولاية نيوجرسي في الولايات المتحدة الأمريكية أو بلاد ويلس في إنجلترا. ومناخها يتبع مناخ البحر الأبيض المتوسط أي تسقط فيه الأمطار أثناء الشتاء فقط ثم تليها شهور الجفاف في الصيف وكمية الأمطار ضئيلة وهي أقل من سبع بوصات في السنة[١] ولهذا تحتاج إلى الري لينضج المحصول. وإذا وجد سهل شنعار من يعني بشئون الري فيه فإنه يصبح من أجود الأراضي، وكانت الزراعية هي المصدر الرئيسي للثروة لسكانه في الأزمنة القديمة.

أقدم الحضارات الهامة في وادي الرافدين

"السومريون"

اثبتت الاكتشافات الأثرية أن أقدم الحضارات الهامة في وادي الرافدين تطورت على يد قوم غير سامي الأصل، لم نعرف جنسهم الأصلي على وجه التحديد حتى الآن، وهم يسمون السومريون لأن المنطقة التي كانت لهم السيادة فيها من بلاد الرافدين كانت تسمى "سومر".

---

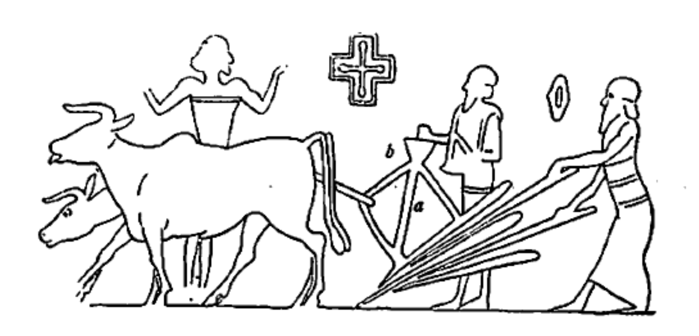
(١) مقدرة على حسب التقارير الإنجليزية في السبعة والثلاثين عامًا التي تبدأ من عام ١٨٨٧ وتنتهي في عام ١٩٢٤.

ومن المحتمل أن هؤلاء السومريون كانوا قد بدأوا في تجفيف المستنقعات التي كانت عند رأس الخليج الفارسي قبل عام ٣٥٠٠ ق.م. وأخيرًا امتدت قرى أكواخهم المبنية من الطوب اللبن من المنطقة الواقعة فوق بغداد الحالية حتى مصب النهرين وبخاصة على شاطئ الفرات لأن مياه دجلة واطئة كثيرًا عن الأراضي المنزرعة.

وتعلم السومريون كيف يحافظون على مياه العيون بعمل جسور لها، كما عرفوا أيضًا توزيع المياه في قنوات الري، وعرفوا حصاد محاصيل الحبوب. وكانوا في تلك الأيام يزرعون الشعير والقمح وامتلكوا الماشية والضأن والماعز. ولعبت هذه الحيوانات دورًا كبيرًا في حياتهم إلى الحد الذي جعلوا فيه إحدى آلهتهم الهامة على شكل بقرة واعتقدوا أنها تحمي قطعان حيواناتهم. وكان لهذه الآلهة معابد كشف عن واحد منها على مقربة من مدينة "أور" منذ عهد قريب وعثر فيه على نقوش على الأحجار نرى من بينها مناظر صناعة الألبان لدى السومريين، كما نرى فيها مناظر تمثل الثيران تجر المحراث أو الثيران والحمير(١) تجر العربات ذات العجل أو المركبات، ووقد رسمت المركبات مزودة بعجلات متينة حولها إطار من الجلد أو النحاس كما كشفت الحفائر عن بقايا مهشمة منها.

---

(١) يوجد على بعض الآثار السومرية رسم لحيوان غريب الشكل اختلف في وصفه كحصان أو كبغل أو كحمار آسيوي متوحش.



شكل ٤١: آلة بابلية قديمة لبذر الحبوب

نرى في هذا الشكل رسم آلة يجرها ثوران يمشي سائقهما إلى جوارهما. ونرى خلف السائق رجلًا يمسك بكلتا يديه هذه الآلة التي تحفر بسنها المدبب في الأرض وتخط فيها عند سيرها. وفوق سن المحراث قناة رأسية (أ) في أعلاها قمع (ب) وإلى جانب الرجل الذي يقود هذه الآلة نرى شخصًا ثالثاً يسير بجواره يلقي باصدي يديه حبوبًا من القمح في القمع بينما يضع يده الأخرى في غرارة للحبوب معلقة في كتفيه. وكانت الحبوب تنزل من القمح إلى القناة ومنها إلى الخندق الذي حفره السن المدبب للآلة. هذا الرسم منقوش على إناء حجري صغير (نقلا عن كلاي).

وعرف السومريون صناعة المعادن في وقت مبكر وكان من بينهم صناع مهرة عرفوا كيف يطرقون النحاس وعرفوا طريقة صبه، ونرى من تحليل بعض أدواتهم أنها تحتوي على نسبة عالية من الصفيح مما جمل بعض الباحثين على القول بأنهم عرفوا في وقت مبكر صناعة البرونز وهو أكثر صلابة من النحاس.

وصنعوا من النحاس أسلحة وآلات، وأدوات للزينة وغيرها كما صنعوا أيضًا تماثيل للمعبودات، وإلى جانب النحاس توصلوا أيضًا إلى معرفة الذهب والفضة والرصاص. وكونت الزراعة وتربية الماشية الجزء الأكبر من الثروة التي كانت أساسًا للحياة السومرية، ومع ذلك لم يأل السومريون جهدًا في التقدم بصناعاتهم ولم يقف بهم الأمر عند حد الموارد الميسورة لهم بل استوردوا الخامات من بلاد أخرى، وساعدهم صوف الأغنام على تطور صناعة النسيج والحصول على ملابس صوفية بالرغم من أن الأزار الذي نراه حول وسط السومريون في الرسوم كان على الأرجح من جلد الغنم.

ونشطت تجارة هؤلاء الناس مع غيرهم من أمم آسيا الغربية وكانت سلعهم التي حملوها إلى تلك البلاد عبارة عن الأدوات المصنوعة من المعدن والبضائع الصوفية وبعض الحاصلات الطبيعية كالبلح والحبوب كما أثبتت الأبحاث أن هذه التجارة وصلت غربًا حتى البحر الأبيض المتوسط وشرقًا إلى مصب نهر السند وقد قام الدليل بصفة قاطعة على وجود الصلة التجارية مع وادي السند[1] من العثور في خرائب المدن القديمة في سهل

---

(1) كشفت حفائر السير جون مارشال (Sir John Marshall) اليت قام بها لحساب مصلحة الآثار الهندية في السند والبنجاب عن وجود بقايا حضارة مبكرة يرجع تاريخها إلى عام ٢٥٠٠ ق.م. وكان في هذه المدن منازل مكونة من طلقين على الأقل ومبنية بالطوب الأحمر، وكان في هذه المنازل حمامات وكانت فيها أنظمة دقيقة لتصريف المياه. وكانت بعض الحيوانات تجر مركبات على عجلتين واستعملوا الفيلة الاليفة في حمل الأثقال. وبالرغم من أن النظام الاقتصادي لوادي السند قام على الزراعة فإن الصناعة كانت مزدهرة وقام صناع المعادن بصنع أدوات من النحاس جعلوها أواني وأوعية من الفضة. وعرفوا أيضًا التزجيج وأظهروا فيه بعض المهارة. وصنعوا اختامًا حفروها بمهارة ودقة تثبت لنا أنهم عرفوا الكتابة.

وكان سكان وادي السند معنيين إلى حد كبير بالتجارة ولا بد أن قوافلهم كانت ترحل نحو الشرق بصفة منتظمة مخترقة تلال يلوخستان حيث عثر العلماء على مدن شبيهة بمدن وادي السند.

شنعار على أختام وأوان وحرز من صناعة سكان وادي السند القدماء. أما في ناحية الغرب فإن تجارة بلاد الرفدين كانت تتلاقى وتتداخل مع تجارة مصر في بلاد شرقي البحر الأبيض المتوسط، ومن المحتمل جد أنها كانت تصل إلى مصر نفسها. ولا شك أنه كانت هناك صلة بين مصر وبلاد الرافدين، لأن كلا من الحضارتين كانت تخرج أشياء مصنوعة متماثلة الطراز وذات أشكال خاصة، مثل دبوس القتال الذي على شكل الكمثرى، والأختام الاسطوانية واستعمال حيوانات مرتبة في أشكال خاصة في الفن الزخرفي في كل من الحضارتين.



شكل ٥٥: ختم عثر عليه في دلتا وادي السند (الألف الثالث ق.م)

لا يزيد حجم هذا الختم عن بوصة مربعة، وهو أدق عمل فني وصل إلى أيدي علماء الآثار من حفائر وادي السند، ويمكن اعتباره من آيات

وقد عثر العلماء في حفائرهم، في آسيا الغربية على آثار تثبت أن هذه التجارة قد امتدت إلى الربع الشمالي الغربي أي إلى البلاد الواقعة حول شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

الصناعة الدقيقة في الحضارة القديمة. ونرى على هذا الختم رسمًا غاية في الدقة لثور براهما واسمه "زبو" وفوق الثور كتابة لم تحل رموزها إلى الآن. (رسم عن صورة فوتوغرافية من كتاب مارشال).

وقادت التجارة وإدارة الحكومة هؤلاء السومريين في عصر مبكر إلى إثبات بعض البيانات بواسطة حفرها حفرًا سطحيًا بالجزء المدبب من نبات الغاب فوق سطح مستو لقطعة من الطين في الشمس جفت وأصبحت صلبة، فإذا ما وضعوها بعد ذلك في فرن لحرقها فإنها تصبح لوحة فخارية تكاد لا تتعرض للفناء، وأبقت الأيام على بعض اللوحات الفخارية التي يرجع تاريخها إلى أقدم العهود ونستطيع أن نميز بسهولة الصورة الأصلية لبعض العلامات التي جاءت في كتاباتهم، ونحن نسمي الآلة التي كتبوا بها على الطين بالقلم (Slylus) وكان بعض هذه الأقلام يصنع من شرخة صلبة من نبات الخيزران ولكن بعضها كان من العظم أو الخشب.

وفي بعض النقوش نرى كاتبًا وفي يده قلم، وكان مثل هذا الكاتب لا يحفر خطوط صورة وإنما كان يلتجئ إلى طريقة أخرى، فإذا أراد مثلًا أن يرسم خطًا فإنه كان يرفع قلمه ثم يضغط على حافته فيغمسها في الطين ثم يرفعه مرة ثانية ويضع حافته مرة أخرى إلى جانب الأولى وهكذا، وإذا تأملنا شكل القلم نجد حافته على .....

	A	B	C	D	E
	الرسم الأصلي	الرسم كما كان يكتب في السومري القديم	بابلي قديم	اشوري	المعنى الأصلي او المشتق
1					طائر
2					سمكة
3					حمار
4					ثور
5					شمس يوم
6					حب
7					بستان
8					يحرث يعزق
9					عصا رماية رمي الى الارض
10					يقف يذهب

شكل ٥٦: رسم يوضح الصورة الأصلية لعشرة من العلامات المسمارية (جمعها ورسمها الأستاذ أرنر بويبل)

.... شكل يشبه المثلث أو المسمار لأن رأسه أعرض من الناحية الأخرى، وكانت كل علامة أو صورة تكتب بمثل ذلك القلم تصبح مجموعة من علامات مركبة من خطوط يشبه كل منها المسمار نسمى هذا النوع من الكتابة مسمارية نظرًا لشكلها (مسمارية ترجمة لكلمة Cuneiform

وأصلها من Cuneus اللاتينية ومعناها مسمار) ولم يطل الزمن حتى أخذت الصور المرسومة بهاذ النوع من الكتابة تبعد عن شكلها الأصلي فتصعب معرفتها حتى جاء الوقت الذي لم يعد للشبه بين العلامات المكتوبة وأشكالها الأصلية أي وجود.

ووصل الأمر بالكتابة السومرية أن أصبحت تحتوي على ستمائة علامة منها علامات معنوية ومنها علامات صوتية، وكانت الأولى تمثل الآراء أو الأشياء والثانية تمثل الأصوات، وكانت تستعمل كمقاطع في الكلمات وكانت بعض الكلمات تتكون من أكثر من علامة صوتية يضاف إليها في أغلب الأحيان علامات معنوية لتكون مخصصة لها. ولم يتطور عن هذه الطريقة السومرية أبجدية حروف لتحل محل المقاطع أي أنه كانت هناك مقاطع مثل "كر"، "بن" ولكن لم توجد علامات للحروف ك أ و ر أ و ب أ و ن التي كونت هذه المقاطع، ولهذا لا يمكننا أن قدم للقارئ أبجدية كما فعلنا عند حديثنا على الكتابة المصرية[١].

وترينا تلك المدونات التي على الطين أن السومريين اعتادوا أن يبدأوا شهورهم مع كل قمر جديد وأن السنة كانت تتكون من اثني عشر شهرًا قمريًا، ولما كانت مدى الإثنى عشر شهرًا قمريًا تقل في طولها عن السنة الحقيقية، فإن الكاتب السومري اعتاد أن يضيف على السنة شهرًا إضافيًا كلما وجد أنه وصل إلى نهاية السنة التقويمية قبل الفصول بشهر أو ما يقرب منه.

---

(١) اقرأ قصة حل رموز اللغة المسمارية في الفصل السابع من هذا الكتاب.

وورث اليهود والفرس هذا التقويم الخاطئ غير العملي وما زال سائدًا بين يهود الشرق والمسلمين. ولم يكن السومريون يعدون السنين بل كانوا يفعلون ما فعله المصريون في مستهل حضارتهم، وهي تسمية كل سنة باسم حادث هام وقع خلالها.

وكان للسومريين نظام في حساب الأعداد يخلط بين النظامين العشري والستيني، وكان لديهم علامات لرقم واحد والعشرة وللستين، وكانوا يضعون هذه العلامات حسب قيمتها، كما نضع أرقامنا، ولكن حسب ترتيبها في أرقام مفردة وعشرات وستينات، بدلًا من أرقام مفردة وعشرات ومئات، ولكنهم لم يعرفوا الصفر.

أما وحدتهم الأساسية في الموازين فهي ال"مينا" وتنقسم إلى ستين "شكل" وكل ستين "مينا" تزن "تالنت"، وظلت هذه الأوزان سائدة في العالم القديم حتى أيام اليونان وكانت المينا تزن رطلًا من أوزاننا الحالية، إذ وصلت هذه الوحدة إلى العالم الغربي من صلته بالشرق.

وكان مركز الحياة والثقافة السومرية في المدن، وكان المعبد في المدينة هو نواة حضارتها والمركز الرئيسي فيها، يقوم في وسطها تحيط به الأسوار الضخمة التي تفصله عن باقي أجزائها، وفي داخل تلك الأسوار قامت أماكن العبادة ومخازن المعبد والمكاتب، يشرف عليها جميعًا الكهنة الأغنياء يعاونهم الكتبة الذين كانوا يؤجرون ويرعون أملاك المعبد. وقام المعبد مقام

البنوك لأن الكهنة كانوا يقرضون الناس باسم الإله، ويتقاضون الأرباح باسم الإله أيضًا.

وكان برج المعبد يعلو فوق كل المباني، وكان شكله على وجه التقريب مثل مكعب ولكن يقل عرضه كلما ارتفع. وحول هذا البرج ثلاثة مدرجات من سلالم ضخمة مبنية حول الجدران تصل بالزائر إلى الباب في منتصف البرج فوق باب المعبد، وفي بعض الأحيان كانوا يزرعون الأشجار في مستويات مختلفة حول هذا البرج، ينقلون إليها الطمي ويجعلون منها حدائق جميلة في مدرجات على ارتفاعات متعددة. وفي أعلى البرج معبد مربع الشكل، فيه بهو لا سقف له، وخلف البهو مكان مقدس ومن أهم المعابد ذات البرج تلك التي قامت في مدينة نبور (Nippur) لتكون حرمًا لإله الهواء "إنليل" (Enlil) مما جعل من مدينة نبور بلدًا ذا قدسية خاصة بين جميع المدن السومرية.

ولما كان هذا النوع من المعابد مبنيًا على شكل يجعل جوانبه تنحدر إلى الداخل كلما ارتفعت عن الأرض فتصبح قريبة الشبه بالجبال، وكان السومريون أنفسهم يسمونها "بيوت الجبال" فمن المعقول أن أهل شنعار أرادوا أن يبنوا لآلهتهم بيوتًا تليق بهم فوق جبال صناعية. وكان المعبد ذو البرج الذي بني في مدينة بابل فيما بعد سببًا لنشأة قصة برج بابل التي جاءتنا عن طريق القصص العبراني، ولا شك أن طراز تلك المعابد كان له

أثر رائع في نفس كل من وقعت عليه عيناه وكان نوعًا جديدًا في العمارة وصل إليه السومريون وأصبح ذا أثر كبير في الطرز المعمارية[1].

وكان يقوم معبدًا آخر إلى جوار المعبد ذي البرج، وكان هذا المعبد القليل الارتفاع هو المعبد الأساسي وكان بسيطًا في نظامه إذ لم يحتو إلى على بهو يليه الهيكل وكان الفلاحون يأتون إلى هذا الهيكل القائم تحت ظل المعبد ذي البرج يحملون قرابينهم من الحبوب والبلح والتين والزيت واللبن والعسل وكذلك بعض الحيوانات وكانت توضع هذه الأشياء فوق موائد القرابين وكان يؤخذ جزء منها ليكرس أمام الإله بعبارة أخرى أمام تمثاله.

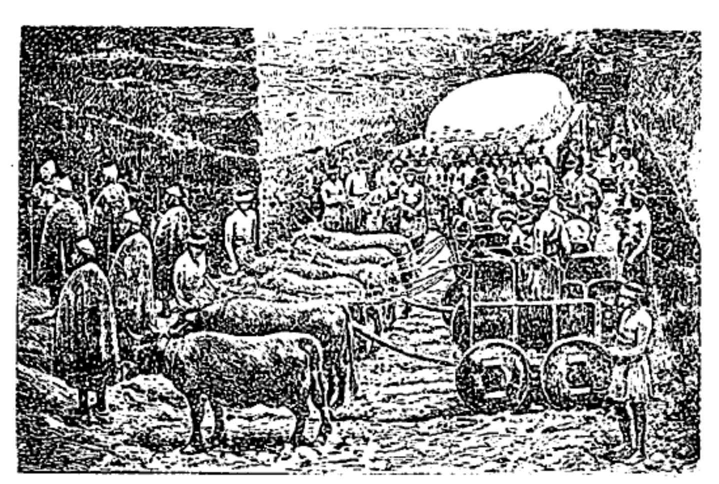
وفي خرائب هذه المعابد عثر الأثريون على أنواع كثيرة من الأدوات التي كانت تستعمل في العبادة وعلى الأواني التي كانوا يضعون فيها المسائل ليصبوها على القرابين أثناء الصلوات، كما عثر الأثريون أيضًا على مناظر يرجع تاريخها إلى ذلك العصر وعرفنا من دراستها، أنه كانت تقوم في تلك المعابد احتفالات ذات معاني رمزية.

---

(1) لم يبق إلا القليل من بقايا تلك الأبراج البابلية واختلفت الآراء في معرفة شكلها الأصلي معرفة لا يدخلها شك. وقبيل الحرب العالمية (الأولى) عثر مرة أخرى على لوحة مسمارية من عصر متأخر سر عليها أبعاد برج بابل.

وتمكن كولدوي Koldway الذي قام بحفر خرائب مدينة بابل ووجد القاعدة المربعة للمعبد أن يرسم رسمًا تخيلًا لما كان عليه المعبد ذو البرج عند بنائه، وساعده في ذلك عثور البعثة الأمريكية الإنجليزية تحت رئاسة الأستاذ وولي (C. I. woolley) على بقايا برج مماثل حفظت فيه أجزاء من مدرجات السلالم الثلاثة في مدينة "أور".

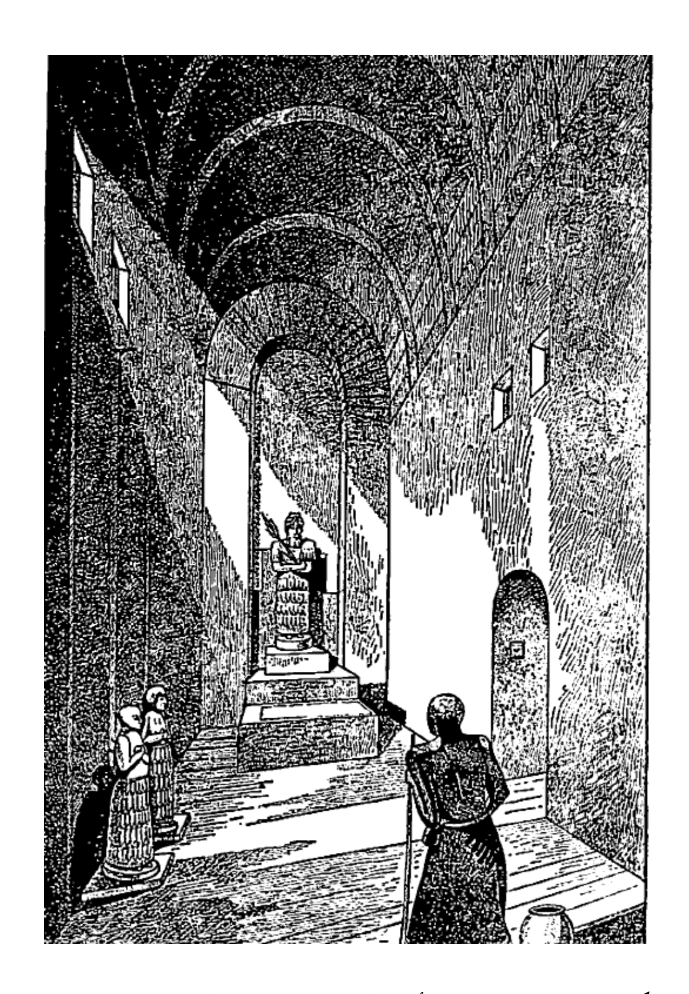
ومات كولدوي في أوائل عام ١٩٢٥ ووافق المشرفون على أعماله على السماح بنشر الرسم شكل ٧٠ في هذا الكتاب في الأصل الإنجليزي وهو رسم يمثل برج بابل كما كان في العصور القديمة ومما يجدر الإشارة إليه أن الاستاد وولي وزملاءه نشروا رسمًا فخمًا لمعبد أور كما كان في أيام السومريين.



شكل ٥٧: أهل بين أمير "أور" ينتظرون الموت على باب مقبرته

عثرت البعثة الإنجليزية الامريكية تحت رئاسة وولي أثناء حفائرها في أور على أجسام هؤلاء الرجال والنساء والحيوانات وما معهم من أشياء على باب مقبرة الأمير. وقد تمكن الفنان الحديث بارشاد الأثريين من أن يتخيل هؤلاء جميعًا وقد وقفوا على استعداد لقتلهم، وقف كل في مكانه الذي عثر فيه على جثته. وكان الاعتقاد السائد بينهم هو أن قتلهم على هذه الصورة يمكنهم من الانتقال إلى العالم الآخر ليظلوا في خدمة سيدهم هناك.

فمثلًا كانوا يضعون جريدة النخل ومعها بعض شماريخ البلح في إناء ثم يصبون فوقها الماء، والتفسير المحتمل هو أن ذلك يمثل فضل الإله على البلاد فهو يرسل الفيضان كل سنة في النهر لتبقى الزراعة في الأرض. ونحن نستطيع أن نفرض أنهم كانوا يقومون بعمل أمثال هذا الطقس الديني ووضع الهدايا والقرابين أمام آلهة الأرض وما عليها من نباتات ولآلهة الهواء والسماء والبحر ويصحبونها بأدعية ليأتي الماء وفيرًا ويكثر المحصول. ويدعون أيضًا أن تجنبهم الآلهة مصائب الفيضان المدمر مثل الفيضان الذي أرسله الإله مرة فخرب كل شيء، ذلك الفيضان الذي كان الناس يتناقلونه عن آبائهم وأجدادهم ووصلت أخبارة إلى العبرانيين.



شكل ٥٨: منظر داخلي في أحد المعابد البابلية من (الالف) الثالث ق.م.

من حفائر المعهد الشرقي بجامعة شيكاجو– صورة لما كان عليه المعبد في الزمن القديم– من رسم سيتون لويد (Seton Lioyd)

واختلفت ديانة السومريين عن ديانة المصريين في نقطة هامة. كان السومريون يدفنون موتاهم في أغلب الحالات تحت أرضية بهو المنزل الذي يعيشون فيه أو تحت إحدى الحجرات، ولو أنهم في بعض الحالات كانت لهم جبانات خارج المدينة. أما عقيدتهم في الحياة بعد الموت فإنها كانت

غامضة وكانوا يتصورون أن الموتى يعيشون في مكان مقبض تحت الأرض مليء بالظلام والتراب، يذهب إليه الناس جميعًا لا فرق بين صالح ومجرم، وانتشرت بينهم عقيدة بأنه إذا مات انسان فإنه سيحتاج في حياته الثانية إلى أهل بيته، فحرصوا على أن يضعوا معه ما يجنبه الحياة في العالم الآخر بدون خدم وحيوانات. وقد رأسنا في حفائر مقابر أمراء أور الأوائل جثث الحرس والخدم من رجال ونساء والثيران ما زال مشدودًا عليها في المركبات، قتلوها جميعًا على باب الدفن لتحلق بسيدها ولتستمر في خدمته بعد الموت.

وانتشرت بيوت الأهالي حول المعبد وكانت مستطيلة الشكل ومبنية بالطوب اللبن، وكان البيت– في أقدم العهود– يحتوي على قاعة رئيسية فيها أبواب توصل إلى الحجرات الأخرى. وفي العصور التالية كان يتوسط المساكن فناء غير مسقوف ولهذا كانت تلك المساكن ظليلة غير حارة ومناسبة لمناخ البلاد، وكان الضوء يغشاه من نوافذ على مقربة من السقف أو من أبواب ذات عقود عالية تفتح على فناء الدار أما المدن فكانوا يقيموها فوق أكوام صناعية، ولم يكن يزيد عرض إحداها عن بضع مئات الأقدام ولكنها اتسعت مع مرور الزمن وزاد عدد سكانها، ولكنها مع ذلك ظلت دائمًا محدودة ولم تنم واحدة منها نموًا كبيرًا كما نعهده الآن في المدن الهامة.

كان الطوب اللبن هو المدة الأساسية لجميع المباني العادية في العالم القديم، وكانت مساكن الفقراء في بلاد الشرق القديم، وما زالت حتى الآن،

تبنى بهذا النوع من الطوب، ويؤثر المطر كثيرا على جدران المساكن ولا تلبث أن تتهدم بل إن بعضها ينهار إذا أمطرت مطرًا شديدًا في يوم من الأيام. وإذا حدث ذلك في أيامنا الحاضرة فإننا نرى أن أصحاب خذا المسكن يسوون الأنقاض ويبنون مسكنًا جديدًا فوق مسطحها. وهكذا فعل من سبقوهم خلال آلاف السنين فأصبحت المدني بعد مرور القرون كومًا عاليًا من الأنقاض تعلوه البلدة التي يسكنها الناس. وفي كثير من بلاد الشرق ما زال السكان يعيشون فوق أنقاض مساكن آبائهم وأجدادهم، ولكن هناك أيضًا كثير منها هجره سكانه وأصبح أكوامًا خربة، نرى من أمثالها الكثير في جميع بلاد الشرق الأدنى مثل كوم طروادة في آسيا الصغرى، وتل مجدو في فلسطين ومدينة الفنتين في مصر.

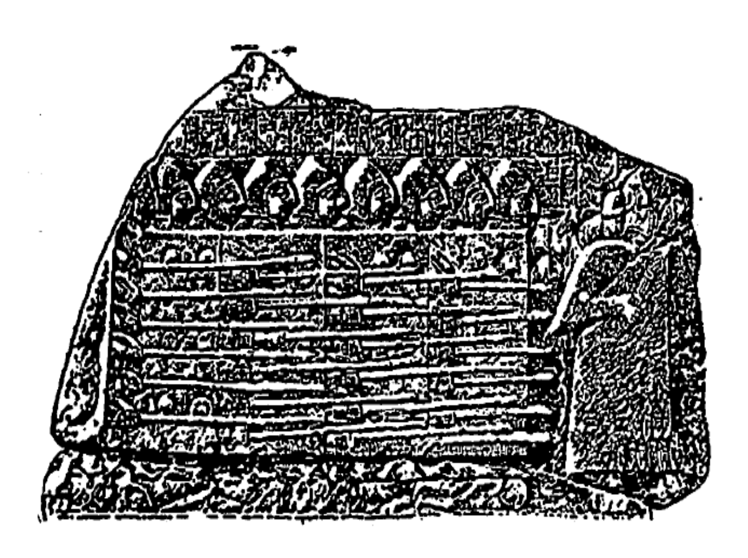
وكانت الرقم– أي اللوحات الطينية– التي تسجل حسابات المنزل والخطابات والمطالبات والإيصالات والمذكرات، تظل تحت أكوام المساكن التي تتهدم وتغطها أنقاض الجدران، أما المعابد والمباني العامة فإن الرقم التي تظل غيها كانت تحتوي في أغلب الحالات مدونات حكومية هامة، وفي مساكن الحكام وفي مكتباتهم توجد رقم تحوي قصص الحرب والغزو.

وكثيرًا ما كان يهتم أحد الحكام بتدوين وثائق تتعلق بتشييده للمعابد أو للقصور ووثائق عن انتصاراته وأعماله العظيمة، وكان يضع أمثال هذه الرقم في أساس مبانيه حتى يتسنى لمن يأتي بعده من الحكام أن يجدها، وليست هذه الرقم هي كل ما يمكن العثور عليه مدفونًا تحت تلك الأكوام بل غالباً ما يعثر الأثريون هناك أيضًا على قطع فنية منحوتة.

وتحت هذه الأكوام ما زالت بقايا المساكن البابلية ذاتها. ولكن الحجر لم يستعمل إلا نادرًا في مباني تلك المدن التي تهدمت. ومع هذا فإن كوم أي مدينة منها غني بما فيه وهو مستودع للحضارة البابلية القديمة.

فمن خرائب المدن السومرية، عرفنا كيف كانت الحياة في شوارعها المزدحمة وعرفنا أن أهم طبقات السكان هم الملاك الأحرار، الذين كانوا يملكون الأراضي التي يعمل فيها أرقاؤهم أو التجار الذين كانوا يملكون القوافل أو يرسلون بضائعهم في القوارب التي تغدو وتروح في النهر، هؤلاء هم الطبقة المتوسطة، ولكن الموظفين والكهنة كانوا الطبقة الارستقراطية في المدينة. وكانت كل مدينة من هذه المدن وما حولها من حقول، تمتد إلى مدى بضع أميال وتكون وحدة سياسية مستقلة أو ولاية يحكمها ملك، وتدلنا الوثائق المكتوبة وغيرها من الآثار على نوع الحياة التي كانت تسير عليها المدن السومرية القديمة، ونعرف منها أيضًا ما أحرزته من تقدم مدى أربعة قرون. وقد بدأت هذه الوثائق منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل عام ٣٠٠٠ ق.م.، وفيها نرى فضل الحكام السومريين على تلك المدن رغم ما كان يعانيه الناس من فداحة الضرائب وما سببه من ظلم، فقد كان حاكم المدينة ذا نشاط خاص في أيام الحرب، زيادة عما تفرضه عليه الواجبات الدينية الكثيرة ذات المظاهر المتعددة، وكان من أهم واجباته العناية بكل شئون الري، لأن القنوات والجسور كانت في حاجة مستمرة إلى الإصلاح فلو أهملت لتعرضت الحقول إلى الجفاف والمحاصيل إلى الضياع وتنتشر المجاعة بين الناس إذا توقف جريان المياه.

وتقص علينا هذه الوثائق قصة أكثر من واحد من هؤلاء الحكام وتصوره لنا وقد خرج للحرب على رأس جنوده المدججين بأسلحتهم يسيرون في كتائب ذات صفوف متراصة أو يحملون على أعدائهم في مركبات ثقيلة ذات عجلات أربع، فقد كان السومريون أقدم شعوب العالم في تنظيم الحرب وجعلوا منه فنًا رفيعًا.



شكل ٥٩: ملك أحد المدن السومرية يقود كتيبة من جنوده

يسير الجنود معًا في صفوف متراصة خلف ملكهم الذي نراه في يمين الصورة وقد تهشم وجهه من هذا الحجر. وهذا هو أقدم مثل لتجميع الرجال لتكوين وحدة حربية واحدة هي الكتيبة. ذلك هو الفصل الأول في التاريخ الطويل لفن الحرب، بدأ به أحد شعوب آسيا، في الوقت الذي لم تعرف فيه مصر مثل هذا التنظيم. ونرى في الرسم الجنود السومريين وقد شرعوا حرابهم للقتال ولكنهم لا يحملون أقواسًا. وكل منهم يحمل درعًا كبيرًا يغطي جسمه ويلبس خوذة ضيقة– من المحتمل أن تكون من الجلد– فوق رأسه. ورسم مرسومون يشمون فوق جثث رمزًا لانتصارهم على أعدائهم.

كانت الدويلات السومرية متعددة وحدودها متقاربة، ولهذا كانت الحروب بينها كثيرة ولم تتمتع بالأمن فترات طويلة لأن كل دويلة منها كانت تحاول أن تستولى لنفسها على جزء من أراضي غيرها وكان سكان المدينة يسارعون وراء مليكهم لطرد المعتدين، ولهذا فمن العبث أن نتحدث بشيء من التفصيل عن التاريخ السياسي خلال هذا العصر المبكر.

وعثر على أجزاء من قوائم بأسماء ملوك بعض الدويلات السومرية. وهي لأسماء الحكام الذين خلف بعضهم بعضًا وكانوا القوى المسيطرة في ذلك السهل الذي أصبح يسمى بلاد بابل فيما بعد، وليس من المعقول أن نقبل تسلسل الملوك كما جاء في القوائم، لأنه كثيرًا ما كان أن مدينتين أو أكثر كانتا قويتين في مكان محدود أي قريبة من بعضها ومعاصرة لبعضها، وفضلًا عن ذلك فإن الزمن المدون فيها لمدة حكم بعض الملوك طويل جدًا إلى حد لا يمكن تصديقه، ولكن بالرغم من أن هذه الجداول ناقصة جدًا فإنها تحوي بعض الحقائق التي أكدتها الاكتشافات الأثرية في أور والوركاء ونيبور وأدب وغيرها. ولنأخذ مثلًا مدينة أور التي ذكرت في قوائم الملوك بأنها ثالث دويلة بعد الفيضان، إذا سبقها كيش والوركاء.

ظهرت في حفائر أور ونيبور نقوش تشير إلى حكام في أور برزت أسماؤهم في قوائم الملوك الخاصة بذلك العصر، وكان أول ملك في هذه المجموعة هو الملك "مس– أنيَّ– بادّا" وقد خلفه ابنه "آن– أنِّ– بادّا" بنى معبدًا صغيرًا للألهة البقرة في ضاحية من ضواحي أور وسجل هذا العمل

على لوحة من المرمر وضعت تحت أساس المعبد، وحكم "مس- أنيَّ- بادّا" أربعة، وكان هؤلاء الملوك الخمسة هم الأسرة الأولى من ملوك أور.

وكشفت حفائر البعثة الإنجليزية الأمريكية في خرائب مدينة أور عن مدنية بلغت حدًا عظيمًا في وقت مبكر جدًا. فقد عثر رجال هذه البعثة تحت أنقاض المباني المتهدمة على مقابر لأشخاص ذوي أهمية كبرى من المحتمل جدًا أنهم كانوا حكام تلك المدينة، تلك هي المقابر التي سبق أن تحدثنا عنها ورأينا رسمها في شكل ٥٧.

بنى أهل أور القدماء تلك المقابر من الطوب اللبن والأحجار وكانت محتوياتها تنافس في الفخامة ما عثر عليه في مقابر بمصر في ذلك العهد. كان أحد الأمراء يحمل كساء للرأس مصنوعًا من صفائح سميكة من الذهب وهو على درجة كبيرة من الفخامة ومزخرف برسوم دقيقة جدًا حفرتها يد الصائغ الماهر، وكان هذا الأمير يعلق في حزامه خنجرًا من الذهب في غمد من الذهب المشغول المفرغ؛ ووضعوا إلى جانبه في قبره أوانيه الذهبية التي كانت تزين مائدة طعامه أثناء حياته، وكل هذه الأشياء التي أخرجتها يد الصائغ ترينا المهارة الفائقة والدقة الفنية كنا ترينا أيضًا سمو الذوق في تصميم أشكالها.



شكل ٦٠– إناء من الفضة لأحد ملوك المدن السومرية

يزين هذا الإناء شريطان يدوران حوله وفيهما زخارف محفورة تمثل أحسن تمثيل الفن الزخرفي في الحضارة السومرية المبكرة. و نرى في الشريط العريض نسرًا له رأس أسد يقبض بمخلبيه على أسدين يعض كل منهما تيتلًا. وهذا التماثل في ترتيب رسم الحيوانات من أهم ما وصل إليه الفن السومري. وانتقلت هذه الرموز التي تمثل أزواجًا من حيوانات ترسم متقابلة أمام بعضها إلى أوروبا وما زالت باقية حتى الآن في الرسم الزخرفي وفي الرنوك أو في الرسوم المميزة لبعض الملوك والأمم. وقد ظهر النسر في أعلام ملوك النمسا وبروسيا وغيرها من أمم أوربا وأخيرًا وصل إلى أمريكا،

وكلها مستمدة من النسر السومري الذي يرجع تاريخه إلى ما قبل خمسة آلاف عام.

وفي الأسرة الأولى في أور كان الملوك قد وصلوا في حضارتهم إلى الحد الذي مكنهم من تشييد معبد الإلهة البقرة وتزيينه بتماثيل تستدعي الإعجاب، إذ وضعوا على الافريز الذي أمام المعبد تماثيل ثيران قوية مصنوعة من النحاس المصبوب، بينما وقف نسر هائل له رأس أسد ناشرًا ذراعيه فوق غزالين– وكلها من البرونز– كأنما يحمي بوابة المعبد. أما الحائط الأمامية فكان يزينها شريط عريض من الزخارف تمثل الرعاة وهم يحلبون الأبقار، وغيرهم من العمال وهم يصفون اللبن ويصنعون الزبد. كان هذا الافريز في الأصل موضوعًا فوق لوح، حرفاه العلوي والسفلي مصنوعان من النحاس، أما صور الأشخاص والحيوانات والأشياء الأخرى فكانت منحوتة من قطع من المحار أو الحجر الجيري موضوعة في أرضية مصنوعة من طبقة رفيعة من الزفت الأسود التي ملأت الفراغ بين خططي النحاس. ولسنا نتوقع من تلك التماثيل الكبيرة التي تزين واجهة البناء أن تكون دقيقة الصنع مثل عمل الصائغ وحفار الأحجار الثمينة، ولكن النقوش وغيرها من الأشياء المنحونة تظهر لنا الروح الفنية والمهارة الفائقة التي وصل إليها هؤلاء السومريون.

وكانت التهافت الكبير على عمل الأختام سببًا في تقدم صناعة حفر الأحجار ووصولها إلى درجة رفيعة من التقدم، فقد كان السومري يبصم بختمه على الطين اللين لتقوم مقام التوقيع باسمه، وهذه الأختام الشخصية

هي أقدم ما وصل إلينا من أختام وكانت تختلف في أشكالها فمنها المستدير ومنها البيضاوي الشكل ومنها ما كان مربعًا أو مستطيلًا. وفي أكثر الأحيان كانوا يرسمون على الظهر المحدوب للختم شكلًا لأحد الحيوانات.

ومع مرور الزمن ظهر ختم أسطواني الشكل، حل محل النوع القديم من الأختام، وكانوا يحفرون جوانب هذا الختم الاسطواني على الطين اللين يقوم مقام التوقيع، شأنه في ذلك شأن الختم الآخر، ولم يلبث حفارو الأختام إلا قليلًا حتى أصبحوا سادة ثابتي القدم في صناعتهم وما زال أثرهم باقيًا حتى الآن في فنوننا الزخرفية.

ويبدأ تاريخ سومر– حسب ما وصلت إليه معلوماتنا حتى اليوم– بالعصر الذي تنتمي إليه حضارة أرو. فقد أثبتت النقوش أن "مس– أني– بادا" ملك له وجود تاريخي، وهو أمر لم يتيسر لغيره من الملوك الذين حكموا قبله ووردت أسماؤهم قوائم الملوك ومن الجائز أن مدناً أخرى كانت مزدهرة في الوقت نفسه في سومر وكان تقدمها في الثقافة لا يقل عن مدينة أور ولنضرب مثلًا بمدينة "لجش" التي كشفت الحفائر فيها عن عدد من المباني الهامة شبيهة بمباني الأسرة الأولى في "أور" ومن المحتمل أن سقوط أسرة أور الأولى كان نتيجة لحرب بينها وبين "لجش" لأن أحد حكام هذه المدينة يدعى أنه أخضع مدينة أور لسلطانه، ومع ذلك فإنه مسطور في قوائم الملوك أن ملكه "أوان" استولت على "أور" وليس في تلك القوائم ذكر لحكام "لجش".

أما مدينة "أوان: فإنها كانت في أراض "عيلام" ومن المحتمل أن "أور" كانت في ذلك الوقت تحت حكم أجنبي. من ذلك نرى أن محاول معرفة الوضع الصحيح لتاريخ سهل "شنعار" ليس من الأمور السهلة، ولن يتيسر لنا أن نصل إلى الحقيقة أو نرتب معلوماتنا المشوشة إلا بعد أن تمكننا الحفائر من العثور على المدن السومرية التي نجهل أماكنها حتى الآن. وقد أوصلتنا الحفائر التي تمت حتى اليوم إلى كثير من المعلومات وعرفنا منها أن جميع الدويلات السومرية كانت تمر في فترات غير آمنة يكثر فيها النزاع عندما يهاجمها عدو فيغزوها ويمعن فيها نهبًا، ولكن رغم ذلك كانت هذه الدويلات تقضي أيام السلك بين فترات الحروب لتنهض من كبوتها وتستعيد مجدها.

وانتهت هذه المنازعات الداخلية بين دويلات سومر- ولو مؤقتًا- عندما هاجمها غزاة ساميون، فقد بدأ بدو الصحراء يستقرون في سهل "شنعار" منذ بضعة قرون، ومن المحتمل أن يكون بعضهم قد اتى من الشمال الغربي وسار في محاذاة مهر الفرات، لأن عدد كبيراً منهم استقر في ذلك المكان الضيق الذي يقترب فيه نهرا دجلة والفرات من بعضهما وتصبح المسافة بينهما نحو عشرين ميلًا.

وأخيرًا أصبح هذا الجزء من السهل يسمى "بلاد أكد: وأصبح اسم السكان الساميين "الاكديين" وهي منطقة ذات موقع تجاري ممتاز على الطريق الموصل بين بلاد الرافدين والبلاد الجبلية التي في الناحية الشرقية منها وكانت تجارتها مصدر ربح ورفاهية لسكانها.

الانتصار السامي الأول

عصر سرجون

ظهر في القرن السادس والعشرين ق.م. فاتح من الجنس السامي في "أكد" اسمه "سرجون"[1]، كان ماهرًا في الحرب فتمكن من هزيمة السومريين وجعل من نفسه سيدًا على سهل "شنعار" بأكمله. هزم الدويلات السومرية وجنودها حملة الحراب وخضعت له كل البلاد حتى مصب نهري الدجلة والفرات. ولم يقف الملك سرجون عند هذا الحد بل بعث بجنوده إلى منطقة الخليج الفارسي لمهاجمة عيلام.

وقاد سرجون رجاله الأكديين الذين كانوا يتسلحون بالقسي من جبال عيلام الشرقية، واتجه بهم غربًا وصعد بمحاذاة نهر الفرات حتى وصل إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط. وهناك قول، بأنه أرسل سفنًا لإخضاع جزيرة قبرص وربما حدث صدام بين أسطوله وبين للسفن المصرية التي كانت –كما سبق أن قلنا– تجوب مياه ذلك البحر، وترسو من آن لآخر في موانئ المدن الفينيقية؛ وليس مستحيلًا أن تقود الصدفة في يوم من الأيام إلى اكتشاف بعض الرقم التي كان يتبادلها ملك بلاد الفرات في ذلك الوقت مع ملك وادي النيل الذي كان يعيش في قصرة الفخم في منف.

---

(1) يضع بعض الباحثين الملك سرجون الاكدي في القرن الرابع والعشرين ق.م. ويحددون عام ٢٣٥٠ فق.م. لبدء حكمه (المعرب).

ومن المحتمل جدًا أن سرجون واصل زحفه بعد أن وصل البحر الأبيض المتوسط فذهب شمالًا متوغلًا في المناطق الشرقية من آسيا الصغرى لكي يحمي التجارة التي كانت مزدهرة إذ ذاك بين مناطق مناجم الفضة في الشرق الجنوبي من آسيا الصغرى وبين تجار بلاد الرافدين. كان سرجون أول زعيم في تاريخ الجنس السامي وكان أول حاكم يؤسس مملكة كبيرة في غرب آسيا تمتد من عيلام في الشرق إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتصل أيضًا إلى أعالي نهري دجلة والفرات في الشمال والغرب. وتركت فتوحاته العظيمة في غرب آسيا ذكرى لم يقو الزمن على محوها بالرغم من أن حياته انتهت بالقتل على أثر ثورة قامت ضده، ولكن أحد أحفاده وهو "نرام– سين" استأنف فتوحاته وأقام آثاره في الفرات الأعلى.

لم يبق الأكديون بعد استقرارهم في الهلال الخصيب على ما كانوا عليه من بداوة، بل أدخلوا تغييرات كثيرة في أساليب حياتهم، فبنوا لهم مساكن ثابتة وبنوا بيوتًا من الطوب اللبن وتركوا خيامهم وبهذا لم يعد ميسورًا لهم أن ينصبوها في المساء في مكان ما، ليطوروها في الصباح إلى مكان آخر.

وقد كشفت الحفائر منذ سنين قريبة في تل "إشنونا" عن المقر الرسمي لأحد الحكام المحليين في عهد الملوك الأكديين، فلم يعد ذلك الحاكم يقيم في خيام كما فعل أجداده، بل كان يقيم في بناء فسيح الأركان فيه بهوان، وكان الجزء الخاص بعائلته مكونًا من صالة كبيرة يليها حجرة أخرى وعدة حجرات للخدم، وحجرة استقبال وحجرة للنوم ومرحاض وحمام. وعمموا

نظام البالوعات في جميع أجزاء القصر، وكان المجرى الرئيسي لتصريف المياه مبنيًا من الطوب اللبن ومقبيًا. وفي بعض المنازل الأخرى التي عاش فيها الأكديون، عثر الباحثون على نوافذ ذات قضبان من الفخار وأبواب ذات عقود، كما عثروا أيضًا على رسوم معمارية على الرقم، وهذا دليل قاطع على عنايتهم بأمر البناء.

لم يكن لهؤلاء الأكديين معرفة بالكتابة فاقتبسوا الكتابة المسمارية عن السومريين ليكتبوا بها لغتهم السامية وكانت هذه هي المرة الأولى التي كتبت فيها لغة سامية، واقتبس الأكديون أيضًا التقويم السومري والأوزان والمقاييس ونظام الأعداد وطرق التجارة. ولم يقف اقتباسهم من السومريين عند تلك الأشياء التي تفيدهم في حياة السلم بل عرفوا منهم أيضًا ما يفيدهم في الحرب، فتعلموا كيف يصنعون خوذات من الجلد أو من النحاس تزن الواحدة منها أكثر من رطلين، وكانت تلك الخوذات السومرية أقدم محلولة للإنسان لاستخدام المعدن لحماية نفسه في الحرب، وكانت هذه الخوذات نقطة الابتداء التي قادت الانسان فيما بعد إلى اختراع المراكب الحربية ذات الدروع المصنوعة من الصلب وأبراج المدافع في العصور الحديثة.

وكان فن النحت السومري مصدر إلهام للأكديين. وأمامنا مثل على ذلك وهو لوحة الملك "نرام–سين" المعروفة باسم لوحة النصر، والتي عثر عليها في "سوسا" وتوجد الآن في متحف اللوفر، وهي الي لا يشك أحد في أنها من أعظم الأعمال الفنية في العالم القديم، ويزيد في أهميتها أنها أقدم

عمل فني عظيم أخرجته يد فنان من الجنس السامي. ولم يمض زمن طويل حتى أصبح حفارو الأحجار الثمينة من الأكديين منافسين لمن علموهم هذه الصناعة من السومريين، ومما يدعو إلى الدهشة أن الفنانين الأكديين ركزوا اهتمامهم في اظهار التفاصيل الدقيقة في الأختام أكثر من اهتمامهم بالزخارف التي كان يعتني بها السومريون.

وبعبارة أخرى اقتبس الفاتحون الاكديون حضارة السومريين المغلوبين، واختلط الساميون بسكان المدن غير الساميين في مهل بابل، كما اختلط النورمانديون بالإنجليز في إنجلترا؛ وفي أوقات الحروب كان الجنود الذين من أصل سومري يحملون حرابهم ودروعهم ويسيرون إلى جانب سادتهم الذين لا يحملون غير القسي، وفي أوقات السلم لم يستطع السادة الساميون الاستغناء عن الكتاب السومريين الحاذقين.

اتحاد السومريين والساميين

"ملوك سومر واكد"

حكمت عائلة سرجون نحو قرن ونصف من الزمان، ولكنهم رغم نجاحهم في الحرب، لم يستطع الملوك الأكديون منع الدسائس والانقسام بين رجال البلاط، وكان عهدهم مليئًا بالثورات والاغتيالات، وكان هناك مطالبون كثيرون بالملك إلى درجة جعلت الكاتب الذي كان يحرر قوائم الملوك عند وصوله لإثبات حوادث ذلك العهد، أن يقع في حيرة يائسة فلا يزيد عن قوله "من هو الملك؟ ومن هو غير الملك؟"

وزاد الطين بلة أن بعض سكان المنطقة الجبلية غزوا البلاد في ذلك الوقت التعس، ولكن انتهى الأمر بهزيمتهم وردهم؛ وأصبح غي استطاعة المدن السومرية أن تقف على قدميها مرة أخرى وتعيد سلطانها في البلاد. وأخيرًا نهضت مدينة "أور" مرة أخرى، وأصبحت لها الزعامة على غيرها. وأصبح للسكان الساميين الذي مضى عليهم عدة قرون في تلك المدن نفوذ في التنظيم الجديد ونرى أيماء الحكام المحليين كثيرين ممن تدل أسماؤهم على أصلهم السامي، وأصبحت الأمة الجديدة تدعى باسم "سومر وأكد"

وازدهرت البلاد في تلك الأيام وبذل الملوك كل ما في وسعهم ليصلوا إلى أعلى مراتب الحضارة، فحققوا ما نسميه الحضارة البابلية.

استمر حكم ملوك "سومر وأكد" نحو ثلاثة قرون، كان القرن الأول منها عصر رفاهية تحت زعامة مدينة أور، ثم تلاه قرنان مليئان بالتدهور فيما تلا ذلك. وبالرغم من أن الحفائر لم تكشف عن كثير من المدونات الرسمية في أور، فإننا نعرف أنها تقدمت في فتوحاتها نحو الشمال على طول نهر دجلة حتى شملت فتوحاتها بلاد "اشور" التي تظهر ابتداء من هذا الوقت في صفحات التاريخ. وأرسلت أور الحملات الحربية شرقًا إلى عيلام وغربًا على امتداد الفرات فوصلت إلى البلاد التي كان يقطنها قوم ساميون كانوا قد بدأوا يظهرون أيضًا وهم الذين نعرفهم باسم "العموريين".

كانت هذه الفتوحات سببًا في تجمع بلاد متعددة في غرب آسيا تحت حكم واحد وكانت النتيجة المترتبة على ذلك هي اتساع نطاق التجارة في غرب آسيا على صورة لم يسبق لها مثيل.

ونذكر كيف كان الناس في العهد الحجري يتاجرون في الكهرمان والظران وغيرهما، ثم تطور الناس بعد معرفتهم للزراعة فأصبحت كيلة القمح أو الشعير وحدة لتسهيل التعامل. فإذا اشترى أحد الناس من جار له قاربًا يساوي قيمة عشرين كيلة من الشعير؛ ففي استطاعته أن يعطيه ثورًا قيمته خمسة عشر كيلة ويتبقى عليه بعد ذلك خمس كيلات يعطيها له.

وأخذت قيمة المعادن تزيد شيئًا فشيئًا وأصبحت وسيلة صالحة للتعامل وأساسًا لقيم الأشياء التي يتبادلها الناس وكانت الفضة هي المعدن الذي أخذ يشق طريقه ليصبح في مكان العملة. وكما كان المصريون القدماء يستعملون حلقات من النحاس منذ عصر الأهرام للمعاملات البسيطة وحلقات من الذهب ذات وزن معين للمعاملات الكبيرة، فإن البابليين القدماء كانوا يتعاملون بقطع من الفضة تزن الواحدة منها "شكل" أي جزء على ستين من وزن الرطل (المينا) وكانت هذه القطع الفضية على هيئة قرص مستدير لا يزيد في حجمه إلا قليلًا عن العملة الفضية التي قيمتها قرشان؛ وأصبح ميسورًا للبابليين أن يحددوا الأسعار وقيم الأشياء بما يقابل ثمنها من قطع الفضة.

وكانت قيمة أي وزنه من الفضة ربع نفس الوزنة إذا كانت من الذهب؛ ولكن قلت قيمة الفضة بعد ذلك عندما كثر تداولها بينهم.

واستلزمت التجارة تحرير كثير من الوثائق والحسابات وكانت كلها تكتب على رقم كثيرًا مت عثر الأثريون عند حفرهم لمدن هذا العصر،

وإذا فحصنا هذه الرقم نجد أنهم كانوا يستعملون صيغًا خاصة في تحرير معاملاتهم التجارية ما زلنا نستعملها حتى الآن، وكانوا بوجه عام أول شعوب العالم الذين جعلوا تحرير المعاملات المالية أساسًا في الأعمال التجارية.

ولم يلزم البابليون أنفسهم باتباع أساليب خاصة في التجارة فقط، بل ألزموا أنفسهم أيضًا باتباع قواعد خاصة في بعض العادات الاجتماعية، وانتهى بهم الأمر أن أصبحت هذه القواعد قوانين تنظيم الحياة بين الناس ويجب عليهم طاعتها.

وأصبحت مدينة أور قوية غنية في فترة قصيرة بعد أن تمكنت من ضم منطقة واسعة إليها، منطقة يحكمها قانون ينظم شئونها، وتزدهر فيها الصلات التجارية مع شعوب أخرى بعيدة عنهم.

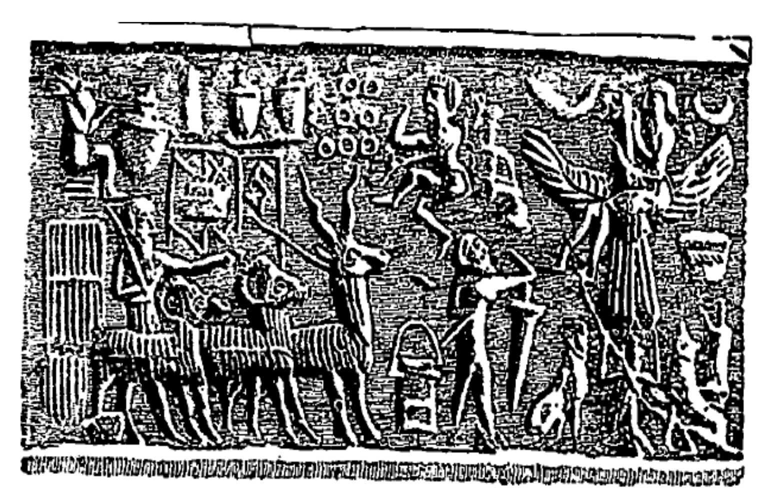
ونرى أثر ذلك كله في المعبد الذي شيده ملوك أور، والذي كشف عنه الحفائر حديثًا وثبت منها أنه بنى في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهو دليل مادي قوي على ثراء المدينة في ذلك العهد.

ولم تكشف الحفائر حتى الآن عن آثار أدبية في مدينة أور أثناء حكم ملوك أور، والذي كشفت عنه الحفائر حديثًا وثبت منها أنه بنى في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهو دليل مادي قوي على ثراء المدينة في ذلك العهد.

ولم تكشف الحفائر حتى الآن عن آثار أدبية في مدينة أور أثناء حكم ملوك سومر وأكد، ولكننا نكاد نجزم بأن ذلك التطور الأدبي الذي نراه فيما بعد في المدن الأخرى التي ورثتها، إنما بدأ في أيام ملوك أور.

ولم تصل إلى أيدينا الرقم الأصلية التي تحتوي على آداب ذلك العصر ولكن كتب المدارس وبعض الرقم التي يتمرن فيها التلاميذ هي التي أبقى عليها الزمن وأصبحت في أغلب الحالات مصدرنا الوحيد لدراسة بعض الوثائق الأدبية الهامة، إذ كان في المدارس رقم تحوي مؤلفات في الأجرومية وقواميس للاصطلاحات وجداول للعلامات الكتابية، وكان في استطاعة التلاميذ، أن يذاكروا الحساب والأجرومية في الرقم التي في المدرسة، وكان يستطيع الواحد منهم أن يذهب إلى الرفوف التي توضع فوقها الرقم المختلفة، فيجد أبحاثًا في الطب ومعالجة الأمراض التي كانوا يعتقدون أن السبب الأساسي لظهورها هو احتلال الشياطين والأرواح الشريرة لجسم الإنسان.

وأراد أهل سومر وأكد أن يجدوا جوابًا لما يطرأ على أذهان الناس في أول جهودهم من تساؤل عن الموت والحياة، فوضعوا قصصًا بسيطة تحدثوا فيها عن مخاطر الراعي "إتانا" عندما أصاب أغنامه العقم ولم تعد تلد له أحمالًا صغيرة. صعد "إتانا" على ظهر نسر واتخذ طريقة نحو السموات باحثًا عن عشب أصل الحياة. وبينما كان قاب قوسين أو أدنى من تحيق رغبته، سقط ثانية على الأرض، وهذه القصة هي أقدم ما عرفناه عن محاولة الإنسان للطيران.



شكل ٦١: أتانا يطير في السماء

يجلس أتانا على ظهر نسر يطير وقد وضع ذراعه حول عنقه ونرى فوق أتانا في يمين الصورة منظر القمر كما نرى في الأرض كلبين ينبحان وفي يسار الصورة نرى راعيًا ومعه ثلاث عنزات، وأمام العنزات يسير شخص آخر وقد رفع ذراعه، وكلهم بما فيهم الحيوانات ينظرون مدهوشين نحو أتانا الذي رأوه بأعينهم يطير في السماء.

وفي الجزء العلوي من الجهة اليسرى نرى فخاريًا يصنع بعض الأواني وأمامه خباز يصنع خبزًا مستديرًا.

وهذا الرسم مأخوذ من طبعة أحد الاختام فوق رقيم من الطين

وهناك قصة أخرى، هي قصة صياد السمك "أداب" الذي اشتدت به ثورة الغضب، فكسر جناح آلهة الرياح الجنوبية عندما قلبت قاربه في الماء فدعاه إله السماء إلى عرشه وسأله عما حدث ثم رضي بعد ذلك عنه، وقدم إلى "أداب" خبز الحياة وماءها، ولكن "أدابا" كان سيء الحظ فأعماه الغضب وملأت الشكوك نفسه فرفض أن يأكل ما قدمه الإله له، وبذلك ضيع على نفسه وعلى بني الإنسان جميعًا فرصة الحصول على

الكنز الأكبر وهو الخلود في الحياة. ولو أمعنا النظر في تحليل هذه القصة لوجدنا أنها محاولة لحل لغز الموت الذي يشغل دائماً ذهن البشرية،

وهناك قصة أخرى، هي قصة البطل "جلجمش" الذي خاطر وأتى أعمالًا عظيمة ولكنه فشل أيضًا في الحصول على الخلود.

وفشل كل من حاولوا الوصول إلى سر الخلود، اللهم إلا واحدا منهم فقط، وقصته من القصص الغريبة، نقرأ فيها كيف نجا هو زوجته في فلك بعد الطوفان العظيم، ثم أخذتهما الآلهة بعد ذلك إلى النعيم المقيم.

ولم يؤمل ملوك سومر وأكد في حياة سعيدة بعد الموت شأنهم في ذلك شأن عامة الناس، لأن الخلود كان وقفًا على الآلهة دون سواهم.

وعرف العبرانيون فيما بعد بعض هذه القصص، وخاصة ما كان يختص منها بخلق العالم وبالطوفان، وزادوا على النص الأصلي بعض تعبيرات وتأثيرات من الحياة السومرية والحياة السامية، ووجدت هذه القصص طريقها إلى كل من اللغتين السامية والسومرية.

وكانت أكثر هذه القصص تكتب باللغة السومرية القديمة التي كانوا يعتبرونها لغة لها قداستها، واستمرت بينهم كلغة مقدسة مثل اللغة اللاتينية في وقتنا الحاضر في الكنيسة الكاثوليكية، وبالرغم من زوال النفوذ السياسي للمدن السومرية فإن القصص الدينية ظلت تكتب باللغة السومرية قرونًا

عديدة بعد أن انصرف الناس عن الكلام بها، وماتت من بينهم كلغة للتخاطب.

ووصلت الحضارة أثناء حكم ملوك سومر وأكد إلى أعلى مراتبها عندما امتزجت الحضارتان السومرية والأكدية، وأصبحتا حضارة واحدة لها طابعها المميز وهي ما نسميه الحضارة البابلية.

كان هذا العهد هو أعظم العهود هو أعظم العهود في تطور حياة الإنسان في سهل شنعار الذي كان عهدًا مطبوعًا بطابع التوسع التجاري. ولم ينس الناس في مستقبل الأيام ما كانت عليه مدينة أورمن فخامة، وعظمة وعندما أخذ العبرانيون بأسباب الحضارة في فلسطين كانوا يفخرون بأنهم من نسل إبراهيم الذي كانوا يعتقدون أنه كان من سكان مدينة "أور" عاش فيها في أواخر أيام العصر الذي كنا نتحدث عنه.

الانتصار السامي الثاني- عصر حمورابي

"والعصر التالي له"

لم يكد يبدأ الألف الثاني ق.م. حتى سقطت مملكة سومر وأكد ولم تسترجع المدن السومرية بعد ذلك التاريخ مكانتها في الزعامة السياسية.

ولم يكن القضاء على دويلة "أور" في نهاية القرن الثالث والعشرين ق.م راجحًا إلى الحروب التي كانت بينها وبين الدويلات المنافسة لها فحسب، بل كان راجعًا أيضًا إلى غزو أجنى رزئت به البلاد من الشرق

والغرب في وقت واحد فقد جاء العيلاميون من الشرق واستولوا على المدن السومرية وأسروا آخر ملوك "أور" ونهبوا مقابر الملوك السابقين، وجاء من الغرب قوم آخرون من الساميين، وهم "العموريين" وبدأوا يغزون بلاد "أكد" وتمكن زعماء العموريين في النهاية من فرض سلطانهم على بعض المدن في الشمال، وفي منتصف القرن الحادي والعشرين ق.م. نصب أحد هؤلاء الزعماء نفسه ملكًا على بابل التي لم تكن حتى ذلك الوقت بلدًا له أهمية سياسية كبيرة.

واستطاع هؤلاء الحكام أن يظلوا أصحاب السياسة مدة ثلاثة قرون وجعلوا من مدينتهم "بابل" في النهاية مركزًا هامًا تجمعت فيه قوتهم الحربية وحضارتهم وأصبح اسمها علمًا على سهل شنعار القديم الذي سمي منذ ذلك الوقت باسم "بلاد بابل".

ولم يتيسر للملوك العموريين الأوائل الذين حكموا في بابل، الاستيلاء على كل بلاد سومر وأكد، واستمر صراعهم مع العيلاميين وقتًا طويلًا دون أن يحرزوا نصرًا حاسمًا عليهم.

وأخيرًا جاء اليوم الذي تولى فيه العرش ملك يسمى "حمورابي" وكان ترتيبه السادس من ملوك بابل، كان ملكًا ممتازًا قضى السنوات الثلاثين الأولى من حكمه في تدعيم مركزه في الجزء الشمالي من بلاد بابل، ثم التفت نحو الجنوب فانتصر على الحاكم العيلامي الذي كانت مدن الجنوب تحت إمرته، وبذلك أصبحت مدينة "بابل" في عهده المدينة الأولى في البلاد.



شكل ٦٢: خطاب كتبه حمورابي ملك بابل

نرى في ها الخطاب أثر السرعة في الكتابة عندما أخذ الكاتب يحرر على الطين اللبن ما كان يمليه عليه سيده الملك حمورابي.

كانت أمثال هذه الرقم توضع في أفران لحرقها بعد كتبتها ثم تغلف بعد ذلك بطبقة أخرى من الطين يكتبون فوقها العنوان، وكان ذلك الغلاف يكسره من يتسلم الرسالة ويرمي به لعدم الحاجة إليه.

وفي هذا الخطاب يأمر الملك حمورابي أحد الحكام المحليين أن يستمع إلى شكوى موظف يعتقد أنه مظلوم وأن القضاء لم ينصفه.

تولى حمورابي العرش في عام ١٩٤٨ ق.م[١] وظل سبعة وخمسين عامًا على العرش، قضى منها الأعوام الاثني عشر الأخيرة في هدوء

---

(١) هذا هو التاريخ الذي فضله المؤلف. ولكن هناك آراء مختلفة في تاريخ تولي حمورابي الملك ويرى "دلايورت" أنه تولى الملك في عام ٢٠٠٣ ق.م.

وطمأنينة بعد أن دانت له الأمور فالتفت نحو توطيد ذلك الملك فأثبت أنه بطل في السلم، كما كان بطلًا في الحرب، وخلد اسمه في التاريخ على أنه ثاني حاكم عظيم من الجنس السامي بعد الملك سرجون.

رمى حمورابي بناظريه إلى تلك المدن البابلية التي كانت تعج بالحياة وصمم على أن ينظم أمورها على صورة لن تعرفها من قبل فتم له ما أراد. وأهم المصادر التي أمدتنا بالمعلومات عن أعمال هذا الرجل العظيم، هما اثنان، يرجع تاريخ كل منهما إلى ما يقرب من أربعة آلاف عام، وأولهما مجموعة خطاباته، وثانيهما اللوحة العظيمة التي سجل عليها قوانينه. فلأول مرة في التاريخ نستطيع أن نعرف من تلك الخطابات دقائق الحياة المليئة بالعمل التي كان يحياها أحد الحكام الشرقيين في آسيا. فترينا تلك الخطابات الملك حمورابي جالسًا في قاعة الحكم في قصره في بابل وقد جلس كاتم سره إلى جواره. وأخذ الملك يملي عليه ما يريده من رسائل في جمل مقتضبة واضحة المعاني تحمل أوامره إلى ولاته الذين عينهم على المدن السومرية بعد أن أصبحت خاضعة له. فيأخذ كاتم السر قلمه من الكيس الجلد المعلق في حزامه ويسطر له فوق الرقيم الصغير سطورًا من الكتابة المسمارية. وبعد أن ينتهي الكاتب من عمله يرش الرقيم اللين بحفنة من

(Delaporte, Le proche-Orient Asiatique, p. 120 3e Ed. 1948)

ولكن مورتجات وهو من أشد المؤمنين بالتقويم القصير الذي يقل بأكثر من مائتي سنة عن التقويم الطويل يرى أن تولي حمورابي للملك كان في عام ١٧٢٨ ق.م.

Scharff-Moortgt, Aegypten und Verderaslen in Alteriunt, Munchen 1950. P. 493.

ولكن قبل مورتجات كان أولبرايت من المؤمنين بوجوب النزول بتاريخ حكم حمورابي إلى عام ١٨٠٠ ق.م. بدلًا من عام ألفين (Albright, BASOR, 77, 1940).

التراب الجاف ليمنع الغلاف الطيني الذي يلف به من الالتصاق بالكتابة، ويكتب بعد ذلك عنوان المرسل إليه ثم يبعث بالرقيم ليوضع في الفرن.

ويأتي الرسل إلى الملك بخطابات مماثلة، يفتحها كاتم السر الذي يثق فيه سيده فيكسر الأغلفة أمام الملك ويقرأ بصوت مرتفع ما يبعث به موظفوه من جميع أنحاء المملكة. ويملي الملك ردوده في الحال. فمثلًا لقد فاض نهر الفرات وسبب بعض الخسائر وتوقفت الملاحة بين مدينتي "أور" و "لارسا" ووقف صف طويل من السفن لا يستطيع السفر، فيبعث الملك برده توًا، أمراً حاكم "لارسا" بتطهير المجرى في الحال لتواصل السفن سيرها.

ويهتم الملك اهتمامًا خاصاً بقطعان أغنامه، وكأنما هي الغريزة البدوية وما زالت في دمه، فيأمر الموظفين ليجيئوا إلى بابل للاحتفال بقص أصواف الأغنام في فصل الربيع، كأنما مثل هذا الحادث عيد من الأعياد الهامة.

ويتقدم التقويم شهراً كملاً عن الموسم المعتاد، فيرسل الملك خطابًا دوريًا إلى جميع الحكام قائلًا: "نظرًا لظهور عجز في السنة، احتسبوا الشهر الذي يبدأ الآن أنه شهر أيلول الثاني". ولكنه يلفت نظر الحكام إلى أن جميع الضرائب التي تكون مستحقة في الشهر الثاني يجب أن تحصل ولا تؤجل إلى الشهر الذي يليه، لأن تقديم الشهر يجب ألا يتسبب عنه أي تأخير في الضرائب.

ويلفت الملك نظر جامعي الضرائب المتأخرين في التحصيل ويذكرهم بشدة إلى ضرورية تأدية واجبهم، والانتهاء منها دون أي تأخير. ويوافق الملك على توقيع العقاب السريع على موظف متهم بالرشوة، ويمكننا أن نتصور الملك وقد أكفهر وجهه وهو يأمر باعتقال ثلاثة من موظفي باب قصره الذين غضب عليهم. وفي أكثر من مرة يذكر الملك حاكم "لارسا" بضرورة تنفيذ ما يصدر إليه من أوامر على أسرع وجه.

وكم من متظلم كان يأتي إلى الملك إذا أعياه نيل حقه على أيدي القضاة في مدينته. فكان هؤلاء المتظلمون يأتون إلى حمورابي وهم واثقون من حسن معاملته ولا يرد أحدهم خائبًا. وها هو رئيس خبازي المعبد، تصدر إليه أوامر الملك بأن يسافر إلى مدينة "أور" ليغني بأمر أحد الأعياد الدينية. ولكنه يتظلم من هذا السفر لأنه سيحرمه من وجوده في بابل عند نظر قضية له، ويرى حمورابي أن الرجل على حق فيأمر بتأجيل القضية.

ولا يقل اهتمام حمورابي بالشئون الدينية عن اهتمامه بإقامة العدل، لأن كثيرًا من خطاباته التي كان يمليها كانت تختص بممتلكات المعابد وإدارتها التي كان يظهر دائمًا عنايته بها.

كانت عينه لا تغمض ولا تنام، مهتمًا بكل شئون البلاد، قوى الشكيمة، سريع البت في الأمور، أدرك ذلك الملك أن الضرورة تقضي بتوحيد القوانين وقواعد لمعاملات التجارية في البلاد. وكان بعضها يتعارض

مع البعض ولهذا جمع كل القوانين والمعاملات المدونة، سواء أكانت لتنظيم التجارة أو الحياة الاجتماعية منذ أيام السومريين القدماء.

بوب حمورابي تلك القوانين وأدخل عليها تحسينات وتعديلات كثيرة كما ألهمته حكمته ثم جمعها كلها في مجموعة واحدة من القوانين. ولم يكتبها باللغة السومرية مثل بعض القوانين القديمة بل كتبها باللغة السامية التي كان يتكلم بها الأكديون والعموريون، ثم أمر بنقشها على لوحة عظيمة من الحجر، نراه في أعلاه يتلقى القانون من إله الشمس، وضع هذه اللوحة وعلى صفحتها القانون الجديد في معبد الإله العظيم "مردوخ" في مدينة بابل، وأبقى الزمن على هذه اللوحة حتى الآن، وهي تحوي دون شك أقدم مجموعة من القوانين القديمة، وكثيرًا ما يعثر رجال الآثار على بعض أجزاء من قانون حمورابي مكتوبًا على رقم كانت تحفظ في قاعات المحاكم للرجوع إليها.

وينص هذا القانون على أن ينال الأرامل واليتامى والفقراء حقوقهم وألا يقع عليهم ظلم، ولكن في الوقت ذاته يحتفظ بكثير من الآراء القديمة التي تدل على بساطة القلب، ومن أظهر ما فيه مبدأ المعتدي بأن يوقع عليه الضرر الذي سببه. وهو مبدأ "العين بالعين والسن بالسن" وهو مبدأ، كثيرًا، ما تسبب في الظلم عند تطبيقه تطبيقًا حرفيًا. فمثلًا إذا انهار منزل وقتل ابن الساكن فيه فإن عقوبة ذلك قتل ابن الشخص الذي بنى البيت، فيذهب ضحية ذلك شخص بريء هو الابن المسكين.

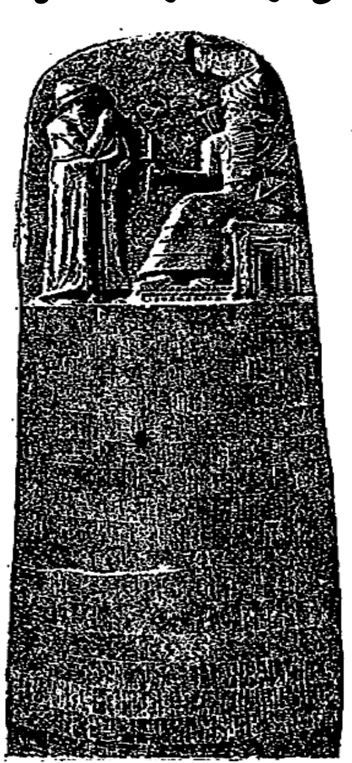
ورأى حمورابي ضرورة تنظيم أمور الزواج والاتفاق الشرعي بين الرجل والمرأة، فأفسح لهذا الموضوع مكانًا في قوانينه. فاحتلت المرأة مكانًا ممتازًا في بلاد بابل القديمة– كما كان شأنها أيضًا في مصر، وكان في استطاعة المرأة أن تمارس التجارة لحسابها الخاص، وكان من بين النساء من احترفت مهنة الكتابة، وكانت البنات تذهبن إلى المدارس لتلقي العلم جنبًا إلى جنب مع الصبية.

وجاءت إصلاحات حمورابي بثمراتها فانتعشت البلاد انتعاشاً لم تعرفه من قبل. وكانت حاصلات البلاد الزراعية وخاصة الحبوب والبلح هي المصدر الهام للثروة، ولكن كان لدى السمكان أيضاً قطعان من الأغنام والماشية تمدهم بالجلد والصوف، وأصبحت الأخيرة صناعة من الصناعات الهامة لأن الملابس الصوفية كانت منتشرة الاستعمال بين سكان آسيا الغربية.

ككان أهل بابل في ذلك العهد يصنعون آلاتهم وأسلحتهم من البرونز، ولم يكونوا ليجهلوا وجود الحديد وإنما كان هذا المعدن نادرًا إلى درجة لم تجعل له أي شأن هام في الصناعة، ولم يعم استعمال هذا المعدن إلا بعد ألف سنة أخرى.

وحافظ الجيش على هدوء البلاد وعلى سلامة حدودها، وكانت قوافل الحمير التي تحمل تجارة البابليين تذهب من مدينة إلى أخرى ومن قوم إلى آخرين وهي آمنة مطمئنة. وكانت هذه الأصفار أمرًا عاديًا في بلاد

الفرات الأعلى فنشأت مراكز للتجارة، وهذه مدينة من مدن الفرات أطلقوا عليها اسم "هران" أو "خران" وهي مشتقة من الكلمة البابلية "خرانو" ومعناها "رحلة". وكثيرًا ما كانت بضائع التجار تملأ الأحواش مكدسة في الغرائر، وقد ميزوا كل حمل منها بلوحة صغيرة من الطين عليها اسم صاحبها. وكانوا يلقون بهذه العلامات التجارية عند فتح تلك الغرائز، ويعثر الحفارون على كثير منها الآن في خرائب المدن ونرى على أحد وجهيها اسم التاجر وعلى الوجه الآخر طبعة الحبل الذي كان يحزم الغرارة.



شكل ٦٣: قواني حمورابي– أقدم مجموعات القوانين

هذه القوانين منقوشة حول عامود من حجر الديوريت ارتفاعه ثمانية أقدام تقريباً ومجموع الكتابة أكثر من ٣٦٠٠ سطر. وفوق الكتابة نرى حمورابي إلى اليسار واقفًا أمام إله الشمس الجالس في الناحية اليمنى يتلقى منه القوانين.

ووصلت هذه العلامات التجارية وكشوف الحساب التي كانت تصحب الأحمال إلى مناطق بعيدة، وكان يقرؤها التجار المحليون في المدن السورية وفي البلاد الواقعة خلف ممرات الجبال في الشمال. وهكذا أخذت الكتابة المسمارية البابلية تشق طريقها تدريجًا في بلاد آسيا الغريبة وبدأ تجار سوريا وكبادوسيا Cappaddocia في آسيا الصغرى يكتبون كشوف الحساب والمطالبات التجارية وخطاباتهم على الرقم كما كان يفعل البابليون. وانتشر نفوذ حمورابي التجاري في غرب آسيا، وظلت ذكراه بعد موته بأكثر من ألف سنة يرددها سكان سوريا وفلسطين في أيام العبرانيين(١).

وأصبحت طبقة التجار قوية وكانوا يسمون في بعض الأماكن "الحكام" ولكن المعابد ومالها من موارد عظيمة كانت مركز الحياة التجارية، إذ كانت مهيمنة على أراض كثيرة، وكانت لها تجارة واسعة كما كانت تقرض النقود فإن إقراض النقود كان أمرًا عاديًا ولكن أسعار الفائدة كانت مرتفعة، إذ كان سعرها على قروض الفضة عشرين في المائة في السنة تدفع على أقساط شهرية، ولما كثر تداول الفضة وأصبحت كثيرة في أيدي الناس قلت قيمتها، وأصبح استعمال الذهب قليلًا ونادرًا وكانت قيمته من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة مرة من قيمة الفضة.

وصارت المصالح التجارية هي المصالح ذات الأثر الفعال في الحياة البابلية، بل ووصل أثرها إلى الدين أيضًا؛ فكانت للمعابد، كما ذكرنا،

---

(١) انظر سفر التكوين حيث ورد "أمرافيل" والمظنون أنه تحريف لاسم حمورابي كما نطق به أهل غرب آسيا.

مكانة كبيرة في الحياة التجارية ولم تسع الديانة لمطالبة الأغنياء والأقوياء بما عليهم من حقوق للفقراء والمساكين ويحتم علينا الإنصاف أن نذكر أن طقوس العبادة كانت تحوي بعض صلوات وأدعية اعترافًا بوجود فكرة الخطيئة وضآلة الإنسان، ولكن كانت المنفعة الكبرى للديانة تتركز في أن الانسان كان يستطيع أن يحصل من الآلهة على ما يريده من منافع حقيقية وأن يتجنب غضبها.

وظل الناس يعبدون الآلهة السومرية القديمة ولكن زعامة بابل السياسية مكنت سكان تلك المدينة من وضع إلههم السامي "مردوخ" فوق جميع الآلهة الأخرى، وزجوا باسمه في جميع الأساطير القديمة، فظهر اسم "مردوخ" مكان أسماء بعض الآلهة السومريين القدماء الذين كانوا يلعبون أدوارًا هامة في تلك الأساطير.

وفي الوقت عينه احتلت الإلهة "عشتر" السامية مكانها كالآلهة الرئيسية في بابل، وكانت "عشتر" العظيمة الهة للحب، وانتقلت عبادتها بعد ذلك إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط، وأطلق عليها اليونانيون اسم "أفروديت".

ومن الأشياء التي منحها الآلهة موهبة التنبؤ بالغيب، وكان هذا الفن يسمى التنجيم، وكان الكاهن الذي يقوم به يطلقون عليه اسم المنجم.

ومنذ العصور القديمة، في عهد ملوك سومر وأكد، كان المنجم الماهر يستطيع أن يفسر العلامات الغريبة في كبد شاة تذبح كقربان، وكان السائل

يؤمن أن استطاعة هذا المنجم أن يحدثه عما يكنه له الغيب، وكان في استطاعة المنجم أن ينظر إلى أماكن النجوم والكواكب ويعرف منها ماذا أمر به الآلهة ليحدث في مستقبل الأيام، وأخذت هذه الأساليب في فن التنجيم طريقها إلى الغرب فانتشرت فيه، فكانت قراءة الأكباد أمرًا شائعًا في روما فيما بعد، وتطورت قراءة النجوم فيما بعد في أيام الكلدانيين وصارت علماً قائمًا بذاته هو علم التنجيم الذي كان أساساً لعلم الفلك.

ولم يكن من الميسور تمرين الناس على أمثال هذه الأعمال في المعابد أو إعداد الكتاب للأعمال التجارية أو لإدارة الحكومة دون وجود المدارس التي كانت في المعابد أو كانت ملحقة بها. وكشفت الأبحاث الأثرية عن بناء مدرسة من عهد حمورابي، وعثر في بقايا على الرقم التي كان يتمرن فيها الصبية والبنات ملقاة على أرض الحجرات بعد أن ظلت في مكانها قرابة أربعة آلاف سنة، وفي هذه الرقم نرى كيف كان الطفل يقضي الوقت الشاق في التعليم الذي كان يبدأه بفهم وكتابة نحو ستمائة علامة مختلفة.

كان اللوح الذي يتمرن عليه التلميذ مصنوعًا من الطين اللبن وكان باستطاعته أن يمحو ما كتبه إذا مر عليه قطعة من الخشب أو الحجر. وكان التلميذ يقبض على قلمه بين أصابعه ويخط سطورًا طويلة من ضغطات مفردة، يكتبها في أوضاع ثلاثة أفقية ورأسية ومائلة، فإذا ما تعلم ذلك وأصبح يجيد استعماله قلمه علمه مدرسه كيف يكتب العلامات التي كانت كل منها تتكون من أكثر من ضغطة واحدة، وكانت الخطوة التالية بعد ذلك هي أن التلميذ يتعلم كتابة الكلمات ثم الجمل القصيرة. ومما كان

يكتبه هؤلاء التلاميذ القدماء حكم وأمثال قيمة، وهذا واحد منها يبين قيمة تقدير البابليين لفن الكتابة: "إن من يتفوق في كتابة الرقم سيضيئ كالشمس" وبمثل هذا كانوا يشجعون الصبية أثناء عملهم الطويل الشاق في تعلم الكتابة.

ولم يصل إلينا إلا القليل النادر من الأعمال الفنية أو المعمارية التي ازدهرت في ذلك العصر، ويرجع ذلك إلى تحطيم مدينة حمورابي التي لم يبق منها قالب طوب واحد في مكانه، ولكننا نعرف مما كشفت عنه الحفائر في المدن الأخرى أن بعض القواعد المعمارية التي كانت معروفة في عهد السومريين ظلت متبعة بعد أن دخل عليها شيء من التطور، بل هناك ما هو أكثر من ذلك فإننا ما زلنا حتى الآن نستعمل بعضها، ولنضرب مثلًا بالعقد الذي رأينا أنه كان معروفًا في مدينة "أور" وأنهم استعملوه في بناء مقابر ملوكها الأوائل. وكذلك المصارف المقبية التي ظهرت في العصر الأكدي. وفي عهد ملوك سومر وأكد كانت بوابات المنازل الخاصة مبنية على طراز العقد، فلما جاء عصر الإمبراطورية الأشورية أصبح للعقد شأن بارز في هندسة واجهة القصر الملكي.

كان أهم تجديد معماري في العهد المبكر للملكة البابلية هو انتشار المعبد ذي البرج، ومع ظهور هذا النوع من المباني ظهرت أيضًا فكرة تزيين الأسوار ببناء دعامات لها على مسافات متقاربة منتظمة بحيث تبدو فيها نتوء يليه انخفاض ثم نتوء وهكذا (recessed panel)، وكان هذا الطراز

معروفًا للبنائين في بلاد الرافدين منذ عهد السومريين، كما تراه أيضا في مباني الطوب لدى كثير من شعوب الغرب.

وأقام البابليون الأول أعمدة من الطوب أو الخشب غطوها بالفسيفساء، ولكنهم لم يكثروا من الأعمدة بوجه عام بل كان استعمالها محدودًا في طرزهم المعمارية.

ولم يخلف عصر حمورابي وراءه رسومًا أو تماثيل فنية كثيرة. فنحن نرى النقش المرسوم على الجزء العلوي من قانون حمورابي على حجر الديوريت ويمثل الملك وهو يتلقى القوانين من إله الشمس، فنرى كيف نجح الفنان في إعطاء هذا النقش مسحة من الهيبة والتأثير، ولكننا نرى أيضًا، البابليين كانوا يلفون أجسامهم في ملابس صوفية ثقيلة ولهذا لم يتيسر للمثال الفرصة لإظهار محاسن الجسم الإنساني.

وإذا أردنا التحقق من نجاح المثالين في إعطاء صورة صحيحة للشبه فإننا لا نستطيع ذلك، لأن تماثيل الأفراد تكاد تكون متماثلة لا فرق بين واحد وآخر. وتضاءلت أيضاً دقة صناعة الأختام بعد أن بلغت أوجها في عصر الملك سرجون وبالرغم من الإقبال على هذه الأختام كسلعة تجارية فإن صناعتها في عصر حمورابي كانت قد بدأت في الانحطاط.

وكان هذا الانحطاط في الفن نذيرًا لما كان على وشك الحدوث، فإن الأمة البابلية التي أحسن حمورابي تنظيمها لم تكد تعمر طويلًا بعد وفاته، فقد نزل قوم غزاة من الشرق على سهل بابل؛ وكان وفودهم تدريجًا في

هجرات متتالية إلى بلاد الهلال الخصيب وخاصة بعد عام ١٩٠٠ ق.م. واستقروا أخيرًا في بابل. وهؤلاء القوم هم "الكاسيون" الذين لم يستطع خلفاء حمورابي صدهم.

وفي الوقت الذي زاد فيه عدد السكان الكاسيين[١] إلى درجة كبيرة منيت بلاد بابل لسوء حظها بغزاة آخرين جاءوا من الشمال الغربي وتقدموا جنوبًا في محاذاة نهري الدجلة والفرات حتى احتلوا بابل ونقلوا ما غنموه منها إلى بلادهم.

هؤلاء الغزاة هم "الحيثيون" الذين لم يقصدوا من غزوهم لبلاد الرافدين احتلالها أو استيطانها بل نهبها في هجمة سريعة عادوا بعدها إلى بلادهم وقد قضوا على آخر ملك من نسل حمورابي.

فلما انسحب الحيثيون من بلاد بابل، وكان ذلك حوالي ١٧٥٠ ق.م لم يجد الكسيون صعوبة في فرض سيادتهم على البلاد، وكان انتصارهم إيذانًا بزوال تقدم البابليين في حضارتهم. وهوت بابل إلى الحضيض وظلت في غفوتها دون أن تفيق حتى ظهرت كلديا على صفحة التاريخ. وهكذا انتهى أول الفصول العظيمة في تاريخ بلاد النهرين، أما الفصل الثاني فإن مسرح حوادثه لم يقع في بابل بل انتقل شمالًا إلى المنطقة التي تعرف باسم "أشور" والتي مانت أثناء حكم مملكة بابل إحدى الدويلات الصغيرة ثم أخذت تتقدم حتى وصلت في النهاية إلى أن تكون قوة عالمية.

---

(١) من المحتمل أن يكون الكاسيون هم الذين أحضروا كثيرًا من النخيل معهم إلى بلاد بابل. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الخيل لم تظهر في مصر إلا بعد ذلك الوقت ببضعة قرون.

الفصل السادس

آسيا الغربية: الآشوريون والكلدانيون

بلاد أشور القديمة ومنافسوها الغربيون

يحملنا الفصل الثاني من تاريخ بلاد الرافدين إلى أعلى النهر، فنترك بابل ونذهب إلى الزاوية الشمالية الشرقية من تلك الصحراء بالهلال الخصيب، فنجد هناك مرتفعًا من الأرض يسهل الدفاع عنه، ذا موقع منيع، لا يتيسر للمدن التي تحيط بها الأرض المسطحة، في سهل شنعار.

تلك هي المنطقة التي يحدها نهر دجلة في الشرق، وتشرف على الصحراء في الغرب والجنوب، وكان اسمها أشور (Assur) ومن ثم أصبح اسم المملكة كلها أرض أشور (Assyria) فيما بعد.

ونظرًا لوقوع أشور في منطقة جبلية مرتفعة فإنها كانت تتمتع بجو أصح من جو بلاد بابل الحار. وكان فيها أودية خصبة التربة تمتد بين ثنايا الجبال الشرقية والشمالية حيث كانت توجد بعض مدن تتنافس فيما بينها. وفي هذه المنطقة نرى مرتفعات جبلية كانت محاجر صالحة لقطع الحجر الجيري والمرمر وغيرها من الأحجار الصلدة، وفي هذا الأمر اختلفت أشور كثيرًا عن بابل التي لم يكن بها أحجار للبناء ولهذا اقتصرت في عمارتها على البناء بالطوب اللبن.

كانت تلك الأودية الشرقية خضراء بما فيها من المراعي وحقول القمح والشعير، وكانت قطعان الماشية والضأن والماعز تنتشر على جوانب التلال، وكانت الحمير هي الحيوانات الأساسية لحمل الأثقال والانتقال من مكان إلى آخر، لأن الحصان لم يكن قد عرف في ذلك الوقت، وهنا– في هذه المنطقة– عاش السكان على الزراعة وتطورت حياتهم في ظلالها، ولككن لم يمنع ذلك سكان بلاد أشور من أن ينشئوا قبل مضي وقت طويل بعض الصناعات ويؤسسوا الصلات التجارية.

لم يكن سكان هذه المنطقة الواقعة إلى الشمال من بلاد بابل من الأصل السامي جميعًا بل كان يعيش بينهم أقوام يتكلمون لغات غير سامية ومن أجناس غير سامية ففي الألف الثالث قبل الميلاد كان يعيش في المكان الذي تقوم فيه مدينة أشور بلدة سومرية عثر على آثار أهلها هناك، وفي الوقت عينه كان أجداد القوم الذين يسمون الأشوريين يعيشون أيضًا في تلك المنطقة ولكننا لا نعرف من أين جاءوا ولا نعرف إن كانوا من الجنس السامي أو من جنس غيره، ولكننا نعرف أنهم كانوا يتكلمون فيما بينهم لغة سامية قريبة من اللغة التي كان يتكلمها أهل أكد حيث قامت أول مملكة سامية قوية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بقيادة الملك سرجون.

وبدأت أشور كغيرها من جاراتها السامية في الجنوب دويلة مستقلة وكانت متأثرة بالحضارة السومرية، واتصلت بغيرها من مدن السومريين،

وكتبوا لغتهم بالكتابة المسمارية، كما أثرت بلاد سهل بابل على سكان أشور في فنون النحت والعمارة.

نرى من ذلك أن أكثر مظاهر الحضارة المبكرة في أشور جاءت إليها من الجنوب، ولكن يجب ألا ينسينا ذلك أنها كانت معرضة أيضًا لتأثيرات من الشمال ومن الغرب، فمنذ منتصف الألف الثاني ق.م. ظهر في آسيا الصغرى أقوام من الحيثيين محبون للحرب، اتجه بعضهم شرقًا إلى بلاد النهرين. وليس بمستبعد أن أشور كانت إذ ذاك في مهب الرياح فتارة تخضع لغزاة من الغرب، ثم لا تلبث أن تقع تحت حكم الدويلات الجنوبية التي تزعمها سرجون ثم ملوك أور ثم حمورابي أو غيره من حكام بابل.

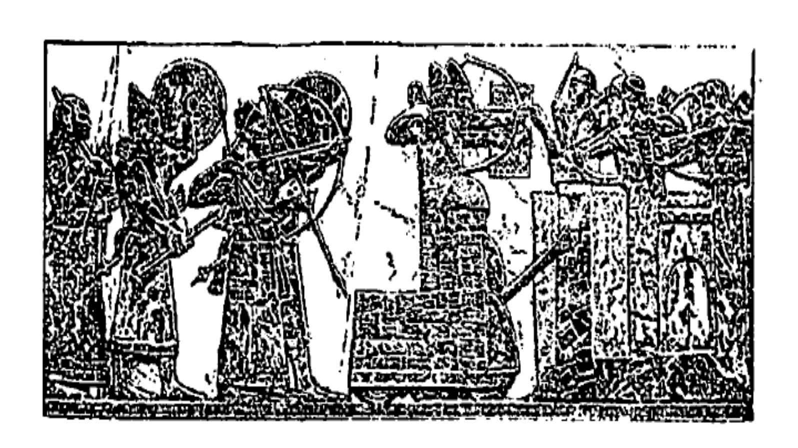
وعلمت هذه الحروب المستمرة أهل أشور كيف يحمون حدودهم في الشمال والجنوب بعد أن ظلوا نحو ألف عام منذ أن استولى سرجون على بلدهم، ولسنا ندهش بعد ذلك إذا رأينا الدولة الجديدة تبني نفسها على أساس حربي فقد كان هناك الجنود غير النظاميين ثم حل محلهم جيش دائم أصبح القوة الرئيسية للحكومة، وتطورت هذه الدولة الحربية إلى تنظيم قوي ثابت لم تؤثر عليه المنافسات التي كانت بين الدويلات، تلك المنافسات التي أضعفت مملكة بابل ثم انتهت أخيرًا بالقضاء عليها.

وبعد أن زال كل أثر للمنازعات صار في استطاعة مملكة أشور أن توجه جميع قواها التي توحدت للقضاء على أعدائها الخارجين، وساعدهم

على ذلك أنهم كانوا قد استخدموا الخيل ثم المركبات في جيشهم، وفي النهاية أصبحوا أعظم قوة حربية رآها العالم القديم.

وفي نفس الوقت أغدقت التجارة، وصلتهم بالشعوب المجاورة، الأموال والقوة على الأمة الناشئة. وكانت قوافل تجارتهم إلى آسيا الصغرى (كليكيا) لأنهم أحبوا الإتجار فيما تدره مناجم الفضة، وعرفوا بذلك طرق التجارة في البلاد الواقعة إلى الغرب منهم وأصبحت أشور مركزًا هامًا على طريق القوافل الذي ربط بين البلاد الجبلية إلى الشرق منهم وبين البلاد الواقعة إلى الغرب منهم. وكان التجار الأشوريون قد حذقوا أساليب التجارة التي وصلت بها دويلة "أور" إلى مستوى عال في عهد ملوك سومر وأكد. وعاش كثيرون من تجار بلاد النهرين في محلات أسسوها في أماكن متعددة في جنوب شرقي آسيا الصغرى في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم "كابادوسيا" Cappadocia حيث كشفت الحفائر عن عدد كبير من الوثائق التجارية في هيئة رقم مكتوبة باللغة المسمارية شبيهة برقم أشور، ونعرف من هذه الرقم أن لهؤلاء التجار الغرباء الذين وفدوا من الشرق كان قد مضى عليهم أكثر من مائتي سنة في تجارتهم في كابادوسيا أي أنهم بدأوا في الوقت الذي زادت فيه سطوة ملوك سومر وأكد. سنرى في الفصول القادمة كيف لعبت هذه المراكز التجارية دورًا هامًا في حمل الحضارة ونشرها في البلاد الواقعة إلى الغرب، ففي كثير من المدن التي في جنوب شرقي آسيا الصغرى نجد رقم التجار الاشوريين، وهذه الرقم أصبحت في دراستنا بمثابة علامات توضح لنا الطرق التي سارت فيها الحضارة من بلاد الرافدين متجهة نحو جنوب شرقي أوربا.

وأدى استغلال مناجم الفضة في كليكيا خدمة كبيرة للتجارة والمعاملات وأثر عليها أثرًا كبيرًا لأن الفضة حلت محل الحبوب كوسيلة للتبادل ولدينا ما يثبت أن بعض القطع المعدنية كانت مختومة بما يدل على وزنها وربما مكان إصدارها أيضًا. وفي نص من النصوص يقارن الامبراطور الأشوري سنحاريب الذي عاش في القرن السابع ق.م صب بعض النقود البرونزية، بصب قطع وزن كل منها نصف "شكل" مما يدل على أن الأشوريين كانوا يسكون القطع ذات نصف الشكل قبل سنحاريب، وتلك القطع كانت دون شك الأصل السابق لعملتنا النقدية.



شكل ٦٤: ملك أشوري يهاجم إحدى المدن المحصنة (القرن التاسع ق.م)

يرجع تاريخ هذا الرسم البارز إلى القرن التاسع ق.م. ونرى فيه كيف وفق الاشوريون إلى أجهزة الحصار. ونرى على اليمين مدينة تحميها أسوار مبنية بالطوب اللبن. ويبذل الرماة الذين يدافعون عن المدينة جهدًا كبيرًا في صد هجوم منجنيق محمول على مركبة ذات عجلات، ولا نرى في الصورة

من تلك العجلات إلى الجزء الأسفل أما باقيها فإنه مغطى بصفائح المنجنيق. وهذه الآلة الحربية ليست إلا "دبابة" قديمة يحمي مقدمتها بوح من المعدن وفي الجزء الأمامي منها برج للهجوم يكاد يصل ارتفاعه إلى ارتفاع أسوار المدينة ويهاجم الجنود الأشوريين الذين في البرج أعداءهم ويرمونهم بما لديهم من سهام بينما يحرك الجنود الآخرون الذين في داخل الدبابة ذراع المنجنيق المصفح بالمعدن ليحدثوا به ثغرة في السور. ويحرك عمليات الهجوم ضابط يجلس في برج المراقبة الذي يعلوه قبة مصفحة بالمعدن وفي تلك القبة طاقات صغيرة لينظر منها. وفي المؤخرة نرى الملك الأشوري يطلق سهامه على المدينة.

وهذا السبب في أن الفنان لم يراع النسب في الرسم، وغالى مغالاة الأطفال فرسم الرجال وكأنهم بلغوا في الطول أسوار المدينة.

كانت أشور تعلق أهمية كبرى على صلتها بالغرب، فلم تكن في حاجة إلى المعادن في تلك البلاد فحسب بل أنها لم يكن في استطاعتها أن تحكم آسيا الغربية، وهي دولة لا شواطئ لها، إلا إذا وصلت إلى البحر الأبيض المتوسط. ولكن كانت هناك عقبتان تحولان بين أشور وبين ذلك البحر، أولاهما مملكة ميتاني التي كانت إلى الشمال الغربي من أشور، وثانيهما الولايات الغنية التي كانت تهتم بالتجارة وكانت تحكم موانى الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

ويجدر بنا ان نتحدث باختصار عن هاتين العقبتين لأن ذلك يكشف لنا عن حركتين كبيرتين لقومين من جنسين مختلفين، كان وجودهما سببًا في توجيه تاريخ العالم المتمدن.

تكونت الطبقة الحاكمة في ميتاني من مجموعة من قوم جريئين يحتمل أنهم كانوا بدوا نزلوا من المراعي الشمالية وكانوا أحفادًا لأوائل الناس الذين تعلموا تربية الخيول، إذ عرف أولئك الأجداد كيف يربون الخيول ويمرنونها على الحرب وعلى جر المركبات الحربية قبل أن يترك أحفادهم بلادهم في الشمال وينزلوا إلى الهلال الخصيب، ولهذا كان ميسورًا لبعض فرسانهم المهرة أن يندفعوا جنوبًا أو غربًا ويهزموا من وقف في طريقهم من سكان منحنى نهر الفرات، واهتم أولئك الناس بتربية الخيول إلى درجة أن أحد الفرسان الذين اشتهر أمرهم بينهم واسمه كيكولي Kikkuli كتب مؤلفاً لمن يربي الخيول، وقد عثر في عاصمة خيتا على جزء من هذا المؤلف على رقم من الطين، وهو دون شك أقدم ما وصل إلى أيدينا من مؤلفات عن تربية الخيول.

وظلوا في أرض الفرا يحكمون البلاد، وكانوا أقدم أرستوقراطية بناها أهلها على تربية الخيول، وفي النهاية جعل فرسان ميتاني من أمتهم ولاية حربية لها خطورتها.

كان استخدام الجواد بدءًا لعصر جديد في بلاد الهلال الخصيب، فعندما كانت تهجم فرقة من العربات تجرها الجياد القوية السريعة وتنزل

كالصاعقة على الجنود المشاة فإنهم كانوا يتفرقون كأوراق الخريف، وهكذا استطاع حكام ميتاني بواسطة مركباتهم الحربية أن يصلوا في انتصاراتهم في الشمال الغربي إلى اختراق حدود "خيتا".

ولم تقف أهمية ميتاني إلى ذلك الحد بل إن موقعها الجغرافي ساعدهما على الوصول إلى أهداف أخرى. فإنها كانت ملتقى الطرق التجارية ودروب القوافل التي تبدأ من أشور وتعبر الفرات في طريقها إلى الغرب. فلم يكن موقع ميتاني يجعلها عقبة كأداء فحسب بل إن ذلك ساعدهما على غزو بلاد أشور فاحتلتها، وكان الأشوريين مدى فترة من الزمن خاضعين لحكمها.

لم يكن الزعماء الميتانيون– بما لديهم من قوة لاستخدامهم الخيل– إلا في الطليعة لهجرات كبيرة قام بها الأقوام الهندو– أوروبيون متجهين نحو الجنوب ونحو الغرب وانتشروا من الهند حتى الجزر البريطانية.

ونحن نعلم أن شعب ميتاني كان يحكم في منتصف الهلال الخصيب حوالي عام ١٥٠٠ ق.م. وأن الميتانيين كانوا شعبًا يمت بأصله إلى الدرجة التي تتفرع منها بعض الشعوب الأوروبية وأنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة الشبه ببعض لغات أوروبا.

واستقر بعض القبائل الهندو– أوروبية في آسيا الصغرى بين الأناتوليين القدماء، أما الميتانيون أنفسهم فكانوا سدًا منيعًا في وجه تجارة

أشور نحو الغرب مدى قرن من الزمان بل ووصل بهم الأمر أن أوقفوا توسع أشور بوجع عام.

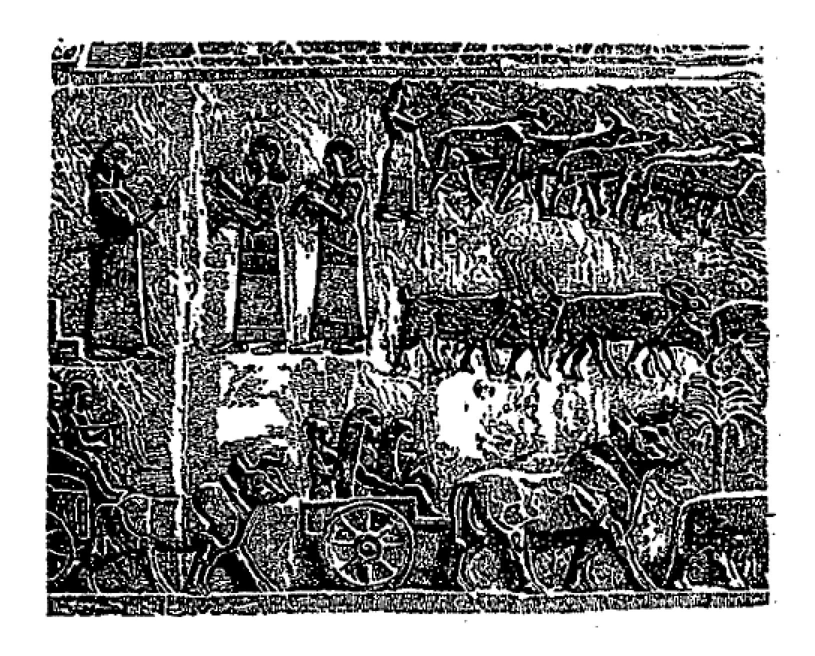
أما العقبة الثانية في توسع أشور نحو الغرب فهي وجود سلسلة من المدن الفينيقية على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، ووجودهم في تلك المنطقة هو أقدم مظاهر تجمع الأجناس الذي كان السبب الرئيسي في تشكيل التاريخ الإنساني ابتداء من ذلك الوقت، إذ نرى الهندو- أوروبيين في الشمال والساميين في الجنوب وبينما كانت أقدم النقط الأمامية للشعوب الهندو- أوروبية كانت في مملكة خيتا في آسيا الصغرى وفي بلاد ميتاني على الفرات، نرى أن توسيع الساميين أوصلهم إلى الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط إذ أصبحت موانئ ذلك البحر التي كانت يومًا من الأيام في أراضي البدو الساميين قد أصبحت سلسلة من الدويلات الغنية ذات التجارات الواسعة في البحار، ومكنتهم أساطيلهم من أن يصبحوا من ذوي الزعامة التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط كله، وأثبتت تلك المدن الفينيقية أنها عدو لملوك أشور لا يستهان به.

وبعد القرن السادس عشر ق.م. كان على الأشوريين أن يواجهوا الأخطار الناجمة عن هجرة جديدة لأقوام ساميين سواء في الناحية التجارية أو في الناحية السياسية.

وأعظم هؤلاء الأقوام أثراهم "الآراميون" الذين نراهم حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. قد أسسوا عددًا من الممالك المزدهرة في الغرب وخاصة في سوريا[١]، واستطاعت تلك أن تبني مدنًا ملكية ذات قصور فخمة بما تيسر لها من أثر الحضارة الحيثية من جهة والحضارة المصرية من جهة أخرى. وإلى جنوبي المنطقة التي استقر فيها الآراميون، أي في فلسطين كان قوم ساميون آخرون– وهم العبرانيون– بدأوا يحتلون الأراضي ويستقرون فيها. وفي أوائل سنة الألف الأول ق.م. كان الآراميون والعبرانيون ، ومعهم الفينيقيون الذين على الساحل احتلوا الجزء الأكبر من الطرف الغربي للهلال الخصيب وباعدوا بين بلاد أشور وبين ساحل البحر الأبيض المتوسط.

---

(١) كثيرًا ما يسمى الآراميون بالسوريين، وتسمى المنطقة الواقعة شمال فلسطين عادة باسم سوريا. وعلى أي حال يجب ألا نخلط كلمتي "سوريا وسوريين" (Syria, Syrians) بكلمتي "أشور وأشورويين" (Assur, Assyrians).



شكل ٦٥: كتاب أشوريون وأراميون يسجلون الغنائم المستولى عليها من إحدى المدن الأسيوية (القرن الثامن قبل الميلاد)

يركب الأسرى من نساء وأطفال فوق عربات تجرها الثيران في طريقهم إلى الرق في بلاد أشور، ويسوق أحد الرعاة القطعان التي استولوا عليها. وإلى أليسار يقرأ ضابط أشوري من رقيم في يده، مذكراته على الغنائم التي استولوا عليها في المدينة، ويقف أمامه كاتبان يدونان ما يقول. ويمسك أول الكاتبين في يده بلوح سميك من الطين (= رقيم) رفع منه القلم الذي يقبض عليه بين أصابع يديه اليمنى. أما الكاتب الثاني فإنه يفرد فوق يده اليسرى قرطاساً من البردي يكتب عليه بقلم في يده اليمنى. وهذت الكاتب الثاني أرامي يكتب باللغة الآرامية بالقلم والحبر. ويمثل هذان الكاتبان طريقتي الكتابة اللتين كانتا سائدتين في ذلك العهد في غرب

آسيا، احداهما الطريقة الاسيوية وهي الكتابة على الرقم التي كانت في طريقها إلى الزوال والثانية الطريقة المصرية أي استعمال الورق والحبر والقلم التي أخذت تعم العالم.

وامتد نشاط التجار الأراميين إلى خارج بلادهم، وذهبت قوافلهم إلى جميع البلاد الواقعة على الخليج الصحراوي حتى وصلوا إلى منابع نهر الدجلة وأخيرًا أصبحت تجارة غرب آسيا في أيديهم. وكثيرًا ما يعثر الباحثون على وزناتهم البرونزية بين خرائب نينوي مما يدل على وفرة عدد التجار الآراميين في الأٍواق الأشورية، وكانوا مثل أقاربهم اليهود في الأمم الحديثة المتحضرة، أصحاب النفوذ والزعامة التجارية في عصرهم ولكن اليهود الحاليين يختلفون عن الآخرين في أنهم يعيشون كأمة واحدة مثل الآراميين.

كان الآراميون جنساً ذا حظ عظيم من الحضارة. وفي عام ١٠٠٠ ق.م. بل وربما قبل هذا التاريخ بعدة قرون– كانوا يستعملون كتابة ذات حروف أبجدية تعلموها من الكنعانيين أو الفينيقيين، وهذه أقدم أنواع الكتابة التي استعملت حروفًا أبجدية فقط[١] وتعلم الآراميون من المصريين استعمال القلم الحبر وهي أشياء لا غنى عنها في استعمال الأبجدية الجديدة. وكما كانت قوافل البابليين تحمل الرقم المسمارية إلى جميع بلاد آسيا الغربية، فإن قوافل الآراميين بدأت تحمل إلى كافة أنحاء تلك المنطقة

---

(١) كان هذا صحيحًا قبل اكتشافات رأس شمرا في شمال سوريا (المعرب).

المطالبات التجارية والإيصالات محررة بالأبجدية الجديدة التي أخذت تحتل مكان العلامات المسمارية.

وهكذا انتشرت الأبجدية الفينيقية- الآرامية في جميع بلاد آسيا الغربية، وذهبت من الفرات إلى إيران بل وصلت إلى حدود الهند وأمدت شعوب شرقي الهند بالأبجدية السنسكريتية (Sanskrit) وبهذا كان للأراميين فضل نشر تلك الأبجدية الشرقية الأصل في كتابات جميع أبجديات الأمم المتحضرة الواقعة إلى الغرب من بلاد الهند.

وحمل التجار الأراميون لغتهم (اللغة الأرامية) معهم أينما ذهبوا فانتشرت تدريجيًا حول الخليج الصحراوي، ومن الحقائق الهامة أن اللغة الأرامية انتشرت في المدن الأشورية القديمة حتى أصبح المتكلمون بها أكثر عددًا ممن يتكلمون اللغة الأشورية نفسها.

وعندما كان يتلقى تاجر أرامي رقيماً عليه بعض ما يتعلق بعمله التجاري محرراً باللغة الأشورية، فكثيرًا ما كان يمسك بقلمه ويخط عليه مذكرات بالآرامية، وقد عثر الأثريون على كثير من هذه الرقم الأشورية التي خط عليها أصحابها مذكرات بالأرامية في خرائب المباني الأشورية، وانتهى الأمر بأن اللغتين الأشورية والأرامية أصبحتا تستعملان جنبًا إلى جنب في الأعمال التجارية، واستخدمت الحكومة عدداً من الكتبة الأراميين في الوظائف، وكان من الأمور المألوفة جداً أن يرى الإنسان موظفًا أرامياً في الحكومة الأشورية، يكتب سجلاته على البردي يسطر ما

يشاؤه بالقلم والحبر بينما يكتب زميله في العمل سجلاته على رقيم من الطين.

وأخيراً أصبحت الأرامية لغة الهلال الخصيب كله، وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين. وهي لغة شقيقة ومشابهة للآرامية– وأصبحت لغة التجار الأراميين بعد مضي عدة قرون اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويهود عصره في فلسطين. ووصلت هذه اللغة أيضاً إلى بلاد خيتا إذ عثر في ساردس (Sardes) في غرب آسيا الصغرى على شاهد قبر عليه نقش باللغة الأرامية، وفي نهاية الأمر انتشرت حضارة الأراميين التجارية انتشاراً واسعاً وتركت وراءها مؤثرات خلدت على الأيام أكثر مما تركته دولة أشور الحربية.

ومما يدعو إلى الأسف أن أكوام المدن الأرامية في سوريا لم يتم حفرها كلها بعد، ولهذا لم يصل إلى أيدينا إلا آثار قليلة لتحدثنا عن تاريخ تلك المدن وما زالت دمشق حتى الآن أعظم المدن السورية إذ يبلغ تعداد سكانها أكثر من ثلاثمائة ألف شخص، ولكن بقايا المدينة الآرامية ما زالت تحت بيوت المدينة الحالية ومن المستبعد جداً أن يكشف أحد عن دمشق القديمة.

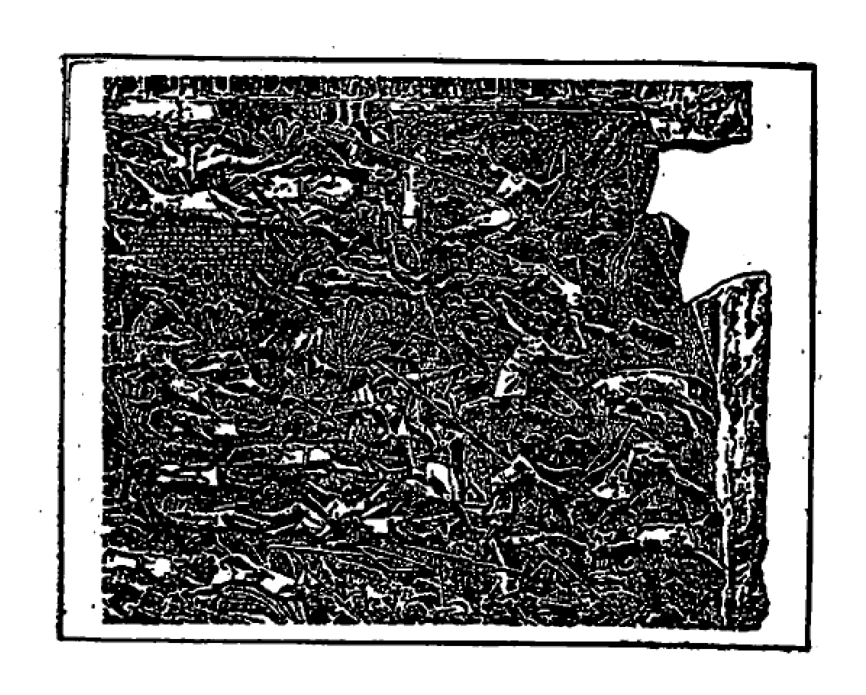
ونحن نفهم الآن كيف وقف الجيش الأشوري ينظر إلى تلك الصفوف المتراصة من الدول المعادية، وكيف رأى نفسه في موقف يفت في عضد أية أمة مهما تحلت بالشجاعة، فكان أمامهم مباشرة حكام ميتاني ثم الأراميون

والفينيقيون، وخلف هذه الشعوب قوتان عظيمتان، مصر في الجنوب الغربي وخيتا في الشمال الغربي.

ففي القرن الخامس عشر ق.م. كانت الإمبراطورية الحيثية منافساً قوياً لمصر، ووقف الأشورية ينظرون إلى الصراع بين هتين القوتين على امتلاك الطرف الغربي من الهلال الخصيب إلى أن انتهت المعركة بينهما في القرن الثالث عشر ق.م. دون نصر حاسم لأحديهما.

ورأى الأشوريون كيف أنهكت الحروب قواهما، وما جاء عام ١٢٠٠ ق.م. حتى ضعفت كل منهما وزاد في ضعفهما غزو آخر جديد هدد كلا منهما فانهارت امبراطورية خيتا وتلتها الإمبراطورية المصرية بعد نصف قرن من الزمان.

ورأت ميتاني في البداية أن مصلحتها تقتضي انضمامها إلى جانب مصر ولكنها لم تحتمل الثبات في مهب المنازعات الدولية الكبيرة وانتهى الأمر بسحقها، وكان المتنافسون في حلبة الشرق الأدنى ثلاثة هم مصر وأشور وخيتا، وكان تنافس ثلاثتهم قوياً عنيفاً، ولم يأت عام ١١٥٠ ق.م. حتى كانت القوتان الغربيتان قد انسحبتا من الميدان تاركتين أشور وحدها لتصبح الوارثة لإمبراطورية الشرق.



شكل ٦٦: جنود أشوريون يطاردون أعداء هاربين وصلوا إلى مجرى ماء

يملأ مجرى الماء النصف الأيمن من هذا الرسم وقد ميزه الفنان الأشوري بما رسمه في أرضيته من أسماك وموجات، وما كان يعوم على سطح الماء من جعاب وسهام جنبًا إلى جنب مع جثث جوادين، نرى أحدهما عائماً على ظهره وقد ارتفعت أرجله في الهواء. ونرى أيضاً جثتي رجلين حملهما التيار وفي أجسادهما غرست السهام. وهناك ثلاثة من الأحياء يحاولون الوثوب إلى الماء في الوقت الذي عاجلهم فيه الجنود بطعناتهم بالحراب أو رميهم بالسهام. ويحمل حملة الحراب الأشوريون دروعاً كالآخرين. ونرى الموتى مبعثرين على الأرض على شاطئ المجرى في الجهة اليسرى من الصورة، وأخذت النسور تنقر عيون القتلى، وفي وسط الصورة نرى جندياً أشورياً يقطع رأس عدوه وإلى جانبه جندي أخر وضع رجله

على جسد ميت وأخذ يسرق ما معه من أسلحة. ولم ينس الفنان أن يرسم الزرع الذي كان على ضفة الماء فنراه واضحاً بين الجثث كما نرى الأسلحة مبعثرة أيضاً في وسط الشجيرات.

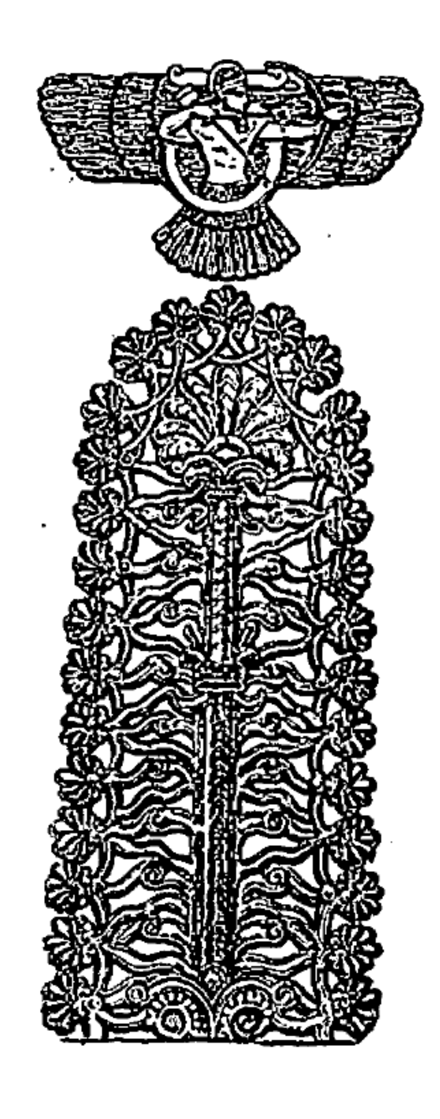
وبعد أن سقطت كل من ميتاني مصر وخيتا. بقي الفينيقيون والآراميون وجهًا لوجه أما أشور. وكانت دمشق مقر الملوك الأراميين الأقوياء الذين جمعوا ثروات طائلة من التجارة، وحضروا مدينتهم تحصيناً جعلها قادة على الوقوف في وجه أي تقدم أشوري نحو البحر الأبيض المتوسط. ولنضرب مثلًا لتوضيح أثر هؤلاء الملوك وهو نجاح دمشق في حماية مملكتي العبرانيين الصغيرتين لمدة طويلة من الزمن من غزو الأشوريين.

سارت الجيوش الأشورية وعبرت الفرات حوالي عام ١٥٠٠ ق.م. ووصلت إلى البحر الأبيض المتوسط حوالي عام ١١٠٠ ق.م. ولكن ظل ملوك أشور مدى ثلاثة قرون ونصف قرن عاجزين عن غزو وإخضاع هذه المنطقة الغربية إخضاعاً تاماً بسبب وجود الممالك الأرامية والفينيقية والعبرية، فقد وقفت هذه الممالك في وجه الجيوش الأشورية حتى القرن الثامن ق.م.

وبعد عام ١٠٠٠ ق.م بقليل، كانت قوة أشور على وشك أن تبدأ في تكوين إمبراطوريها، ولنقف الآن قليلاً وننظر إلى الوراء لنستعرض ما أحرزته أشور من تقدم في مدى ألفي سنة. كانت أولى آلات الأشورين بين المعدنية مصنوعة من النحاس مثل باقي الشعوب القديمة. وخلال الآلف

الثالث ق.م. استعمل الأشوريين البرونز بكثرة وبدأوا منذ ذلك التاريخ يصنعون من هذا المزيد المعدي أدواتهم وأسلحتهم حتى عام ١٠٠٠ ق.م. تقريباً ولهذا كانت أسلحة الجنود الأشوريين الذين ساروا للحرب نحو الغرب قبل الألف الأول ق.م. مصنوعة من البرونز، ولكنهم استعملوا بعد ذلك التاريخ أسلحة من الحديد.

كان الحديد معروفاً للإنسان منذ عصر ما قبل الأسرات، وعثر على أداة منه مدفونة بين أحجار هرم الجيزة الأكبر، فقدها أحد العمال القدماء الذين كانوا يعملون في بنائه، ولكن ظل استعمال الحديد نادرًا حتى اكتشف الحيثيون مناجمه وطريقة استخلاصه وصناعته في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى. ووزع ملوك خيتا هذا المعدن في جميع بلاد الشرقي الأدنى ابتداء من القرن الثالث عشر ق.م. ومن ذلك نرى أنه في القرون القليلة التي تلت عصر الحديد (Iron Age) أخذت أشور تستعد لتوسعها نحو الغرب، وكان استعمال الحديد في أدواتها الحربية عنصراً هاماً في نجاحها في الحروب.



شكل ٦٧: رمز الاله أشور

فوق الرسم الاشوري لشجرة الحياة نرى في أعلى الرسم قرص الشمس المجنح الذي استعاره الاله أشور كرمز له من الفن المصري ونرى الاله يرمي الأعداء بسهامه وتحت رمز الاله، نرى رمز شجرة الحياة التي

تجعل منها الفنان الأشوري رسماً مزخرفاً بنخلة تقوم في الوسط ويتفرع منها الجريد وأوراقه وخاصة في الجزء العلوي، وضفروا الأوراق على الجوانب أيضاً في شكل متناسب جميل.

وأخذ اليونان هذا الرمز عن الأشوريين واستعملوا هذا الرسم كثيراً فيما بعد فنهم.

ولم يقتصر فضل الغرب- وبخاصة الحيثيين- على الأشوريين في تعريفهم ومدهم بالمعادن بل أنهم قدموا للحياة الأشورية أشياء أخرى من مقومات الحضارة، فمثلاً تعلم الأشوريون من الفن الحيثي الذي كان في شمال سوريا، كيف يقصون أعمال الملك وما أتاه من شجاعة في صورة كبيرة منقوشة على أحجار عظيمة من المرمر كانوا يضعونها في صفوف لتزيين جدران القصر.

وكذلك كان الحال في العمارة. فقد كان لوجود الحجر في أشور أثر مكن الأشوريون لمبانيهم أساسات ضخمة من الحجر كما كان يفعل الحيثيون والسوريون من قبلهم، أما الأبنية نفسها فاستعملوا في بنائها الطوب متبعين في ذلك ما كان يفعله البابليون من قبلهم.

واقتبس الأشوريون من أهل بابل كثيراً من القصص الدينية ورموز الآلهة فقلدوها ودرسوها واحترموها، ولكنهم لم يفرطوا في إله قبليتهم القديم- الإله آشور- الذي أطلقوا اسمه على مدينتهم وعلى قبيلتهم.

وعندما كان الأشوريون في مجموعهم زراعاً يعملون في الأرض، وذلك في أوائل أيامهم، ظنوا إن إلههم أشور إله الزراعة التي تحيا ثم تموت ثم يكتب لها الخلود مثل الإله أوزيريس في مصر.

ومهما كان الأمر فإن شجرة الحياة كانت أقدم رمز للإله آشور، وكان الأشوريون يقيمونها ويزينونها عند حلول فصل الربيع كما نفعل بعامود شهر مايو (Maypole). وعندما أصبحت بلاد أشور فيما بعد أمة حربية رأوا في إلههم أشور إله حرب لا يرحم واعتقدوا أنه هو إله الشمس. فكان هذا الإله يقود الملوك الأشوريين إلى النصر ويطلق سهامه القاتلة على العدو فيفتك به. أما الرمز الخاص به فإن الأشوريين نقلوا الشمس المجنحة عن الحيثيين الذين كانوا في شمال سوريا، والذين كانوا قد نقلوها بدورهم من مصر.

وكانت الإلهة "عشتر" هي أعظم الإلهات في أشور، فكانت ألهة الحب، وقد أخذوها عن البابليين.

لم يكن للديانة بين شعب أشور ذي النزعة الحربية القوية، إلا أثر قليل على أخلاق الناس، وكان الأشوريين في هذا مثل من سبقهم من البابليين. ويرجع السبب الأكبر في ذلك إلى أن كلا الشعبين تشابه في عقيدته عن الحياة الأخرى وأنهم لم يؤمنوا بأنه سيكون هناك حساب في الآخرة. أما موتاهم فكانوا –مثل البابليين– يدفنوهم تحت أرضية المنازل التي كانوا يعيشون فيها.

وكشفت الحفائر في مدينة أشور عن عدد من الأقبية المبنية بالطوب تحت أرضية القصر الملكي، ووجدوا في تلك الاقبية أجزاء من توابيت حجرية كبيرة الحجم، وتلك التوابيت هي بقايا أقدم المقابر الملكية التي ظهرت حتى الآن في بلاد آشور، لأن جثث ملوك أشور الأقوياء كانت موضوعة في تلك التوابيت، أولئك الملوك الذين عاشوا وحكموا وبنوا هناك قبيل نهاية ألفي سنة من التطور الذي مهد لظهور الإمبراطورية الأشورية.

وفي خرائب المدينة الملكية التي عاش فيها الملك سرجون الثاني (٧٢٢- ٧٠٥ ق.م) عثرت بعثة المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاجو على رقيم مسماري فيه جدول بأسماء ملوك أشور وعددهم مائة وسبعون. حكم أولهم في أواخر الالف الثالث ق.م.

وبدأ كاتب هذا الجدول يدون سنى حكم كل ملك ابتداء من أحد الملوك الذين حكموا في أوائل الالف الثاني قبل الميلاد، وعندما يتم نشر هذه الوثيقة نشراً علمياً صحيحاً سيكون لدينا تقويم دقيق إلى حد لا بأس به مدى خمسة عشر قرناً من التاريخ الأشوري.

الإمبراطورية الأشورية

كان هدف التوسع الأشوري الأول هو اخضاع الغرب بغية الحصول على موقع حصين على البحر الأبيض المتوسط. وأملًا في السيطرة على الطرق التجارية بين الشرق والغرب، فطالما أجبرت الأمم المجاورة المعادية التي تقطن الشمال والشرق والجنوب الملوك الأشوريين على أن يبعثوا

بقواتهم وجيوشهم إلى هذه المناطق. ومن خلال القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. كان الصراع محتدماً بين الإمبراطوريتين المصرية والحيثية حول احتلال مركز الصدارة في الغرب، ولكن الحكام الأشوريين رأوا أن يظلوا في الشرق، وحاولوا أن يقووا موقف آشور هناك. بيد أنه عندما وجه الأشوريون أنظارهم ثانية إلى التوسع والغزو صوب الغرب، كانت قوة آشور في الشرق في خطر دائم، ومن ثم اضطر الملوك إلى أن يقوموا بحملات تأديبية ضد بابل وعيلام، والولايات الصغيرة في جبال زاجروس، أو أورارتوا (Urartu) في شمال أرمينيا. وفي خلال القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م. أصاب أشور لإنهيار وانحلال نتيجة لغزو قام به الأراميون الذين كانوا يقطنون الطرف الشرقي للهلال الخصيب. ولكن ما إن حل القرن التاسع حتى كانت جيوش أشور بدأت تسير للحرب. وعندما شرعت الإمبراطورية الأشورية في وضع خططها للتوسع تجاه الغرب موضع التنفيذ، أنشأت الممالك الغربية أحلافاً عدة لصد تقدم الغزاة من الشرق. بيد أن دمشق أهم مدينة في الغرب والمدينة التي طالما كانت في مقدمة المدن التي قادت المقاومة، سقطت عام ٧٣٢ق.م. ولم تلبث البلاد الغربية أن أخضعت إخضاعاً تاماً وأصبحت تحت سلطان الامبراطورية الأشورية.

وفي وسط الحملات الغربية. وأثناء حصار السامرة، تلك المدينة العبرية المنكودة توفى الملك الأشوري (٧٢٢ ق.م) وعند ذلك آل العرش لابنه، الذي تلقب عندما تولى العرش باسم سرجون تيمنا باسم سرجون السامي الذي كان أول الحكام العظام لبابل، والذي حكم قبل ذلك بألفي سنة، ووصلت الإمبراطورية الأشورية على يد سرجون هذا الذي نعرفه

باسم سرجون الثاني إلى ذروة مجدها وغاية سطوتها كإمبراطورية عسكرية. وكان خلفاؤه أعظم الأباطرة الأشوريين[1]، وبنى سرجون الثاني قصراً ملكياً جديداً في شمال شرق نينوي. وكان هذا القصر أكبر القصور التي عرفتها آسيا إلى ذلك الحين وأكبرها اتساعاً وأعظمها رونقاً وبهاء.

ولقد أطلق عليه اسم دورشاروكن (dur-Sharrukin) (سارجونبرج saragonbung) وكانت مساحة فنائه ميلاً مربعاً، تكفي لإيواء عدد من الشعب يبلغ تعداده ثمانين ألفاً، وأما مبنى القصر نفسه فكان يشغل مساحة خمسة وعشرين فداناً. وهذا ما لم يحط به بابل في أوج عظمتها وازدهارها إذ لم يكن لها مركز للحكم مثل هذا، وهكذا أصبحت أشور من نواح متعددة سيدة بلاد غرب آسيا.

ولكن عظمة سرجون الثاني هذه كانت دون مجد ابنه سنحاريب الذي كان سياسيًا من أعظم ساسة الشرق الأدنى القديم. وكان اسمه ذائعاً مرهوباً بين شعوب البلاد التي في آسيا الصغرى، إذ قام بحملات نهب فيها مدينة طرسوس Tarsus والحصون الإغريقية الأيونية التي تقع في أقصى الشرق وكان ذلك بعد عام ٧٠٠ ق.م. بقليل وبعد ذلك أخذت حملاته تتقدم

---

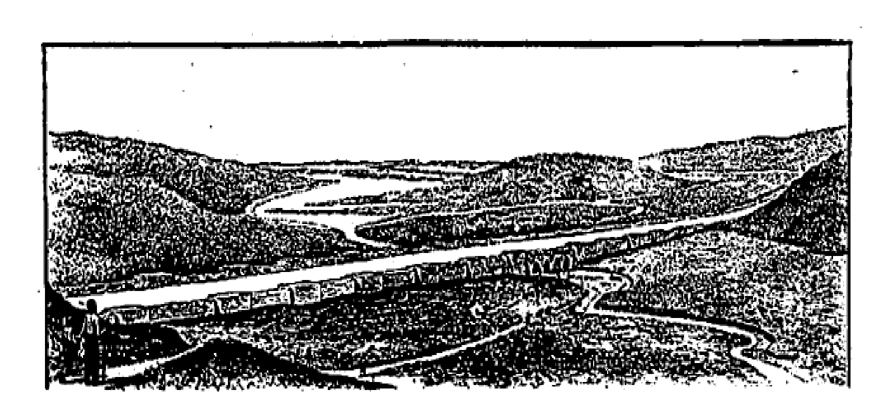
(١) أهم ملوك أسرة راجون الثاني هم:-

سرجون الثاني Sargon II	٧٢٢- ٧٠٥ ق.م
سنحاريب Sennaachrib	٧٠٥- ٦٨١ ق.م
أسر حدون Esarhaddon	٦٨١- ٦٦٨ ق.م.
أشور باني بال Assurbanipal	٦٦٨- ٦٢٦ ق.م.

(ويطلق عليه الاغريق سارادنا بالس Sardanapalus

نحو الجنوب، فاستولت على المدن الفينيقية الساحلية التي تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحدود المصرية. وفي الواقع قضى وباء على جزء عظيم من جيش سنحاريب، جاءهم هذا الوباء من مستنقعات الدلتا. ذلك الوباء الذي نظر إليه العبرانيون على أنه ملاك الرب (يهوى) وهذا هو السبب في أن سنحاريب لم يعبر حدود مصر. بيد أنه اتخذ سياسة حازمة قوية عنيفة إزاء مدينة بابل، عدوته القديمة. إذ كانت هذه المدينة تقوم بثور بعد أخرى ما جعل سنحاريب يصمم على القضاء على مدينة حمورابي قضاء مبرماً، بل لم يجد بأساً من أن يحول مجرى إحدى القنوات لتغمر أطلال هذه المدينة التي فر عنها أهلها فأضحت اطلالاً فوق اطلال.

وهكذا باتت بابل أثراً بعد عين. ولكن القوة التي تكمن في النيل ظلت مصدر خطر على التوسع الأشوري. فكانت جميع الولايات التابعة للإمبراطورية الأشورية ترزح تحت عبء باهظ من الجزية التي فرضت عليها، ولهذا فلم يكن من العسير على مصر أن تثير الفتن بين هذه الشعوب الغربية التي ناءت بتلك الأعباء. تلك الشعوب التي كانت يحدوها الأمل في التخلص من وطأة هذه الجزية. ورأت أشور أن تدخل مصر يجب أن يوقف عند حده ومن ثم ظهر ابن سنحاريب أمام أبواب القلاع الشرقية في الدلتا عام ٦٧٤ ق.م. ولقد صد أول الأمر ورد على أعقابه، ولكن عاود الهجوم، ورغم أنه مات قبل أن يدخل الدلتا إلا أن مصر سقطت في النهاية فريسة للجيوش الأشورية، وأصبح حفيد سنحاريب لفترة من الزمن سيد النيل الأدنى.



شكل: ٦٨- أقدم القنوات الصناعية المعروفة: أنشأها الملك سنحاريب

اكتشف المعهد الشرقي بجامعة شيكاجو أطلال هذه الاعجوبة التي تدل على المهارة الهندسية الفائقة في عام ١٩٣٣. وكانت هذه القناة جزءاً من مشروع سنحاريب الهائل للري والذي كان يقصد من ورائه مد الحقول التي كانت حول نينوي بالمياه من الجبال الشمالية التي تبعد ثلاثين ميلاً. ولما وجد المهندسون الأشوريون أنه لا بد من نقل المياه فوق نهر صغير أنشأوا قناة حجرية هائلة يبلغ طولها حوالي ١٠٠٠ قدم وعرضها ٨٠ قدماً. وهكذا لم تكن المياه تجري فوق النهر الصغير وكأنها فوق قنطرة فحسب، بل كانت تجري أيضاً عبر وادي النهر الذي كان يبلغ اتساعه ١٠٠٠ قدم.

صورة لما كانت عليه عند تصميمها- عن سيتون لويد Seton Lioyd.

ولم يأت عام ٧٠٠ ق.م. حتى كانت الإمبراطورية الأشورية تحكم الهلال الخصيب بأسره وامتدت حول الخليج الصحراوي بل وشملت فضلًا عن ذلك مساحة عظيمة من المناطق الجبلية الشمالية الواقعة بعدها وأدى إخضاع مصر إلى ضم وادي النيل الأدنى في الغرب. ولكن مصر كانت بعيدة جداً وكانت أصعب من أن يحتفظ بها لوقت طويل ولما كانت الغزوات والفتوحات الأشورية تستند إلى قوة عسكرية مستمر، فقد كان في مقدورها أن تبقى خلال جبلين كاملين- بعد سرجون الثاني، فقد كونت هذه الفتوحات أعظم الامبراطوريات التي عرفها العالم اتساعاً وسطوة.

ولم يكتف سنحاريب بتوسيع نطاق القصور الملكية القديمة التي آلت إليه عن أجداده سواء في أشور أو سارجنبرج. بل كرس جهوده لإصلاح وتجميل مدينة نينوي في شمال أشور. وجعل منها عاصمة الإمبراطورية الأشورية الذائعة الصيت، لكي يضمن للمدنية مورداً مائياً كافياً وصلها بالأنهار التي تجري من الجبال الشمالية وذلك ببناء قناة صناعية هائلة.

وقامت على ضفاف نهر دجلة قصور ضخمة هائلة ومعابد ذات أبراج مرتفعة مما أقامه الأباطرة الأشوريون، وكانت أسوار نينوي الشاهقة الضخمة التي أنشأها سنحاريب تمتد قرابة ميلين ونصف على ضفاف نهر دجلة، كما أن طول هذه الأسوار داخل المدينة بلغ قرابة ثمانية أميال. وجعل سنحاريب من قصره الفخم مركزاً يحكم منه العالم الآسيوي وجميع الشعوب الخاضعة له، بيد من حديد.

وكانت إدارة هذه الإمبراطورية بأسرها تتركز في ديوان الملك، الذي وضع نظاماً للرسل الملكيين. وشرع في إنشاء الطرق وتمهيدها. وكان ذلك أول عهد لآسيا بإنشاء الطرق وما زال أحد هذه الطرق باقياً إلى الآن أنشأه سرجون الثاني ليصل نينوي بمدينة القصر، سارجنبرج، وعين الملك في جميع النقط الهامة على الطرق الرئيسية موظفين ليقوم كل واحد منهم بالأشراف على جميع الأعمال الملكية وبتيسير إجراءاتها، وبهذه الطريقة أمكن ضمان سهولة أمر انتقال الرقم البريدية، والمحاصيل والبضائع التي تتعلق بالقصور الملكية. وكان هذا النظام بداية لنظام البريد الذي كان له أن يبقى معمولاً به عدة قرون في الشرق الأدنى. وكان الامبراطور الأشوري

يتسلم الرسائل ويتلقى التقارير من أكثر من ستين حاكماً للولايات والمناطق التي كانت تحت حكمه، وذلك عدا الرسائل التي تصله من عدد كبير من الملوك المغلوبين الذي كان يسمح لهم في بعض الأحيان أن يظلوا في مراكزهم وعلى عروشهم تحت السيطرة الأشورية، ومما وصل إلى أيدينا، عدد من الرسائل التي كتبها سنحاريب نفسه، عندما كان ولياً للعهد، وأرسلها إلى أبيه الملك سرجون.

وكان هدف الدولة ومهمتها الكبرى هو الاحتفاظ بجيش قوي وفي الواقع كانت الدولة عبارة عن جهاز عسكري هائل، يلقى الرعب في قلوب الناس بدرجة لم يعرفها العالم حتى ذلك التاريخ. ويمكن أن تتصور مثل هذا الموقف، وأن نقربه إلى أذهاننا إذا تخيلنا أن وزارة الحربية تصبح الإدارة الحكومية المركزية في عاصمة المملكة وأن الحكومة كلها تكرس جهودها في هذا السبيل. وهنا يجدر بنا أن نعيد ذكر حقيقة هامة ساعدت في الوصول إلى هذه النتيجة، وهذه الحقيقة هي أنه نتج من التقائهم بالحيثيين في الغرب أن بدأ استعمال الحديد بين الأشوريين ومن ثم كانت القوات الأشورية هي أقدم الجيوش الكبيرة في العالم التي زودت نفسها بأسلحة حديدية.

وفي قاعة واحدة لحفظ الأسلحة في قصر سرجون عثر على ما يقرب من مائتي طن من الأدوات الحديدية، ولهذا يمكننا أن نقول أن قيام الإمبراطورية الأشورية وسيادتها كان إلى حد كبير راجعاً إلى ظهور الحديد واستخدامه.

كان الجزء الأعظم من الجيش الأشوري يتكون من رماة يعضدهم جنود من حاملي الرماح المدججين بالسلاح وحاملي الدروع. وإلى جانب هؤلاء كان الفرسان وراكبو العربات من نينوي الذين كانوا بمثابة السوط الذي يلهب ظهر الشرق ولأول مرة في التاريخ استخدم الأشوريون المنجنيق وغيره من آلات الحصار وكان من اليسير على هذه الآلات أن تصدع الأسوار الطوبية في المدن الأسيوية تلك الأسوار التي جففتها حرارة الشمس، وتفتح فيها الثغرات، وكان من العسير أيضًا على أية قلعة مهما كانت مناعتها أن تقاوم طويلاً هجوم المشاة الأشوريين الذين اشتهروا بالشدة في الحروب.

فإلى جانب الأسلحة الحديدية والآلات الحربية اتسم الجنود الأشوريون بقسوة فطرية خاصة ألقت الرعب والهلع في نفوس أهل غرب آسيا وجعلتهم يفزعون من ذكر قوات النينويين[1] وأينما ذهبت الجيوش الأشورية تركت وراءها ذيلاً من الخرائب والأطلال. وبين الأكوام التي يتصاعد منه دخان الحرائق والتي كانت يوماً ما مدناً عامرة؛ وضعوا صفوفاً متراصة من القوائم الخشبية علقوا عليها جثث الحكام الثائرين بعد سلخ جلودهم وهم أحياء، بينما ارتفعت حولهم أكوام القتلى؛ التي وضعها الجنود الأشوريون فوق بعضها ليشيدوا بذكرى النصر العظيم. ويحذروا الآخرين من الاحتجاج أو الثورة. وخلال سحب من الغبار، ارتفعت على جميع الطرق الرئيسية في سائر أنحاء الإمبراطورية، رأي سكان الممالك

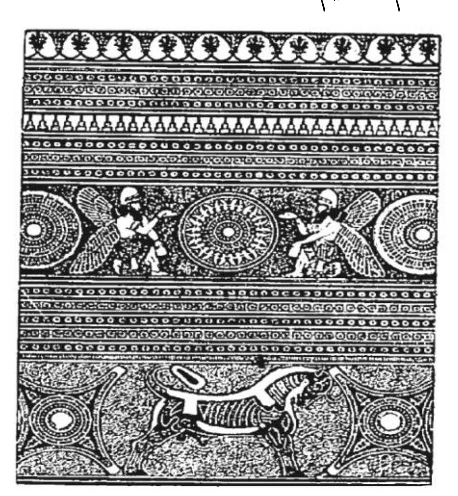
([1]) انظر ناخوم فصل ٣ و ٢– ٣.

المهزومة قطعاناً ضخمة من الماشية، والخيل والحمير، والماعز، والخراف؛ ومعها قوافل طويلة من الجمال المحملة بالذهب والفضة التي استولوا عليها من البلاد المهزومة وتجتمع كل هذه وتلك في قصر الملك في نينوي. ويسير أمام هذا الركب زعماء هذه الممالك المغلوبة؛ وقد ربطوا حول أعناقهم رؤوس أمرائهم السابقين التي فصلوها عن أجسادهم، ولا شك أن هذه الثروات المسلوبة كانت ضرورية لقيام الجيش وسد حاجاته، ولكنهم استخدموها أيضًا في أغراض أخرى غير حربية.

كانت القصور الأشورية منشآت معمارية توحي إلى الناظر بقوة منشئيها الطائلة وكانت الأقواس الثلاثية تقام في مدخل القصور الأشورية. وكانوا يغطون جدرانها بطبقة من الطوب المزجج ذي الألوان الزاهية، وكانت هذه الأقواس هي الأصل الذي أخذ عنه الرومانيون فيما بعد عندما أقاموا أقواس النصر. وعلى كل من الجانبين قامت تماثيل من المرمر على هيئة ثيران ذوي رؤوس آدمية؛ وفوق كل هذا ترتفع أسوار شاهقة تعلوها الأبراج مبنية من الطوب المحروق. يراها الناس في المدينة الملكية من مسافة بعيدة.

أما في داخل القصر فقد كان هناك افريز سفلي مزخرف يمتد على الجدران مئات من الأقدام وعليه صور بارزة منحوتة في المرمر. وعثر المنقبون الأثريون في نينوي في تل واحد على واحد وسبعين ردهة من ردهات القصر، وأزاحوا النقاب عن ميلين من هذه الصور البارزة المرمرية التي نقلوا كثيراً منها إلى المتحف البريطاني.

وتمثل هذه النقوش أعمال الأباطرة سواء في الحروب أم في ميادين الصيد، وتتشابه الصور الآدمية تشابهاً يبعث على الملل وقلما نرى إحساساً على الوجوه، وربما كان الطابع الرسمي للصور وحجمها الكبير، حائلاً دون رسم صور معبرة دقيقة، وعلى أية حال فإن الحيوانات المفترسة التي نحتها المثالون الأشوريون كانت ناجحة ونجح هؤلاء في إظهار طباعها القاسية. ولقد سرت طبيعة النمر في دماء الأشوريين حتى ظهرت في رسومهم المنحوتة. ومن جهة أخرى. تعتبر التعبيرات العاطفية للأم والعذاب التي تظهر في ملامح بعض هذه الأشكال الحيوانية الرائعة. نصراً فنياً جليلاً. وإن كان المرجح أن المثال الأشوري قد توصل إليه إلى حد ما عن طريق دراسة الأسود والثيران الفخمة التي كانت ترسم على الأختام البابلية القديمة في عهد سرجون الأول منذ ألفين من السنين، وحقيق بنا أن نقر بأن تصوير الحيوانات في فن النحت الأشوري قد فاق مثيله في أي شعب من شعوب العالم القديم.



شكل: ٦٩- زخرف حائطي في دار موظف في بلاط سرجون الثاني

تتكرر هذه الرسوم الزخرفية على جدار من حجرة تبلغ مائة قدم طولًا. ويلاحظ أن أشكال الثيران والمعبودات المجنحة صورت في أوضاع يتلو بعضها بعضاً مكونة حلقات متتالية فيها كثير من الانسجام الايقاعي في الألوان.

من اكتشاف المعهد الشرقي في دور شروكن: وهي مدينة خورسباد الحالية والصورة من عمل التمان (C.B. Altman).

وكثيرًا ما كان يرسم فوق الافريز المنحوت في جدران القصر رسوم ملونة ذات مناظر جميلة وكانوا يضعون طبقة من الطلاء الأبيض فوق الطبقة الطينية السطحية لتصبح أرضية للمناظر المرسومة، وتتكون الزخارف بصفة عامة من نطاقات وأشرطة مملوءة بالأشكال مثل المعبودات المجنحة أو الغزلان أو الثيران الخ.. أو يملؤونها بزخارف مثل الأشكال الوردية، أو التي تشبه النخيل. أو الأقراص أو الدوائر المقسمة أو ما يشبه زخارف الأسوار.

وقد اكتشفت بعثة المعهد الشرقي في خورسباد منذ عهد قريب في دار موظف في البلاط الملكي رسمًا على حائط يمتد بطول الحجرة، والألوان السبعة المستعملة هنا هي الأحمر والأزرق والأبيض مع تحديد الأشكال باللون الأسود، وقد دل التحليل الكيمائي على أن اللون الأحمر مأخوذ من سلفات الزئبق، وأن اللون الأزرق مأخوذ من حجر اللازورد ونجح

الأشوريون نجاحاً كبيراً في استعمال الألوان عند رسمهم للمناظر الملونة، ونرى انسجاماً جميلاً في ترتيب المواضيع المرسومة.

ومن الطبيعي أن يقتبس الأشوريون كثيراً من الحضارات التي سبقتهم إذ ظهر فن صناعة تزجيج القوالب الملونة من مصر وبابل منذ أمد بعيد، كما نرى أن كثيراً من الرسوم الزخرفية في أعمال الفنانين الأشوريين مصرية الأصل، كما أن قطع الأثاث المطعمة بالعاج والأبنوس التي كان يضعها العمال الفينيقيون تكشف أيضاً عن أصلها المصري، وكان العمال الفينيقيون في نينوي يقومون بصنع أطباق من البرونز المنقوش بمهارة فائقة، وهم ذلك يجمعون بين الطرازين المصري والأشوري، ويخبرنا سنحاريب أنه كان لديه في قصره "بوابة بنيت على نمط قصر خيتي"، كما أن أسلافه شيدوا بوابات مماثلة لتلك التي رأوها في دولة الحيثيين في الغرب، وكان من أهم خصائص الأباطرة الأشوريين قدرتهم على استعمال ما يقتبسونه من شعوب أجنبية عنهم.

وقد تمكنت سنحاريب على طريق القناة الصناعية التي أنشأها أن يروي الحدائق الغناء التي زرعها على شاطئ النهر قبل نينوي وبعدها، وفي تلك الحدائق استنبت كثيراً من الأشجار والنباتات الغريبة من جميع أنحاء امبراطوريته العظيمة، وكان من بين هذه الأشجار شجيرات القطين التي قال عنها "إن الأشجار التي تحمل الصوف جناها القوم ومشطوا صوفها لصنع الملابس" وجاءوا بهذه الأشجار من الهند وهكذا نرى أن القطن ظهر أول

ما ظهر في العالم القديم في ذلك الحين، ذلك القطن الذي يساهم بنصيب وافر في إقامة صرح مجدنا الاقتصادي[١].

واهتم الأشوريون أيضاً ببعض الفنون الجميلة، فازدهر الأدب لديهم، وشرع سرجون الثاني مثلًا في جمع مكتبة من الرقم عليها مؤلفات قديمة، وسار من جاء بعده على منواله وظلوا على شغفهم بالأدب واهتمامهم به. ويفخر "أشور– باني– بال" حفيد "سنحاريب" وآخر الأباطرة الأشوريين العظام، بأن أباه لم يهيء له سبل تعلم الفروسية وإتقان رمي القوس والسهم فحسب، بل علمه الكتابة على الرقم وأدبه العصر وحكمته.

وكشفت الحفائر بين أطلال حجرات مكتبة "أشور– باني– بال" في نينوي عن مجموعة من اثنين وعشرين ألفاً من الرقم ظلت ملقاة على أرضها الفين وخمسمائة سنة، وهي موجودة الآن في المتحف البريطاني. وجمع الملك في هذه المكتبة المؤلفات الدينية والعلمية والأدبية وفق نظام دقيق– حسب رغبته– وكانت دون ريب أقدم مكتبة عرفتها آسيا لقد كان الآشوريون أعظم تقدماً في هذه الأمور من البابليين، كما أن الحضارة الأشورية كانت أبعد من أن تكون ترديداً وصدى للحضارة البابلية.

بيد أن الأباطرة الأشوريين أتوا بخطأ سياسي جسيم، وإن كانوا لا يختلفون في ذلك هن كثير من الحكام الذين جاءوا بعدهم، لأن حروبهم

(١) لا شك أن شجرة القطن هذه تشابه القطن الذي ينمو في المناطق الجنوبية في الولايات المتحدة الامريكية.

أدت إلى القضاء على السكان الذين كانوا مهرة في الصناعة والذين كانوا مصدراً للثروة والرخاء، حدث هذا أول الأمر في نطاق بلادهم، ثم جميع أناء الممالك التي أخضعوها. ورغم اهتمام الأباطرة الأشوريين بإدخال نوع جديد من النسيج مثل القطن إلا أنهم لم ينشئوا، أو بالأحرى لم يكن في إمكانهم، إقامة صناعات أو معاملات تجارية كالتي قامت في بابل.

فقد كان الشعب بصفة عامة زراعياً وكان من اليسير أن يستدعي الرجال من مزارعهم لفترات قصرة لحماية حدودهم. فلما اتسعت الإمبراطورية لم تكن هذه الجماعات من القوات المؤقتة كافية لأداء الغرض المرجو منها.

وأصبح الزراع يستدعون بصفة دائمة من حقولهم ليملأوا مراتب جيش دائم آخذ في النمو المطرد. وليس من المستبعد أن الطبقة الحاكمة قد حرصت على شراء الملكيات الزراعية الصغيرة بغية إنشاء ضياع شاسعة، فإننا نقف على أنباء قنوات قد أهملت، وعن حقول مهجورة، عندما نقرأ عن جهود سرجون الجبارة لإعادة المجتمعات الزراعية القديمة. ورغم كل هذا فإن هذا التوسع الحربي الذي قامت به الإمبراطورية وصل بها إلى درجة من الاتساع أصبح من العسير معها على هذا الجيش الدائم أن يحمي حدودها.

ولما توالت أنباء الثورات الجديدة، أقلقت الحاكم في نينوي وجعلته يأمر رعاياه في الممالك الأجنبية بدخول الجيش، وليس يدهشنا بعد ذلك

أن تأخذ قوى الأمة الأشورية في الضعف وفقد القوة الكامنة فيها، وقد رأينا هذا الجيش الذي بلغ تعداد الأجانب فيه حداً أصبح يهدد الإمبراطورية بالخطر، ورأينا انهيار الصناعات واضمحلالها وهجر الحقول التي أصبحت معطلة، فضلاً عن أن الحركة التجارية في البلاد باتت في قبضة التجار الأراميين، وأن اللغة الأرامية ذاعت بين المدن في جميع أنحاء الإمبراطورية وانتشرت بها، حتى في مدينة نينوي، وطغت على اللغة الأشورية نفسها.

وإلى جانب هذا الضعف الداخلي، كانت تهدد الإمبراطورية أخطار داهمة من الخارج. وهذه الأخطار جاءت، كما درجت العادة منذ القدم من كلا جانبي الهلال الخصيب. فقد استمرت القبائل الأرامية في احتلال بعض أجزاء الإمبراطورية شيئاً فشيئاً، بعد أن نزحت من الصحراء.

ويدعى سنحاريب بأنه استطاع في حملة واحدة أن يأسر مائتي ألف أسير من بابل معظمهم من الآراميين وفي نفس الوقت كانت هناك قبيلة صحراوية تعرف باسم كلدي (Kaldi) نطلق عليها الآن اسم الكلدانيين قد شرعت منذ عدة قرون في الاستقرار التدريجي حول رأس الخليج الفارسي والإقامة على شواطئه في سفوح الجبال الشرقية، وكان هؤلاء الكلدانيون بدأوا ساميين أخذوا يلعبون نفس الدور الذي لعبه الأكديون إزاء الأموريون إزاء بابل.

ومن جهة أخرى، كانت القبائل والجماعات الهندية الأوروبية موجودة دائماً عبر الجبال الشمالية، منذ أيام الفرسان الميتانيين. حقيقة أن الميتانيين اختفوا منذ أمد بعيد ولكن قبائل غيرها وهي قبائل الميديين والفرس من الشعوب الهندو أوروبية كانت في طريقها إلى القوة والسلطان.

وكان لهذه الحركات أثر بالغ في زعزعة الإمبراطورية الأشورية دون شك، وكان المصريون قد تخلصوا من عبء السيطرة الأشورية. ولكن فرعون مصر وقد أفزعته جماعات البرابرة الشمالين، اضطر إلى إرسال جيش لمد يد المساعدة للأشوريين.

ولم يحل عام ٦١٦ ق.م. حتى كان الكلدانيون قد سيطروا على بابل وأصبحوا سادتها. ولقد زحف "نبوبولاسر Nabopolassar" الملك الكلداني الجديد في بابل، الذي لقب نفسه "بملك أكد" زحف ضد الأشوريين وهزمهم في موقعتين، وبلغت فتوحاته بعدها حتى عاصمتهم القديمة أشور، ولكنه فشل في الاستيلاء على هذه المدينة، وعلى أية حال فقد زحف الميديون من الجبال الشمالية في السنة التالية (٦١٤ ق.م) وساروا بإزاء نهر دجلة ثم استولوا على أشور، ووصل (نبوبولاسر) متأخراً فلم يشترك في الهجوم، ولكنه عقد تحالفاً مع سياكسارس (سياخار) (Cyaxares) وهاجما مدينة نينوي سوياً.

ولما كانت مدينة الأباطرة الأورِيين القوية قد عانت جيلاً كاملاً من الانهيار الداخلي، فقد سقطت (عام ٦١٢ ق.م) بعد أن قاومت دون طائل هذه الهجمات المتكاتفة من الخارج. وعلى لسان النبي العبراني ناحوم

(الاصحاح الثاني ٨، ١٣ والإصحاح الثالث جميعه) نسمع صدى صيحة الفرح التي ترددت في جميع أنحاء الإمبراطورية من بحر قزوين حتى نهر النيل عندما رأت الأمم أن السوط الرهيب الذي ألهب ظهور شعوب الشرق لم يعد له وجود. وكان سقوط نينوي سقوطاً أبدياً لا مرد له وعندما مر اكسينوفون (Xenophon) وصحبه العشرة آلاف أغريقي بهاذ المكان بعض مضي قرنين من الزمان لم تكن الأمة الأشورية بعد ذلك اليوم سوزى أسطورة غامضة، ولم تكن نينوي عاصمتها سوى كومة هائلة من الأطلال لا تختلف عما نراها عليه اليوم. وفرت فلول الجيش الأشوري صوب الغرب وظلت فترة قصيرة من الزمن تقاوم بعد أن ساعدتها القوات المصرية، ولككن ذلك لم يدم طويلاً فانهزموا وانتهت القوة الأشورية. حتى اللغة الأشورية كان ما لها إلى الزوال، وأصبحت الأرامية هي اللغة التي يتحدث بها سكان دولة أشور. كما أصبحت أيضاً لغة بابل وهكذا انتهى الفصل الثاني الكبير للتاريخ على ضفاف بلاد الرافدين ولم يكن قد استغرق إلا أقل من قرن ونصف من الزمان (من حوالي ٧٥٠ حتى ٦١٢ ق.م.)

وبالرغم من أن سقوط الإمبراطورية كان سقوطاً مباغتاً وعنيفاً إلا إنه ترك الأمم التي في غرب آسيا في حالة تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة التي وجدها عليه الأباطرة الأشوريون الأوائل.

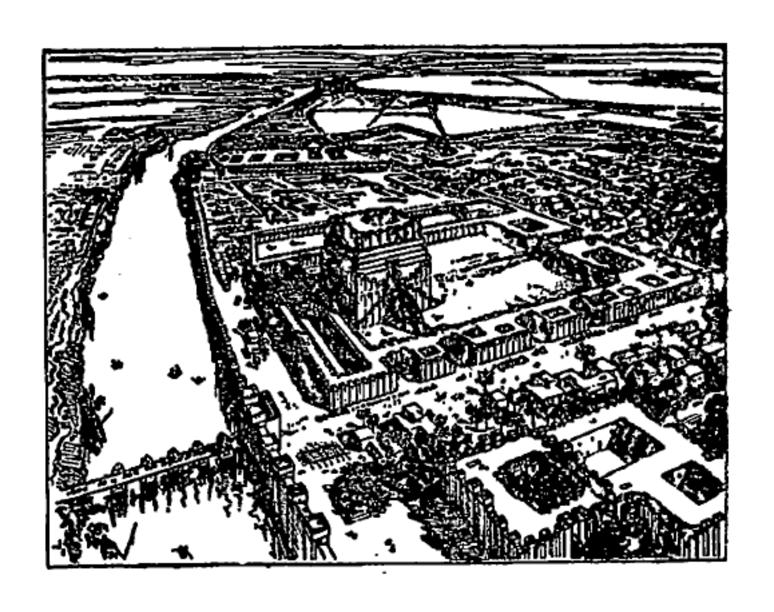
تجمعت الشعوب الواقعة في الناحية الشرقية في البحر الأبيض المتوسط وخضعت لسلطة حاكم واحد، فاتصلت ببعضها اتصالاً وثيقاً مستمراً صبغها كلها بصبغة متشابهة وأصبح لبلاد الشرق الأدنى– للمرة الأولى في تاريخها– حضارة عامة بينها.

ومن الطبيعي أن تتقدم أساليب الحكم وأنظمتها في مثل تلك الإمبراطورية، وقد استفادت من ذلك الإمبراطورية الفارسية التي نشأت بعد سقوط دولة أشور بستين سنة، واستمرت على اتباع ما كان هناك من تنظيم في إدارة الحكومة. فقد خطت الإمبراطورية الأشورية خطوات واسعة وخاصة فيما يتعلق بنظامها الحربي العظيم في سبيل الفكرة التي كانت منذ ذلك الحين في نمو مطرد، ألا وهي ضم قوة العالم في قبضة يد واحدة، هذه الفكرة التي كان لها أن تتحقق في النهاية على يد الإمبراطورية الرومانية.

وبالرغم من فظاظة الحكم الأشوري وقسوته، فإنه كان خطوة في تقدم الحضارة، فإن بناء القصور الفخمة في نينوي وفيما جاورها من المناطق كان الصفحة الأولى في مجد المعمار في آسيا. وفي نفس الوقت كان لدى نينوي أول المكتبات التي عرفت هناك، ويجب ألا ننسى أن الحكم الأشوري– كما سنرى فيما بعد– كان سبباً في ذلك الصراع الدولي الذي مكن اليهود من أن يتصوروا إلههم تصوراً كله مجد وإجلال، وذلك عندما قارنوه بإله الحرب الأشوري. ذلك التصور الذي كان له منذ ذلك الوقت أعمق الأثر على تاريخ الإنسان.

الإمبراطورية الكلدانية

أسس الكلدي، أو الكلدانيون، سادة بابل الجدد، امبراطورية جديدة كانت حياتها القصيرة هي الفصل الثالث الكبير في تاريخ بلاد الرافدين، إذ كانوا آخر السادة الساميين الذين حكموا بابل القديمة.



شكل ٧٠: إعادة لتصميم مدينة بابل في عهد نبوخذ نصر

إن البرج الذي يقع في مقدم الشكل هو معبد مردوخ الكبير تحوطه بعض المباني والمعابد في القسم المقدس الذي يقع في المنطقة الجنوبية من المدينة. أما مجموعة المباني في مؤخرة الشكل عند منحنى النهر فهي قصر نبوخذ نصر، ذي الحدائق المعلقة. أما في الجانب الشرقي (اليمين) للحي المقدس فيتجه "طريق المواكب" صوب الشمال ليصل إلى القصر. ويسير نهر الفرات على الجانب الغربي (اليسار) للمدينة. وكانت عليه قنطرة (كوبري) أقيمت منذ القرن السادس ق.م وقد أمكن إعادة رسم التصميم القديم بعد أن قام الألمان بحفائر هناك تحت اشراف العالم كولايفي (Koldewey) أكثر من ثمانية عشر عاماً (الرسم منقول عن كولايفي).

وأقام الكلدانيون عاصمتهم في بابل. التي أعادوا إنشاءها بعد تخريبها على يد سنحاريب وسموا بلادهم أكد، ولكننا نطلق عليها اليوم اسم "كلديا". وفي عام ٦٠٥ ق.م وعلى مقربة من بلدة قرقميش Carchemish على نهر الفرات، هزموا جيوش الغرب المتحالفة التي كانت تشمل فلول الجيش الأشوري تعضدها قوات مصرية. وهكذا شملت امبراطورية الكلدانيين الهلال الخصيب بأسره. أما فيما يتعلق بالميديين فقد تركوهم يحكمون الجبال الشمالية.

ولما قفل نبوخذ نصر راجعاً من انتصاره المبين في موقعة قرقميش بدأ ذلك الإمبراطور الذي يعتبر أعظم الأباطرة الكلدانيين جميعاً، حكمه (٦٠٤ ق.م) الذي استمر أربعين عاماً– وهو حكم بلغ فيه الرخاء مبلغه، ووصلت قوة الإمبراطورية إلى غايتها، وليس أدل على ذلك من ذكره في التوراة. فقد كان نبوخذ نصر إحدى الشخصيات العظيمة في تاريخ الشرق. ولما نفذ صبر نبوخذ نصر إزاء تلك الثورات العنيدة التي قامت في الغرب والتي كانت مصر تؤازرها وتظاهرها، قام بحملات تأديبية ضد هذه البلاد وخاصة مملكة يهودا العبرانية الصغيرة. ثم نقل كثيراً من اليهود أسرى إلى بابل، ودمر عاصمتهم، "أورشليم" (٥٨٦ ق.م).

وبالرغم من الحروب الطويلة العنيفة التي خاضها نبوخذ نصر، وجد هذا الملك العظيم من الوقت متسعاً ومن المال وفرة ليوسع من نطاق بابل ويجملها. ورغم أن نبوخذ نصر قد قلد آشور في أشياء كثيرة إلا أنه فاق أسلافه الأشوريين في عظمة وأبهة المباني التي شرع في إنشائها. فقد أعاد

بناء المعابد في الحي المقدس الشاسع، حيث كانت تعبد الآلهة البابلية التي كانت تتمتع بتقديس تقليدي. وأنشأ طريقاً لمرور المواكب يصل هذه المعابد بالقصر، ماراً ببوابة كبيرة هائلة تعرف "ببوابة عشتر" لأنها كانت مقامة باسم هذه الإلهة. وخلف هذه البوابة يقع القصر الملكي الشاسع، وتقوم الدواوين الحكومية، بينما ارتفع فوق الجميع المعبد الشاهق الذي كان في الواقع، وقد علاه معبد مردوخ، كأنه برج حقيق واستحق أن يسمى برج بابل. وزرع فوق سقف القصر الملكي أنواعاً كثيراً من النباتات الاستوائية الجميلة ترتفع على مدرجات الواحدة تلو الأخرى مكونة حديثة تأخذ بالألباب، وكامن هذه الحديثة تطل على بوابة عشتر فزادتها جمالاً وبهاء. وهناك في ظلال النخيل وأشجار الرخس التي توحي بالترف والدعة كان الملك ينعم بساعة من ساعات الراحة مع نساء بلاطه ويمتع ناظريه بعظمة مدينته. وتلك الحدائق المدرجة فوق قصر نبوخذ نصر ليست إلا حدائق بابل المعلقة التي ذاع صيتها بين أهل الغرب حتى عدها الاغريق إحدى عجائب الدنيا السبع، وهكذا أصبحت بابل مدينة ملأى بالمباني الفخمة مثل مدن أشور ومصر.

وشهدت بلاد بابل مدينة كبيرة للمرة الأولى، فقد وسع نبوخذ نصر من نطاقها وأنشأ حولها الأسوار الضخمة المحصنة لحمايتها وتشمل هذه الأسوار سوراً يمتد من نهر دجلة إلى نهر الفرات عبر السهل المحصور بينهما. وفي نفس الوقت كان ليصل بين ضفتي نهر الفرات عند بابل قد أقام أقدم قنطرة عرفها الناس، وليست تلك القوائم الحجرية المهدمة التي ما زالت ممتدة في بطن المجرى القديم لنهر الفرات إلا بقايا أقدم ما وصل

إلينا من هندسة القناطر، وكانت بابل نبوخذ نصر هذه هي التي أدهشت هيرودوت بعجائبها بعد مضي قرن من الزمان، تلك الدهشة التي نرى أثرها في لوصف الذي كتبه هيرودوت لهذه المدينة. "وتلك أيضاً هي بابل التي شاع ذكرها بين جميع الشعوب المسيحية، على أنها المدينة الكبرى التي كانت مقراً لسبى العبرانيين، ولكن لم يبق من هذه الأمجاد التي ذاع صيتها بين العالمين سوى النزر اليسير، وقد استمرت الأبحاث الأثرية الألمانية في هذه المنطقة من ١٨٩٩ حتى ١٩١٧ بيد أنها لم تكشف النقاب إلا عن أطلال ضئيلة لجدران من الطوب اللبن، وباستثناء بوابة عشتر لم يبق هناك سوى بعض الآثار البسيطة التي لا يمكن الاستدلال منها على عظمة بابل، ولا توحي بتلك الحياة المترفة السعيدة التي ازدهرت في يوم من الأيام في طرقاتها وميادينها العامة.

ويبدو أن الكلدانيين قد هضموا الحضارة البابلية واستساغوها، كما فعل غيرهم من الغزاة الساميين الآخرين الذين وفدوا على هذا السهل القديم. فازدهرت التجارة وراجت الأعمال، كما خطت الفنون والصناعات خطوات واسعة في سبيل التقدم والنهوض، وعظم الاهتمام بالدين والأدب، وسجلت مؤلفاتهم على رقم مكتوبة بالمسمارية، كما جرت العادة منذ القدم.

وتقدم العلم تقدماً ملحوظاً في فرع خاص من فروعه وهو الفلك. فقد واصل البابليون العادة القديمة في محاولة قراءة المستقبل مستدلين بالأجرام السماوية. وكانوا ينظرون إلى الكواكب المعروفة إذ ذاك، (عطارد،

والزهرة، والمريخ، والمشترى، وزحل) على أنها القوة التي تتحكم في مصائر البشر، كما أن الآلهة البابلية الخمسة الرئيسية، كانوا يمثلون هذه الكواكب السيارة الخمسة.

ووصلت إلينا أسماء هؤلاء الآلهة البابليين على أنها أسماء الكواكب الخمسة، ولكنها تغيرت عندما وصلت إلى أوروبا فترجموها إلى كلمات تلائم الحياة الرومانية، فأصبح كوكب عشتر، إلهة الحب، هو فينوس (الزهرة)، بينما بات كوكب الإله الأعظم مردوخ كوكب جوبيتر (المشترى) وهكذا دواليك، وظل علم الفلك القديم حياً إلى يومنا هذا، فتخرج من أفواهنا جمل دون تفكير في معناها مثل قولنا "نجمة السعيد" أو "عمل نجمة نحس".

ولقد ترك علم الفلك الكلداني أثراً لا يمحى، في تقويمنا فيما يتعلق بالأسماء التي نطلقها على أيام الأسبوع. فهذه الكواكب الخمسة التي ذكرت منذ هنيهة بالإضافة إلى الشمس والقمر تكون مجموعة من سبعة أجرام سماوية، كان كل منها إلهاً على جانب عظيم من الأهمية. ولما كانت العبادة الكلدانية قد انتشرت في سوريا وذاعت. فقد جرت العادة أخيراً على العبادة والتغني بمدح كل إله منها في يوم خاص معين. وهكذا كانت عبادة كل إله من هذه الآلهة تتكرر بعد مرور سبعة أيام. ثم أطلق اسم الإله الذي يعبد في يوم ما على ذلك اليوم نفسه، وهكذا أصبح اليوم المكرس لعبادة الشمس– الأحد [يوم day– الشمس Sun] وبات اليوم الخاص بعبادة القمر– الإثنين [يوم day– القمر Moon] وهكذا حتى نهاية

الأسبوع، وعرف اليوم الأخير المخصص لعبادة زحل باسم يوم ساتورن وهو يوم السبت. ولما كانت اللغة الإنجليزية قد وصلت عن طريق الشعوب الشمالية فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسية وظهرت في أسماء أيام الأسبوع مثل (Wodon's day, Wednesday) (أي يوم الأربعاء) أو (Thor's day, Thursday) (أي يوم الخميس) ومع هذا فإن هذه الأسماء جميعها ترجع إلى الألهة البابلية القديمة التي ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشعوب الغربية يذكرونها كلما نطقوا باسم أي يوم من أيام الأسبوع.

وهناك ما هو أهم من ذلك، فإن خدمات علم الفلك البابلي لن تقف عند ذلك الحد، بل أن هؤلاء الناس لاحظوا السماء وكواكبها إلى أن أصبح ذلك العلم بينهم أعظم من مجرد معرفة الغيب. وإذا رجعنا بالتاريخ إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد في عهد ملوك سومر وأكد نجد أن علماء الفلك في ذلك الوقت لاحظوا خسوفًا للقمر، وهي حقيقة استفاد منها علماء الفلك المحدثين. بيد أن مثل هذه الملاحظات كانت في ذلك العهد البعيد أمر صدفة واتفاق كما أنها لم تكن على جانب كبير من الصحة. فضلاً عن أنها كانت لا تجري فوق نظام ثابت. وبمرور الزمن جرت العادة على التحقق من هذه الظواهر على نطاق أوسع، حتى جاء عام ٧٤٧ ق.م في عهد الملك البابلي نبوخذ نصر، حين أصبحت هذه الملاحظات تدون بصفة دائمة وتسجل بدقة بالغة وتحفظ وثائقها في مكان خاص. ولسوء الحظ لم تبق لنا كل هذه المجموعة من السجلات، وأقدم ما وصل إلينا منها حتى الآن هو رقيم يرجع تاريخه إلى عام ٥٨ ق.م وعليه أقدم المعلومات الفلكية الدقيقة. ونعلم الآن أن علماء الفلك الكلدانيين

ظلوا يكتبون هذه الملاحظات فترة تربو على ثلاثمائة وستين سنة. وأصبحت هذه المجموعة أول سلسلة طويلة للأرصاد الفكية، وأول الوثائق ذات القيمة في الدراسات الفلكية. وفي الواقع لم يقم علماء الفلك المحدثون بمثل هذه الأرصاد الفلكية المستمرة خلال مثل هذه الفترة التي استغرقتها الأرصاد البابلية[1] ومما هو جدير بالذكر أن هذا العمل العلمي استمر حتى بعد أن فقد الشعب الكلداني استقلاله ووقع تحت سطوة الحكم الفارسي.

وهناك ما هو أعظم قدراً من جميع هذه المستندات الكثيرة والملاحظات ذلك هو استفادة علماء الفلك الكلدانيين منها قبيل عام ٥٠٠ ق.م وبعد أن مضى على جميع هذه الأرصاد بصفة مستمرة ما يقرب من المائتي والخمسين سنة، استطاع أحد الفلكيين الكلدانيين ويدعى "نبو- ريمانو Nabu-rimannu" أن يستخدمها في وضع جداول لتحركات الشمس والقمر، سجل فيها حسابه للوقت الذي يستغرقه هذان الجرمان السماويان في دوريتهما اليومية والشهرية والسنوية وهلم جرا.. كما أرخ أيضاً وقت كسوف الشمس وخسوف القمر، وأوقات وقوع بعض الأحداث الفلكية الهامة. لقد حسب طول السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، وست ساعات وخمسين دقيقة، وواحدة وأربعين ثانية. وهذا الجدول

(1) إن السلسلة الوحيدة التي استغرقت وقتاً طويلاً، وكانت تقوم بصفة مستمرة لمثل هذه الأرصاد، والتي يمكن أن تقارن بسلسلة الكلدانيين الفلكية هي الأرصاد الخاصة بمنتصف النهار في جرينتش بإنجلترا التي بدأت عام ١٧٥٠م.

الزمني الرائع الذي وضعه نبو- ريمانو كان أقدم بحث علمي ذي قيمة انشائية في علم الفلك وحوى عظمة لم يصل إليها العقل البشري من قبل.

وحسابات نبو- ريمانو قارنت الصواب إلى حد يدعو إلى الدهشة ولنضرب مثلًا ببعض أشياء في الدورة السنوية للشمس والقمر، فإن الأرقام التي ذكرها في جدولة لم تفرق إلا أقل من عشر ثوان خلال العام كله. بيد أنه بعد مضي ما يزيد قليلاً عن قرن من الزمان، وضع فلكي آخر كلداني الأصل اسمه "كيدينو Kidinnu" مجموعة مشابهة من الجداول كانت أكثر دقة من سابقتها. فلم تزد أرقامه التي بين بها الوقت اللازم لدورة الشمس والقمر السنوية عن ثانية واحدة من الوقت الحقيقي، بل أن بعض حساباته لدورة الأجرام السماوية تعد أكثر دقة وصدقاً من الأرقام التي كان يستخدمها فعلاً الفلكيون المحدثون إلى عهد قريب. ويرجع الفضل في ذلك إلى أن الفلكي الكلداني كان تحت تصرفه سجلات عن الأرصاد القمرية خلال فترة ثلاثمائة وستين سنة، وهذا لم يتيسر لأي عالم فلكي محدث، وأثبت كيدينو أيضًا أن هناك اختلافًا بين طول السنة التي يقاس بين الاعتدالين، وبين قياسها على أساس الوقت بين مرتين لاقتراب الأرض إلى أدنى بعد ممكن من الشمس[1].

ولقد آلت الأبحاث الفلكية التي استغرقت قرناً من الزمان والتي قام بها الكلدانيون، بالإضافة إلى حسابات نبو- ريمانو وكيدينو إلى الاغريق،

([1]) هذه الفكرة في الواقع هي اكتشاف التغير البطيء في درجة ميل محور الأرض وهو التغير الذي يسمونه عادة قبل تسليم الاعتداليين.

فانكبوا على دراسة مسائل هذين الفلكين الكلدانيين اللذين أطلقوا عليهما اسمي: نبوريانس Naburianos وكيديناس Kidenas وعندما حاول المهندس الاغريقي ميتون meton أن يدخل تقويمًا علمياً في أثينا اقتبس طول سنته من جداول نبو- ريمانو ووصف أحد علماء الفلك المحدثين هذين الفلكيين بقوله: "لهما كامل الحق أن يوضعا بين أعاظم الفلكيين"، إن هذين الكلدانيين اللذين أطلعا البشرية لأول مرة في التاريخ على نظام ثابت لعالم الكواكب وأصبحا مؤسسي علم الفلك، يجدر بنا أن نذكرهم باحترام وأن تظل أسماؤهم خالدة بعد أن عفت ذكرى ملوك العالم القديم ومحاربوه.

وبينما نجد أن دولة الكلدانيين فاقت في مضمار العلم كل ما جاءت به أشور، نجد أن فن المعمار في بابل الكلدانية قد تأثر إلى حد بعيد بمؤثرات أشورية. بيد أن الكلدانيين قد تصوروا أنهم بعلمهم هذا يعيدون مجد الحضارة التي قامت في بابل أيام حمورابي، إذ شغف الكتاب باصطناع أسلوب قديم في الكتابة، واستخدام تغييرات عتيقة، وكان الملوك يحفرون تحت أسس المعابد سنين طويلة، بغية الحصول على الوثائق القديمة التي توضع في أسس البناء وقواعده (مثل وثائق حجر الزاوية لدينا) والتي دفنها ملوك العصور الغابرة.

وإذا اعتمد شعب على الماضي فلا يعني شيئاً سوى أنه في طريق الاضمحلال، فعلى أثر موت بنوخذ نصر (عام ٥٦١ ق.م). الذي يعد عهده ذروة الحضارة الكلدانية، يبدو أن البلاد المتحضرة في الشرق الأدنى

قد فقدت الكثير من قوتها وفتوتها السابقتين، وعجزت عن أن تسير إلى الأمام أو أن تسجل انتصارات حضارية جديدة، أو تكشف سبلاً للمعرفة لم يصل إليها من عاشوا قبلهم، مثلما كانت نفعله هذه الشعوب، أي شعوب الشرق الأدنى، خلال ثلاثة عصور زاهرة على ضفاف النيل، وثلاثة عصور أخرى مشابهة على ضفاف الرافدين. وفي الواقع كانت قوة الشعوب السامية وقدرتها على التحكم في العالم القديم وأهله على وشك الاقتراب من نهايتها، وأوشكت أن تخلى السبيل أمام شعوب جديدة من العنصر الهندو- الأوروبي الذي رأينا بعضًا من أقوامه- حكام الميتاني- يظهرون في الهلال الخصيب.

الفصل السابع[1]

غرب آسيا – قدوم الأقوام الهندو – أوروبية

الشعوب الهندو – أوروبية وتوزيعها

لقد رأينا كيف كانت الصحراء العربية موئلا لعدد كبير من السكان الرحل الذين ينتقلون بصفة مستمرة من المناطق العشبية على حافة الصحراء مهاجرين إلى المدن ليبدأوا حياة مستقرة. وكما يوجد أراض عشبية في الجنوب فإننا نجد أراض مماثلة لها في الشمال تمتد في نطاق واسع من الدانوب الأدنى وتتجه صوب الشرق على طول الشاطئ الشمالي للبحر الأسود، مخترقة جنوب روسيا متوغلة في آسيا شمالاً وشرقاً حتى بحر الخزر (قزوين).

وكانت هذه المناطق آهلة بسكان من البدو الرحل في العصور الغابرة، وبين الحين والحين مدى آلاف من السنين، كان ينحدر هؤلاء البدو الشماليون إلى أوروبا وغرب آسيا ويستقرون بهما، تماماً كما انحدر الساميون من الصحراء الجنوبية إلى منطقة الهلال الخصيب.

واندمج بين هؤلاء البدو الشماليين، منذ عصور موغلة في القدم، عنصر من الجنس الأبيض يعرف باسم الهندو – أوروبي. وأصبح هؤلاء الهندو – الأوروبيون أجداد الشعوب الناهضة القوية التي تقطن أوروبا

---

(1) يقابل هذا الفصل، في الأصل الإنجليزي، الفصل الثامن.

وأمريكا اليوم. ومن زمن قديم بدأ الناس في الهجرة متجهين في سبل متفرقة حتى استقر بهم المقام في منطقة واسعة تبدأ غربًا من الحدود الشرقية للهند متجهة صوب الغرب ومخترقة كل أوروبا حتى المحيط الأطلسي، ومن هنا جاءت تسميتهم بالهندو- أوروبيين، بيد أن هذا النطاق الشمالي العظيم قد قوبل في الجنوب بنطاق مماثل من الشعوب السامية، يمتد من بابل في الشرق مخترقاً فينيقيا والممالك اليهودية صوب الجنوب حتى قرطاجنة وبعض المدن السامية التي أسسها الفينيقيون في غرب البحر الأبيض المتوسط.

وسنرى ابتداء من الآن أن تاريخ العالم القديم ليس تاريخاً للصراع الذي احتدم بين هذا النطاق السامي الجنوبي الذي جاء من المناطق العشبية الجنوبية، وبين النطاق الهندي الأوروبي الشمالي، الذي قدم من المناطق العشبية الشمالية ليواجه الحضارة القديمة الممثلة في النطاق الشمالي، وهكذا، إذا نظرنا إلى الجدول في شكل ٧١ نجد أن كلا الجنسين يواجه كل منهما الآخر عبر البحر الأبيض المتوسط، وكأنهما جيشان عظيمان يقفان قبالة بعضهما على خط يمتد من غرب آسيا حتى المحيط الأطلسي وتمثل الحروب التي نشبت فيما بعد بين روما وقرطاجنة بعض العمليات على الجناح السامي الأيسر بينما يمثل انتصار الفرس على الكلدانيين حدثاً مشابهاً على الجناح السامي الأيمن.

انتهى هذا الصراع الطويل بانتصار الهندو- أوروبيين انتصارًا مبينًا وتم لهم التغلب على قلب الجيش وجناحيه عندما أصبح للإغريق والرومان

السيادة المطلقة على عالم البحر الأبيض المتوسط بأسره. وتلا هذا النصر صراع طويل آخر نشب بين أعضاء النطاق الشمالي أنفسهم في سبيل الوصول إلى مركز الصدارة فيه.

وأخذت السيادة في النطاق الشمالي تنتقل من طرفه الشرقي إلى طرفه الغربي مبتدئة بالفرس، ثم الإغريق، وأخيراً الرومان الذين بسطوا سلطانهم على حوض البحر الأبيض المتوسط والعالم الشرقي.

ولكن دعنا الآن نعود ثانية إلى ذلك الوقت الذي سبق هجرة الشعب الهندو- أوروبي عن وطنه الأصلي في المناطق العشبية فنرى أن الدراسات الحديثة لم تقطع برأي في هذا الموضوع بتحديد المنطقة التي كان يقطنها هذا الشعب أول الأمر. ويتجه الرأي الآن إلى أن موطن هذا الشعب كان في منطقة المراعي العظيمة الواقعة على الشواطئ الشرقية، والشرقية الشمالية لبحر قزوين، وربما عاش هناك الأجداد الأولون الذين انحدرت منهم كل الشعوب الهندو- أوروبية فيما بعد، وكانوا يتكلمون بلغة واحدة عندما كانوا لا يزالون شعباً واحداً.

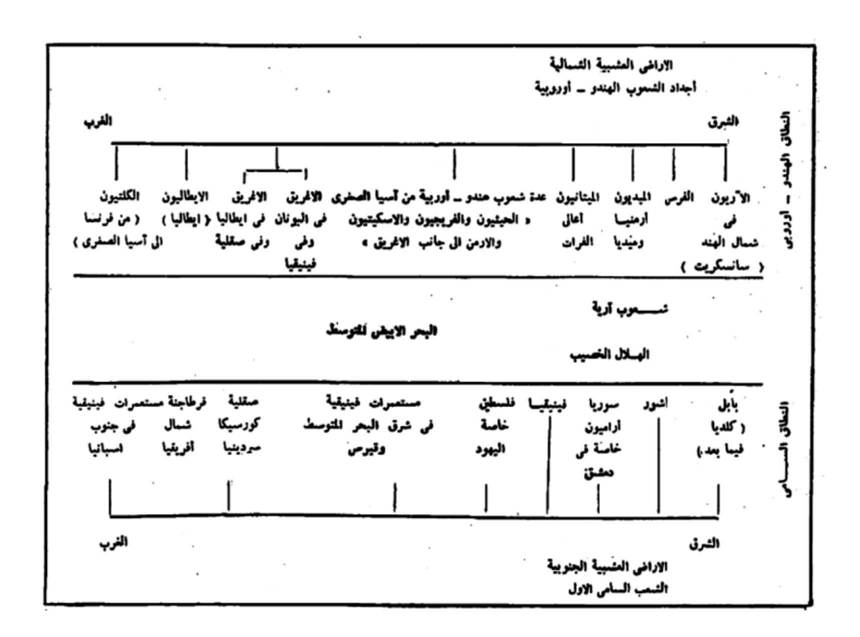
وكانوا يجوبون هذه المناطق بحرية مطلقة باحثين عن المراعي الخصبة لقطعانهم بحكم أنقسامهم إلى قبائل متعددة، إذ كانوا يملكون أنواعاً من حيوانات مستأنسة تشمل الماشية والأغنام. واحتل الجواد مكان الصدارة بين حيواناتهم المستأنسة، فلم يستخدم الهندو- أوروبيون الخيل في الركوب فحسب، بل استخدموها أيضاً في جر عرباتهم ذات العجلات؛ واستأنسوا

الثور وكان عوناً كبيراً لهم في جر المحراث لأن بعض هذه القبائل ركن إلى حياة مستقرة وقام بزرع الحبوب وبخاصة الشعير. ولما كان هؤلاء القوم يجهلون الكتابة، فلم تقم لهم إلا حكومة ونظام إداري بسيط، وربما بدأوا في استخدام النحاس، في الفترة التي شرعوا فيها يهاجرون ويرحلون، وأخذت قبائل هذا الشعب تجوب تلك المناطق مستبعدة عن بعضها البعض وتوغلت في تجوالاتها حتى فقدت الاتصال فيما بينها. وترتب على ذلك اتساع شقة الخلاف بين الألسن واللهجات وتباينت التقاليد واختلفت العادات، واصطبغت كل منها بصبغة محلية خاصة. وكان في استطاعة هذه الجماعات الهندو- أوروبية المتباينة أن تتفاهم في بادئ الأمر مع بعضها البعض عند التقائها، فلما زادت شقة الخلاف بين اللهجات تدريجياً، جاء اليوم الذي حدث فيه أنه إذا التقت تلك القبائل المشتتة لم تستطع التفاهم مع بعضها، وفي النهاية فقدت هذه القبائل كل معرفة بأصلها أو بمن كانوا يتصلون بهم في القرابة، إذ أن معرفة أصل هؤلاء الشعوب وصلتهم بغيرهم أمر لم يكتشف إلا منذ زمن قريب وكانت النتيجة النهائية لذلك فيما يتعلق باللغة هي ما نراه الآن في لغات أوروبا الحديثة. وفي امكاننا أن نتبع أكثر من لفظة واحدة مشتركة من شعب إلى شعب مبتدئين بإنجلترا غرباً ومتجهين صوب الشرق عبر أوروبا حتى شمال الهند كما نرى في هذا الجدول.

السنسكريتية	افغانستية	الإغريقية	اللاتينية	الألمانية	الإنجليزية
Bhrâtar	Brâtar	Phrâtêr	frâter	bruder	brother mother

father	mutter	mâter	mêtêr	mâtar	mâtar
	vater	pater	patêr	pitar	pitar

أما في الغرب فإن أقدم جماعة معروفة لنا هي الجماعات التي وفدت من الأراضي العشبية الشمالية ودخلت آسيا الصغرى قرابة عام ٢٥٠٠ ق.م. وهؤلاء الغزاة الذين أسسوا الإمبراطورية الحيثية. واندفعت جماعة أخرى نحو الجنوب والجنوب الغربي واستطاعت أن تخضع السكان الذين كانوا يقطنون المنحنى الغربي لنهر الفرات، حيث أصبحوا الطبقة الحاكمة لأمة جديدة تدعى أمة الميتاني التي سبق لنا الإشارة إليها، وإذا بعدنا أكثر من هذا نحو الغرب نجد أن أكثر القبائل الهندو- أوروبية التي سبقت غيرها في الهجرة نحو الغرب عبرت الدانوب وتوغلت في شبه جزيرة البلقان حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م. ولا شك في أن بعض هؤلاء كانوا قد استقروا بإيطاليا في ذلك العهد. وكانت هذه القبائل الغربية فرعاً من الفروع المختلطة لأجداد الإغريق والرومان، أو على الأقل كانوا أول من أدخل أقدم اللهجات اليونانية والرومانية (اللاتينية) إلا بلاد الإغريق وإيطاليا. وكان لهؤلاء الناس أثر كبير وخاصة بعد قيامهم بحملاتهم التي شنوها لإخضاع منطقة البحر الأبيض المتوسط. ولكن لندع هؤلاء وشأنهم الآن ولنتابع سرد قصة توغل هؤلاء الهندو- أوروبيين أولاً في آسيا الصغرى (الأناضول) ثم في تقدمهم نحو الطرف الشرقي للهلال الخصيب.



شكل ٧١– جدول يبين النطاقين السامي والهندو– أوروبي

الحيثيون

عندما ينظر الإنسان إلى منطقة الجبال المرتفعة في غرب آسيا، يحس بأن خلف هذا الستار المنيع من الجبال بل وبينها نفسها، حدثت هجرات وحركات إنسانية هامة. وهذا أمر حقيقي فقد كانت هذه المنطقة مسرحًا لحوادث هامة مدى وقت طويل، وسنتحدث الآن عن دورها الذي قامت به.

تشمل هذه المنطقة المرتفعة نطاقاً شاسعاً من الأراضي يمتد من البحر الإيجي غرباً متجهاً صوب الشرق محاذياً للجانب الشمالي للهلال الخصيب ثم يتوغل شرقاً بين بحر قزوين والخليج الفارسي، حتى الهضبة الإيرانية في

الشرق، وتكفينا نظرة سريعة على خرائط هذه المنطقة لترينا أنها كانت تشمل من الغرب إلى الشرق الأناضول (أو آسيا الصغرى الحيثية) وأرمينيا وميديا وإيران وفي هذه المنطقة الشاسعة تقدمت الشعوب النيوليتية حتى وصلت إلى حضارة عصر البرونز، وكانت عناصر حضارتها متشابهة وتتصل ببعضها البعض، فإن بعض الأواني الفخارية الجميلة التي عثر عليها حديثاً في إيران تشبه شبهاً تاماً مثيلاتها من الأواني الفخارية التي اكتشفت في الأناضول أي في الطرف الآخر من المنطقة.

وليس في مقدورنا أن نجد لهذه الحضارة المتوغلة في الاتساع خاصية تعرف بها، بيد أنه في استطاعتنا أن نطلق عليها اسماً جغرافياً، وأن نسميها "حضارة المنطقة المرتفعة" لأن الاعتقاد السائد هو أن هذه الحضارة نشأت في الأصل في الهضبة الإيرانية، ولقد اكتشفت كميات من أوانيها الفخارية ومصنوعاتها البرونزية في غرب إيران وفي ميديا وتتصل بهذه الحضارة حضارة أخرى أعرق منها في القدم وهي حضارة بلاد عيلام في أول عصورها. أما فيما يتعلق بالشعوب التي نمت بينها حضارة المنطقة المرتفعة، وأصل هذه الشعوب، فليس لدينا عنها من المعلومات إلا النزر اليسير، ولا شك في أنها لم تكن جميعاً من أصل واحد. ومن الجائز جداً أنهم لم يكونوا من الهندو- أوروبيين في بادئ الأمر. ولقد لعبت الشعوب التي كانت تقطن الأناضول دوراً هاماً في نمو حضارة الأرض المرتفعة، وتلك هي الشعوب الحيثية التي كانت تستوطن آسيا الصغرى بسبب ما كان في جبالهم من معادن.

طان الجزء الأكبر من آسيا الصغرى أو الأناضول[1] تحت سيادة الحيثيين، وهي شبه جزيرة شاسعة تتراوح بين ستمائة وسبعمائة ميل في الطول، وبين ثلاثة وأربعمائة ميل في العرض. أنها تقرب من ولاية تكساس. وفي وسطها منطقة مرتفعة مستوية السطح تكاد تشبه الصحراء. وحول هذه المنطقة المرتفعة في الوسط الشبيهة بالهضبة، نرى سلسلة من الجبال تكتنف الجزء الأكبر منها وتصل إلى البحر، وعلى جانبي سلاسل الجبال توجد وديان وسهول خصبة تدر محاصيل طائلة. وتغطى الغابات منحدرات الجبال وخاصة تلك التي تواجه البحر الأسود. أما الشواطئ الشمالية لآسيا الصغرى شرقي نهر الهاليس Halys فإنها مرتفعات جبلية غنية بالمعادن وخاصة الحديد. ولهذا كان الحيثيون أقدم الشعوب التي نشرت استعمال الحدي عندما أخذ يحل مكان البرونز في بلاد البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى.

ولعله من الأصوب أن نطلق على سكان الطرف الغربي لمنطقة "الأرض المرتفعة" في قارة آسيا في العصر الذي سبق غزوات الهندو- أوروبيين، اسم "الأناضوليين القدماء" إذ لا شك في أن هؤلاء القوم كانوا يقطنون هذه المنطقة عندما بلغ

---

(1) أناتوليا (او الأناضول) كلمة اغريقية ترادف الكلمة اللاتينية Oriens أي الشرق ولكن تداولها قد حدد معناها لأنها تستعمل للدلالة فقط على آسيا الصغرى حتى الفرات الأعلى من ناحية الشرق. وقد أثبتت آخر الأبحاث الأثرية، الشعوب الأولى التي سكنت في الأناضول ليس هم أجداد الحيثيين المعروفين في التاريخ، إذ أن الحيثيين وفدوا بعد ذلك، ولهذا يمكننا أن نسمى السكان الأوائل "الأناضوليون القدماء" وهو اصطلاح لا يدل في الواقع على أصلهم أو جنسيتهم.

تقدمهم الاقتصادي حد المرحلة النيوليتية فقط. وكان من عادة هؤلاء الأناضوليين القدماء أن يهاجروا، فاتجه بعضهم إلى أطراف آسيا الصغرى من الناحية الغربية، وهاجروا منها إلى كريت، ورحل بعضهم إلى بلاد اليونان نفسها وكان ذلك في العصر الذي سبق عصر معرفتهم للمعادن. ونحن نذكر كيف هاجر بعضهم من الطرف الشرقي لآسيا الصغرى إلى فلسطين في جماعات كبيرة فأثروا في سكانها وأصبحت معالم وجوههم وخاصة تلك الأنف المحدبة هي السائدة في منطقة فلسطين بأسرها.

ونحن لا نعرف إلا القليل عن الأناضوليين القدماء. وقد يستلزم الأمر عشرات من السنين في التنقيب والبحث لجمع شتات الحقائق لمعرفة قدر كاف عن حياة هذا الشعب وتاريخه. وقد عثر على عمق ثمانين قدماً تحت أحد الأكوام الخيتية المعروف باسم تل اليشار Alishar على منزل من العصر النيوليتي فعرفنا منه الشيء اليسير عن بعض ما يتصل بحياتهم قبيل فجر "عصر المعادن".

أما الهندو- أوروبيون فإنهم جاءوا على الأرجح من الشمال ومن الشرق من ناحية القوقاز حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م وكان هذا أول ظهورهم على صفحات التاريخ، وقد ذلت الاكتشافات الحديثة على أن هؤلاء الهندو- أوروبيون الذين أتوا إلى الأناضول هم الذين نعرفهم باسم الحيثيين الذين كانوا في طليعة التحركات الهندو- أوروبية في غرب آسيا التي انتهت

أخيراً باحتلال الهلال الخصيب والسيطرة على الشرق الأدنى بأسره على أيدي الميديين والفرس.




شكل ٧٢: حيثي قديم وسليله أرمني حديث

إلى اليسار رأس حيثي قديم كما حفرها مثال مصري على حائط معبد في طيبة بمصر منذ ثلاثة آلاف سنة. وهي تشبه إلى حد كبير وجوه الأرمن الذين ما زالوا يعيشون في القطر الحيثي كما نرى في الرسم الذي على اليمين.

وأدخل الهندو- أوروبيون الحصان المستأنس إلى آسيا الصغرى ومن تم إلى جميع بلاد الهلال الخصيب، ولم يتسبب عن هذا الغزو انقراض الأناضوليين القدماء بل خضوعهم لحكم الغزاة الجدد الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة كما حدث في بلاد ميتاني. أما فيما يتعلق باللغة فقد نشأت لغة مختلطة، وتضمنت هذه اللغة المختلطة الجديدة ألفاظاً أناضولية قديمة إلى جانب الالفاظ الهندو- أوروبية. كما اختلطت الاصطلاحات النحوية، وظلت هذه اللغة المختلطة مدى ألف سنة إحدى اللغات الهامة في غرب آسيا. وسنسمي هذه اللغة المختلطة "اللغة الحيثية" لنميزها عن لغة عصر

ما قبل مجيء الهندو– أوروبيون. كان الحيثيون عند غزوهم للأناضول قوماً لا مدنية لهم، ولم تنشأ الحضارة الحيثية إلا بتأثير من حضارات الهلال الخصيب. فنحن نذكر كيف كانت القوافل البابلية تسير محملة بالتجارة منذ عصر بعيد إلى آسيا الصغرى، ونذكر أيضاً كيف استقر بعض التجار الأشوريين هناك. وكان وجود هؤلاء التجار سبباً في تعلم الحيثيين أساليب المعاملات التجارية، ثم تعلموا بعد ذلك قراءة الرقم التي كان يسطر عليها التجار قوائم البضائع وأصنافها والمراسلات التجارية التي كان يبعث بها التجار الأشوريون مع تلك السلع. وقد عثر على كميات هائلة من هذه الرقم في المدن الحيثية، كما عثر في الحفائر منذ وقت غير بعيد على كثير من الرقم احتوت على معاجم تحوي صفحاتها ثلاثة أعمدة من الكلمات: الأول سومري، والثاني أشوري بابلي، والثالث حيثي. وهكذا تعلم الحيثيون كتابة الكلمات الحيثية بالكتابة المسمارية. وأصبحت الرقم شائعة الاستعمال بين الحيثيين، ومن المرجح أن استعمال هذه الرقم[1] قد وصل إلى كريت عن طريق هؤلاء الحيثيين، وتقدم هؤلاء الحيثيون تقدماً كبيراً في حضارتهم بعد أن تعلموا الكتابة، ولم يأت عام ٢٠٠٠ ق.م. إلى وأصبحوا شعباً على جانب كبير من الحضارة والرقي، وصارت لهم القدرة الكاملة على منافسة الشعوب العظيمة في الشرق الأدنى. ونهضوا مرتين لينافسوا

---

(1) حوت الرقم الحيثية كثيراً من علامات الكلمات البابلية مما مكن العالم التشكوسليفاكي "بدفتش هروتزني" Bedfich Hrozny أثناء الحرب العالمية الأولى من حل رموز اللغة الحيثية المكتوبة بالطريقة المسمارية وزادت معلوماتنا عن الحيثيين بعد ذلك زيادة مطردة، وقد أثبت العالم الألماني أميل فورر Emil Forrer أن الرقم التي اكتشفت في عاصمة الحيثيين تحوي أمثلة من سبع لغات إلى جانب اللغة الحيثية.

مصر وآشور، وسنطلق على أولى هاتين الفترتين العظيمتين الإمبراطورية الحيثية الثانية (من حوالي عام ١٤٠٠ إلى عام ١٢٠٠ ق.م).

وأقدم ملك حيث وصل إلينا اسمه هو "انيتا" (Anitta)، الذي قام في مدينة كوسار Kussar في المنطقة الشرقية لآسيا الصغرى. ولعل ذلك كان عام ٢٠٠ ق.م ولا نعرف على وجه التحديد المنطقة التي قامت فيها تلك المدينة. ومن الواضح الجلي أن الحيثيين لم يكونوا إذ ذاك أمة واحدة، بل كونوا عدة ممالك مختلفة كانت مثل الممالك الإغريقية في صراع دائم مع بعضها البعض. ولكن القيادة العليا لهذه الممالك آلت أخيراً إلى مملكة الختي[1] Hatti التي كانت تقد داخل المنحنى الكبير لنهر الهاليس في وسط آسيا الصغرى وعاصمتها تعرف بحاتوساس (Hattusas). وقد تمكن ملوك ختي Hatti من أن يخضعوا الممالك المجاورة وكونوا بذلك امبراطورية صغيرة وفي أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد تولى الملك في حاتوساس ملك قدير هو الملك "مورسيل" (Mursil)، أول الملوك الذين يحملون هذا الاسم. وفي الأيام التي أخذ فيها خلفاء حمورابي Hammurabi يضعفون كان مورسيل الأول هو الذي تقدم مع نهر الفرات واستولى على بابل وأطاح بآخر فرد من أسرة حمورابي. بيد، خلفاء مورسيل لم يكونوا مثله في المقدرة فلم تلبث الإمبراطورية الحيثية الأولى أن سقطت قبل أن تصطدم بمصر.

---

(١) "الختي" هي أصل كلمة الحيثي والحيثيين التي وردت في التوراة.

وقامت الإمبراطورية الحيثية الثانية قرابة عام ١٤٠٠ ق.م. واستمرت لمدة قرنين من الزمان صاحبة السلطان والنفوذ في آسيا الغربية. وكان مؤسس هذه الإمبراطورية هو "سبيلوليوما" suppiluyuma أكفأ قائد عرفته آسيا الغربية منذ حملات تحتمس الثالث، تلك الحملات التي بدأت في فترة تقل عن القرن قبل بدء حملات الحيثيين الهائلة. فلما تقدم سبيلوليوما في سوريا على شواطئ الفرات بعد عام ١٤٠٠ ق.م. أخذ يقضي على نتائج الانتصارات التي أحرزها سلفه المصري في تلك البلاد. ولم يكن هناك تحوتمس آخر ليرد عدوان هذا القائد الحيثي القوي. بل كانت هناك ثورة الملك أخناتون التي أضعفت من روح المصريين الحربية وأسلمتهم لليأس فلم يكن في مقدورهم عمل شيء إلا أن يرقبوا تقدم الحيثيين في سوريا واخضاعهم لها، ثم ضمها إلى الإمبراطورية الحيثية. وعبر سبيلوليوما الفرات بعد ذلك ودحر قوات الميتاني، وهكذا أصبح الفاتح الحيثي مسيطراً على جزء كبير من آسيا الغربية. وهناك رقيم له أهمية خاصة عثر عليه مع الرقم التي اكتشفت في العاصمة الحيثية "حاتوساس" وهو رسالة جديرة بالاعتبار كتبت بالمسمارية موجهة إلى الامبراطور الحيثي من إحدى ملكات مصر[١] وهي إما كانت أرملة إخناتون أو ابنته الثالثة التي تزوجت بتوت عنخ آمون.

وهذه الرسالة دليل قاطع على سطوة وقوة الفاتحين الحيثيين لأن الملكة المصرية تقول له في رسالتها، أن ليس لها ولد ليخلف أباه المتوفي

(١) يتجه أكثر الباحثين في السنوات الأخيرة إلى الإيمان بأن تلك الملكة هي نفرتيتي، وأنها فعلت ذلك بعد موت اخناتون عندما رأت بوادر انتصار أعدائه وانهيار حركته الدينية. (المعرب)

على العرش وترجو الحاكم الحيثي أن يرسل إليها أحد أبنائه زوجاً لها وملكاً على مصر.

ولو تم هذا الزواج لأصبحت للأسرة الملكية الحيثية حينئذ السلطة العليا على الامبراطوريتين المصرية والحيثية، ولأصبحت هاتان الامبراطوريتان مجتمعتين أعظم امبراطورية عرفها التاريخ. بيد أن الشك ساور الامبراطور الحيثي في أمر هذا العرض الغريب الذي تقدمت به الملكة المصرية، وأراد أن يستوثق من الأمر قبل أن يبعث بابنه إلى مصر. ولكن عندما استقر رأيه على إرسال أحد أبنائه كان الوقت متأخراً جداً وفشل كل شيء. فعندما كان الأمير الحيثي الشاب في طريقه إلى مصر كان أعداء أسرة اخناتون الأقوياء قد أطاحوا بالملكة الأرملة، وألقوا القبض عليه وقتلوه. وهكذا خسر سبيلوليوما فرصة استيلائه على مصر دون حرب أو بذل أي مجهود.

وكان لديه أبناء آخرون. فتوجهم ملوكاً على أهم البلاد في سوريا وبهذا جعل الطرف الشمالي للإمبراطورية المصرية جزءاً من الإمبراطورية الحيثية. وفي الجنوب امتدت امبراطوريته حتى فلسطين، التي ظلت تحت حكم مصر. أما في الغرب فإنه عبر الفرات وامتدت حدوده حتى شملت جزءاً عظيماً من دولة الميتاني، كما امتدت حدوده الشرقية في وقت من الأوقات حتى وصلت إلى أشور. أما في الشمال والغرب فقد شملت الإمبراطورية الحيثية الثانية معظم آسيا الصغرى، وأحست مدينة طروادة

التجارية التي كانت تتمتع بقسط كبير من السطوة بضغط قوة الحيثيين، إذا لم تكن قد أصبحت تحت السيادة الحيثية ودانت بالولاء لإمبراطورها.

وهكذا باتت الإمبراطوريتان المصرية والحيثية ندتين متنافستين في سبيل الوصول إلى مركز الصدارة في العالم، وكانت منافسة عنيفة قوية بينهم استلزمت حرباً دامت أكثر من ربع قرن من الزمان بين أحفاد سبيلوليوما وبين الفراعنة سيتي الأول ورمسيس الثاني. وعندما كانت الحرب محتدمة بين الفريقين وخاصة بعد عام ١٣٠٠ ق.م، بدأت دولة آشور في نهضتها فسبب ذلك مضايقة للحيثيين. وأخذوا يعقدون المعاهدات بينهم وبين الملوك الموالين لهم في سوريا، ينص فيها هؤلاء الملوك على أنهم يعتبرون الأشوريين أعداء لهم ويعاملونهم معاملة الأعداء، ومن بين الرقم التي اكتشفت في حاتوساس توجد نسخة من رسالة جديرة بالاهتمام يحث فيها الأشوريون الملك الشاب في بابل ليهاجم أشور من الخلف.

وعندما نشبت الخلافات بين الحيثيين أنفسهم عقد حفيد سبيلوليوما واسمه حاتوسيل Hattusil معاهدة صلح مع رمسيس الثاني وهكذا انتهى الصراع بين هاتين القوتين وقامت علاقات وثيقة بين الأسرتين المالكتين، وتبادلت ملكات مصر وملكات خيتا رسائل التهنئة على المعاهدة السليمة الجديدة، وهذه الرسائل مكتوبة على رقم ويرجع تاريخها إلى حوالي عام ١٢٧٠ ق.م.، وعثر عليها الباحثون بين السجلات والمدونات الملكية التي استخرجت من خرائب العاصمة حاتوساس (بوغازكوى). وبعث الامبراطور الحيثي بعد ذلك بابنته إلى مصر لتصبح زوجاً لرمسيس الثاني.

ورسم نحاتو رمسيس مناظر تمثل وصول العروس الحيثية على المعابد المصرية. بل إن بعض هذه المناظر رسم على أحد معابد هذا الملك (معبد أبو سمبل) على مقربة من الشلال الثاني.

لقد وصلت حضارة الإمبراطورية الحيثية الثانية إلى مستوى عال من الرقي. وكان لها أثر كبير فيما حولها ولنتحدث عن أهم ما حققته.

نشأت الدولة الحيثية عن مجموعة كبيرة من الدويلات الضعيفة التي أخضعتها دويلة (ختي)، وكان على كل دويلة من هذه الدويلات أن تقدم لجيش الامبراطور بعض المشاة وراكبي العربات فتكونت قوة الامبراطور الحربية من هذا الجش المختلط بالإضافة إلى الجنود الذين يجمعهم هو نفسه من مملكته. أما الحكومة فإنها كانت تطبق مجموعة حكيمة من القوانين وكان الملك نفسه مقيداً بنصوصها، ومما يدل على تقدم الحضارة الحيثية أنه بعد توقيع معاهدة الصلح مع مصر رأى أحد ملوك الحيثيين (ربما كان الملك حاتوسيل) أن يدخل تعديلات جديدة على هذه القوانين جعلتها أكثر رحمة وإنسانية عما كانت عليه من قبل، وبقى من هذه اللائحة حوالي مائتي بند وهي جزء غير قليل من هذا القانون وهي مكتوبة على رقم وكثيراً ما يشير فيها الملك إلى العقوبات القديمة التي كانت أكثر عنفاً وشدة، وما أدخله عليها فصارت أكثر رحمة وأخف وطأة. كانت عقوبة سرقة رأس من الغنم تبلغ غرامة قدرها ثلاثون رأساً، أما الآن طبقاً للقانون الجديد فقد خفضت هذه الغرامة إلى خمسة عشر رأساً فقط. ولم تطبق عقوبة الإعدام في جرائم القتل ولا شك أن هذا القانون الحيثي كان أكثر عطفاً ورحمة من

القانون الأشوري. وكان أعظم شفقة وإنسانية من قوانين بابل أو مصر. وهذا الاحترام الذي أظهره الملوك الحيثيون نحو القانون أمر جدير بالإعجاب، ومما هو جدير بالذكر أيضًا أن سبيلوليوما قد اعترف في إحدى كتاباته بأن غزوه للإمبراطورية المصرية في سوريا كان غزواً غير مشروع، وأن الوباء الذي انتشر بين شعبه بعد ذلك كان جزاء عدلاً من الآلهة عما أتاه.

ولا ريب في أن هذه العقيلة المستنيرة التي قادت خطى الملوك الحيثيين كان لها أثر كبير في التقدم الملحوظ الذي حققه الحيثيون في ميادين أخرى غير ميادين السياسة فقد بنى المعماريون الحيثيون أقدم مباني هامة من الحجر في آسيا. كما أن مدينة حاتوساس ذات الأسوار القوية المنيعة كانت في الواقع أول مدينة كبيرة نشأت في تلك القارة إذ فاقت مدينة بابل التي كانت معاصرة لها في الاتساع، أما مدينة نينوي التي أقامتها الأباطرة الأشوريون فقد كان أمامها قرابة ستة قرون أو سبعة حتى تظهر في الوجود.

وخير ما تظهر فيه عبقرية المهندسين الحيثيين هو ذلك الطراز المعماري الجديد الذي أدخلوه على واجهة قصر الملك. وكانت هذه تتكون من إيوان مسقوف في الوسط، يحمل سقفه عمودان، وعلى كل جانب من الايوان برج مربع. وأطلقوا على هذا المبنى اسم "المنزل ذو البرجين" وقد اقتبس الملوك الأشوريون هذا الايوان وأدخلوه في عمارة قصورهم. ثم وصل أخيراً إلى الفرس.

وعرف المهندسون الحيثيون أهمية النحت في تزيين مبانيهم. فأقاموا على جانبي المدخل الرئيسي في قصر الملك تمثالين من الحجر لأسدين حارسين على جانب كبير من الدقة والجمال. وفكرة تماثيل أو صور الحيوانات الحارسة مأخوذة عن المصريين الذين كانوا يصنعون تماثيل أبو الهول الذي اقتبسه الحيثيون عن المصريين أيضًا.

وزينوا الجدران بعمل افريز سفلي للحائط يتكون من قطع كبيرة مستوية من الحجر تنحت فيها صور بارزة. نقل الحيثيون هذه العادة إلى أشور. كما نقل الحيثيون أنفسهم رموزاً ذات قيم فنية ودينية عن مصر وبابل. فنجد مثلاً بين الصور البارزة الحيثية قرص الشمس المجنح المصري كما نجد رمز البابليين القديم وهو النسر الذي يفرد جناحيه ورأسه على هيئة رأس أسد وفي بعض الأحيان له رأسان أما قرص الشمس فقد انتقل شرقاً إلى الأشوريين والفرس، وأما النسر فقد عبر البحر الإيجي واتجه صوب الغرب إلى أوروبا فيما بعد ومنها إلى الولايات المتحدة حيث أصبح النسر الأمريكي.

وتعتبر رقم الأباطرة الحيثيين أقدم قصص تاريخية تميزت بأسلوب أدبي ومكتوبة نثراً. فقد كان الكتاب الحيثيون يولون الأدب عظيم اهتمامهم، وأدى بهم هذا الشغف إلى حب استنساخ المؤلفات البابلية القديمة وإقبالهم عليها. لقد كانت قصة البطل البابلي جلجمش (Gilgamesh) ذائعة معروفة في جميع أنحاء آسيا الصغرى. وإلى جانب المؤلفات الدينية كانت هناك أيضاً بعض أبحاث خاصة مثل ذلك البحث في تربية الخيل الذي

اقتبسه الحيثيون عن الميتانيين. وعلى عكس الكتاب الذين ظهروا في الحضارات العظيمة الأخرى حرص الكتاب الحيثيون على أن يعرفهم الناس بأنهم مؤلفون فأضافوا أسماءهم إلى مؤلفاتهم. فكانوا بذلك أقدم المؤلفين الذين شعروا بكيانهم كما يفعلون الآن الكتاب المحدثون.



شكل: ٧٣– أمير حيثي يصطاد أيلا

يقف الأمير الحيثي في العربة وإلى جانبه سائقها، ويرمي الأمير بسهمه ذكر الايل بينما يجري كلب الصيد إلى جانب الجوادين. والمنظر منقوش على حجر وهو بوجه عام مثل لا بأس به للفن الحيثي. وفي أعلى الصورة كتابة باللغة الهيروغليفية الحيثية.

وعندما بدأ الأباطرة الحيثيون في تشييد المباني الحجرية شعروا بحاجتهم الماسة إلى خلق طراز للكتابة يلائم الآثار الضخمة الهائلة لتزيين المباني بالكتابات التاريخية كما فعل المصريون، ولهذا ابتدعوا طريقة في الكتابة أساسها استعمال الصور كعلامات، ولا زالت بعض هذه الكتابات

التاريخية التي كتبوها بهذه العلامات الهيروغليفية الجديدة. نراها على واجهة الصخور وعلى الجدران القائمة يشاهدها المسافرون في منطقة متسعة من آسيا الصغرى من البحر الإيجي إلى الفرات. ورغم أن هذه الكتابات الهيروغليفية التي كتبها الحيثيون لم تحل حتى الآن حلاً تاماً فإن الباحثين تقدموا في ذلك تقدماً يستحق الإعجاب[١].

وتوحي إلينا المدونات الحيثية باحتمال وجود عناصر مصرية وبابلية في الديانة الحيثية فقد عبد الحيثيون مجموعتين من الآلهة: آلهة الأرض وآلهة السماء. فإلى جانب "الأرض الأم" كان لديهم أيضًا إله للشمس التي آمن بها الحيثيون إيماناً صادقاً. وكان هذا الإله الأخير على جانب كبير من الأهمية جعلت الإمبراطور الحيثي يسمي نفسه "الشمس".



شكل ٧٤: حلية بارزة من الفضة عليها نقش مسماري ونص هيروغليفي حيثي.

(١) يختلف الباحثون في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه الكتابة الحيثية الهيروغليفية ولو أن غالبيتهم يميلون إلى الاعتقاد بأنها لم تظهر حتى نهاية الإمبراطورية الحيثية الثانية. وعلى أية حال فهناك ما يمكن أن يثبت أن ظهورها سبق قيام الإمبراطورية الثانية.

كتب صانع هذا الطبق النص الآتي حول حافته باللغة الحيثية مكتوباً بالمسمارية "تاركونديموس ملك دولة مرا" وعلى جانبي رسم الملك نرى نقشين بالعلامات الهيروغليفية الحيثية. ويرى الدكتور اجنيس جلب Dr. ignace Gelb من علماء المعهد الشرقي أن لهذا النقش أهمية عظمى لأن ترجمة النص الهيروغليفي هي "تاركونديموس ملك دولة مرا" وبعبارة أخرى فإن نقوش هذه الحلية الفضية المستديرة ليست إلا نصاً حيثياً واحداً مكتوباً بلغتين أي أنه مماثل لحجر رشيد في مصر ونقش داريوس في بهستون. فإذا حددنا قراءة بعض العلامات الهيروغليفية فإنه يصبح من الميسور الانتفاع والاستعانة بها في قراءة النصوص الأخرى ويمثل هذه الطريقة البطيئة المضنية يجتهد العلماء في تحديد نطق أو معنى بضع علامات قليلة إلى أن يأتي اليوم الذي يتمكنون فيه من حل جميع ألغاز الكتابة الحيثية الهيروغليفية

ووصلت الحضارة الحيثية إلى ذروة ازدهارها في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية المصرية في أوج عظمتها، وفي الفترة التي كانت فيها "كنوسوس" Cnossus في جزيرة كريت في عصرها المجيد، ويوم كانت طروادة في غرب آسيا الصغرى قد بنت مدينتها السادية العظيمة. ولما كانت الحضارة الحيثية تقع بين الحضارتين العظيمتين حضارة جنوب أوروبا وحضارة الشرق الأدنى، فقد كانت همزة الوصل بين الطرفين وكان أثرها على الشعوب الإيجية تأثيراً مستمراً فقد تلقى الإغريق عن العالم الحيثي مبادئ الفن، وأصول المعمار كما اقتبسوا منه بعض العقائد الدينية.

وهناك أمر آخر له دلالته الكبرى وهو أن الحيثيين، كانوا أصحاب الفضل في نشر استعمال الحديد في جميع الشرق الأدنى. ويجب علينا ألا نخطئ الفهم ونعتقد أن مهمة الحيثيين اقتصرت على نقل الحضارات بين الأمم فإننا رأينا كيف ساهم الحيثيون بنصيب وافر في حضارات الشرق الأدنى القديمة، وقدموا له كثيراً من المبتكرات الجديدة بالاعتبار، واقتبص الأشوريون كثيراً منها ثم انتقل منهم إلى الفرس، وهم شعب من الجنس الهنود- أوروبي الذي سكن في غرب آسيا، ولنبدأ حديثنا عنهم الآن.

الشعوب الآرية والنبي الإيراني زرادشت

أجمع الباحثون على أن القبائل الشرقية من النطاق الهندو- أوروبي كانت ترعى قطعانها في منطقة المراعي العظيمة في شرق بحر قزوين قرابة عام ٢٠٠٠ ق.م بعد أن تركت موطنها الأصلي؛ وفي هذا الوطن الجديد كونوا شعباً يطلق عليه بحق اسم الشعب الآري[1]، وجعلوا من هذه المنطقة وطناً لهم لفترة من الزمن.

ولم يعرف الآريون الكتابة، ولم يتركوا آثاراً لهم. ولاغم هذا فإن معتقدات أحفادهم ترينا القبائل الآرية كان لها في ذلك الحين ديانة رفيعة

---

(١) من المحتمل جداً أن الشعب الهندو- أوروبي الأول لم يكن له اسم يطلق على جميع قبائله. ونطلق كلمة "آري" في بعض الأحيان تجاوزاً على الشعب الأول هذا.

ولكن ليس لهذا الاستعمال أساس من الصحة. فإن صفة آري (التي جاءت عنها فيما بعد لفظة (إيران، وإيراني) تدل على جماعة من القبائل ما هم في الواقع إلا جزء من الشعب الأول، انفصل عن ذاك الشعب واستوطن المنطقة التي تقع شرق بحر قزوين مباشرة، ويجدر بنا أن نذكر عندما نسمع لفظة ترى يطلقها بعض الناس على الشعوب الأوروبية التي من أصل هندو- أوروبي أو يقول بعضهم أننا من سلالة آرية يجب أ، نذكر أن هذا التعبير خطأ: من الناحية التاريخية رغم كثرة استعماله، ولذلك لأن الآريين ينتمون إلى القبائل الشرقية من الشعب الهندو- أوروبي الأول، أما الأوروبيون والأمريكيون فينتمون إلى القبائل الغربية من هذا الشعب، أي أن الآرايين هم أبناء عمومة الأوروبيين لا أجدادهم.

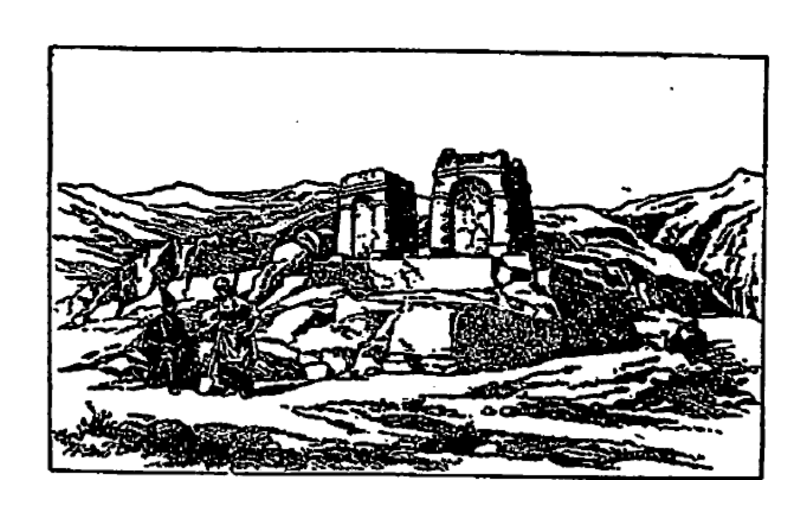
المستوى لخصت كل السلوك الإنساني في أنه "أفكار طيبة، أعمال طيبة" ولعبت النار دوراً هاماً في هذه الديانة، وكان لديهم جماعة من الكهنة أطلقوا عليها اسم "مشعلي النار".

وعندما تشتت شمل الآريين. ولعل ذلك كان حوالي عام ١٨٠٠ ق.م انقسموا إلى مجموعتين فاتجهت القبائل الشرقية نحو الجنوب الشرقي واستقرت آخر الأمر في الهند، وفي كتبهم المقدسة المسماة وبالفيدا Vedas والتي كتبت باللغة السنسكريتيه، يتردد صدى أيام الوحدة الآرية، كما احتوت هذه الكتب على كثير من الإشارات إلى الوطن الآري القديم شرقي بحر قزوين.

واحتفظت قبائل الجماعة الثانية بلفظة "آري" في كلمة إيران ولذا نسميهم الآن إيرانيين. وهجر هؤلاء أيضاً الوطن الآري واتجهوا نحو الغرب والجنوب الغربي خلال الجبال التي تحد الهلال الخصيب، وكان حكام الميتانيين قبيلة من مجموعة تلك القبائل الإيرانية[١] وإذا توغلنا شرقاً نجد جماعتين من الإيرانيين على جانب كبير من القوة. هما الميديون والفرس، الذين قدر لهم أن يخضعوا الهلال الخصيب وأن يؤسسوا آخر امبراطورية شرقية عظيمة في غرب آسيا.

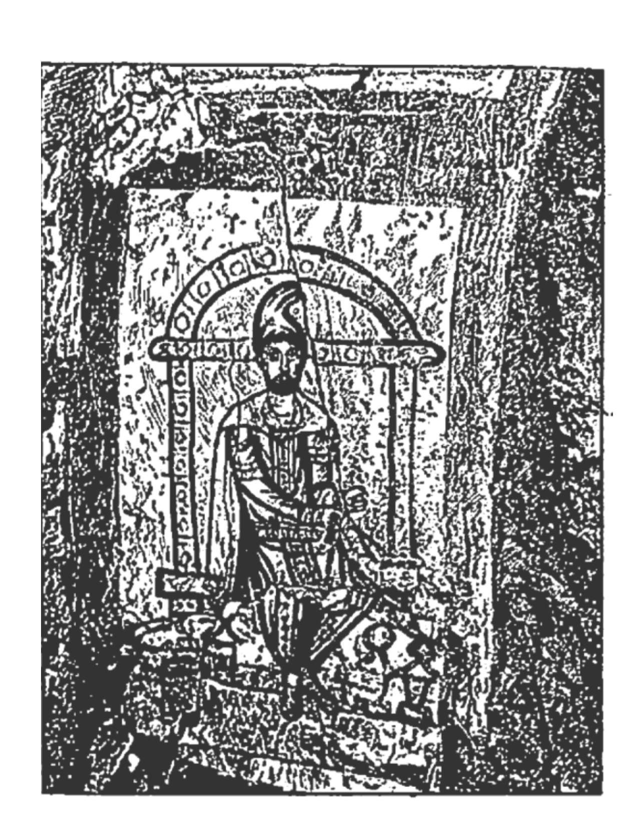
---

(١) لقد أطلق اسمهم على الهضبة الإيرانية العظيمة بأسرها، تلك التي تمتد من جبال زاجروس في الغرب حتى نهر الهند شرقاً ولقد عرف هذه المنطقة جميعها لدى الاغريق والرومان باسم أريانا Ariana تلك النسبة (مثل إيران) المشتقة بالطبع من لفظة آري.



شكل ٧٥: مذابح للنار على مقربة من مدينة برسبوليس من عهد الفرس القدماء

وقد رأينا قبل الآن كيف كانت الشعوب التي تقطن الجبال المحيطة بالطرف الشرقي للهلال الخصيب خطراً دائماً منذ أقدم العصور، يهدد سلامة سكان بابل وآشور، ويذهب بطمأنينتهم. وكانت مملكتا عيلام، وأورارتو Urarto بوجه خاص عدوتين خطرتين لآشور مما حدا بالأباطرة الآشوريين إلى شن غزوات متوالية لنهب هذه البلاد حتى تمكنوا أخيراً من كسر شوكتها والقضاء عليها. ولعل آشور ارتكبت خطأ جسيماً بهذا العمل لأنه ربما أمكن لهذه البلاد بما كان لديها من القوة ما يجعلها تصد تقدم الهندو– أوروبيين وأن تكونا دولة تحمي حدود الأشوريين والكلدانيين.



شكل ٧٦: رسم ملون، يحتمل أن يكون لزرادشت

عشر على هذا الرسم الملون في معبد للإله "متراس" في دوراً على الفرات وقد كشفت عن هذا المعبد بعثة مشتركة من جامعة ييل والأكاديمية الفرنسية للنقوش والفنون الجميلة برئاسة الأستاذ كلارك هوبكنز Professor Clark Hopkins. (بإذن من قاعة الفنون الجميلة بجامعة ييل).

ولما كانت الشعوب التي على الحدود قد أضعفتها غزوات الآشوريين فلم يلق الميديون أي عناء أو مقاومة، واستطاعوا حوالي عام ٧٠٠ ق.م

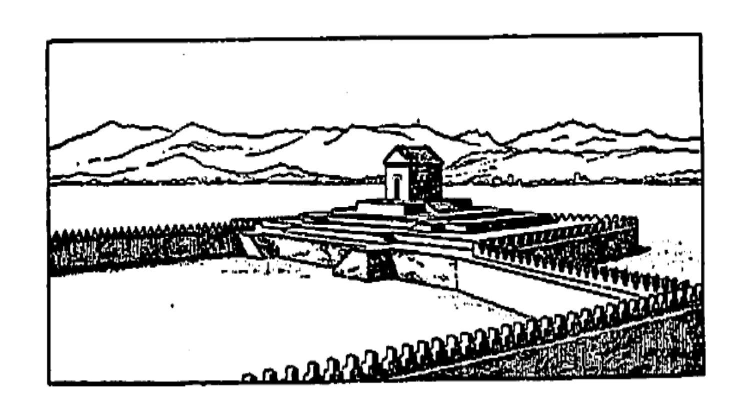
تقريباً تأسيس الامبراطورية إيرانية قوية في الجبال التي تقع شرقي نهر دجلة، وأخيراً امتدت هذه الإمبراطورية من الخليج الفارسي حيث شملت بلاد فارس، وتتجه صوب الشمال الغربي مع سلسلة الجبال حتى منطقة البحر الأسود وبذلك أصبحت واجهة الجناح الشرقي للهندو- أوروبيين موازية إلى حد ما لنهر دجلة في هذا المكان ولكنهم واصلوا تقدمهم وأمتد هذا الجناح إلى مسافات أبعد فيما بعد، وأسس الميديون مدينة إكباتانا Ecbatana وجعلوها عاصمة لهم. وتقع هذه المدينة في مواجهة الممر الذي يخترق جبال زاجروس مؤدياً إلى الهلال الخصيب مباشرة، وإلى مدينة بابل رأساً.

وبعد مرور قرن من الزمان، توجس نبوخذ نصر وخلفاؤه في بابل خيفة من الميديين الأقوياء، عائدين بأذهانهم دون شك إلى عام ٦١٢ ق.م. حين سارع هؤلاء الميديون إلى الاتحاد مع غيرهم واشتركوا في مهاجمة نينوي وكان الكلدانيون على نهر الفرات يمثلون زعامة الدم السامي الذي قدم أهله من المراعي الجنوبية، ولكن هذه الزعامة كانت على وشك التخلي عن مكانها لزعامة الدم الهندو- أوروبي القادم من المراعي الشمالية، ونحن إذ نشاهد الكلدانين يفسحون الطريق أمام الميديين والفرس، يجدر بنا أن نذكر أننا نشهد انقلاباً خطيراً بين الأجناس المختلفة وأن هؤلاء الإيرانيين الذين على وشك السيطرة كانوا من أبناء عمومة الأوروبيين لأن كلاهما من نسل الرعاة الرحل أو الشعب الهندو- أوروبي الأول، الذي عاش يوماً ما في المراعي النائية في وسط آسيا، منذ خمسة آلاف سنة مضت على وجه التقريب.

وكان لجميع هؤلاء الإيرانيين ديانة جميلة آلت إليهم منذ العهود الآرية القديمة التي سبقت هجرتهم. وبعد جيل من سقوط نينوي- وربما كان ذلك قرابة عام ٥٧٠ ق.م. ولد نبي ميدي يدعى زرادشت[1] وشرع هذا النبي في تأمل حياة الناس بغية الوصول إلى ديانة جديدة تلائم حياتهم وتسد حاجتهم، تأمل زرادشت الصراع المستمر بين الخير والشر، هذا الصراع الذي كان يراه حوله أينما سارو الذي رآه ممثلاً في ديانة الشعب الميدي وفي عقائدهم وفي آلهتهم القدماء. وبدا له أن هذا الصراع قائم بين مجموعة من قوى الخير ومجموعة من قوى الشر، واعتقد أن الخير ليس إلا كائنا إلهياً أطلق عليه اسم مازدا Mazda، الذي كان اسماً لأحد الآلهة القدامي أو "أهورا مزدا" Ahurmazda ومعناها "رب الحكمة" الذي رأى فيه أنه هو "الله" وكان يحيط بأهورا مزدا جماعة من الأعوان يشبهون الملائكة وكان أعظمهم مكانة هو "النور" ويدعى "مثرا" Mathra، ويقف ضد أهورا مزدا وأعوانه جماعة شريرة ترأسها روح شريرة قوية أطلقوا عليها اسم "أهريمان" Ahriman وهو الذي أخذه اليهود ثم المسيحيون من بعدهم وعرفوه تحت اسم "الشيطان".

---

(1) كان هناك خلاف في الرأي في تحديد وقت ظهور زرادشت وقبل الكثيرون تواريخا متتالية في القدم، ولكن اتفقت آراء أخيراً على أنه عاش في القرن السادس ق.م.



شكل ٧٧– أقدم معبد فارسي، كما كان يوم تشييده

كشف الأستاذ هرتزفلد Herzfeld عن بقايا هذا المعبد في مدينة بازار جادة Pasargadae ويعتقد أن الملك قورش Cyrus هو الذي شيده، ويقوم هذا المعبد على مقربة من قصر الملك وقبره في تلك المنطقة (عن هرتزفلد Herzfeld).

وهكذا نشأت عقيدة زرادشت من الصراع القائم في الحياة عينها. ولذا أصبحت قوة هائلة في هذه الحياة. وكانت هذه الديانة من أنبل الديانات التي ظهرت في العالم، دعت هذه الديانة كل إنسان وأهابت به أن يختار أحد الطريقين– إما أن يملأ قلبه بالخير والنور أو ينغمس في الشر والظلمة وسواء اتخذ الانسان هذا السبيل أم ذاك، فإنه سيلاقي جزاءه ويحاسب على ما أتاه. وكانت هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت في آسيا تقول جزاءه ويحاسب على ما أتاه. وكانت هذه العقيدة أقدم ديانة ظهرت في آسيا تقول بالحساب بعد البعث. ولم تكن دعوة زرادشت إلا سمواً بالعقائد القديمة التي كانت منتشرة بين أهله ورفعاً لآلهتهم القديمة إلى المثل

الأعلى. ولهذا أبقى زرادشت على احترام الآريين للنار وعبادتهم لها على أنها رمز ظاهر للخير والنور كما احتفظ أيضاً بفكرة الكهنة مشعلي النار.

ولما لم يستطع زرادشت أن يؤثر في قومه بدعوته الجديدة هجر الميديين وذهب إلى الفرس يدعو إلى دينه الجديد ولعله لم يجد في السنوات الأولى إلا القليل من الاستجابة إليه، إذ تتضح آماله ومخاوفه في تلك المجموعة الصغيرة من التراتيل التي تركها، وهي– على الأرجح– كل ما وصل إلينا من أقوال ذلك، ونحن نعرف شدة شغف الآريين بتربية الخيل، ولهذا لا ندهش عندما نقرأ أن زرادشت استطاع أخيراً أن يجعل أحد الملوك الأقوياء يؤمن به عندما شفى جواداً كسيحاً كان الملك يعتز به. وقبل أن تحين ساعة هذا النبي كانت عقيدته الجديدة قد لاقت نجاحاً كبيراً وثبت قدمها، ولم يحل عام ٥٠٠ ق.م. حتى كانت الزرادشتية هي الديانة الأولى بين الإيرانيين، كما قبلها أباطرة الفرس أيضاً. وليس من المستبعد أن يكون الملك دارا شيد مقبرة هذا النبي. ولسنا نعرف من أقوال زرادشت غير التراتيل التي ذكرناها آنفاً وإلى جانبها بعض تعاليمه التي تحتفظت بها بعض المؤلفات التي جمعت في العهد المسيحي المبكر بعد وفاة هذا النبي بعدة قرون. ويجمع هذه التراتيل كتاب الأبستا (الابستاف) Avesta الذي يمكننا أن نسميه "إنجيل الفرس".

قيام الإمبراطورية الفارسية

لم يتحمس شعب من الشعوب لديانة زرادشت كما فعلت مجموعة القبائل الإيرانية التي نسميها "الفرس". وقد آلت إلينا عن طريقهم

معلوماتنا عن هذه الديانة. سقطن دولة العيلاميين على إثر غزو الأشوريين لها في منتصف القرن السابع قبل الميلاد فتعرضت عيلام للغزو الخارجي، وتمكن الفرس من احتلالها، وعند سقوط نينوي عام ٦١٢ ق.م. كان الفرس ينعمون بالاستقرار في المنطقة التي تقع في الطرف الجنوبي لجبال زاجروس، وشمال الخليج الفارسي وشرقه مباشرة. وشواطئ هذه المنطقة لا تبعد كثيراً في طبيعتها عن حال المناطق الصحراوية بيد أن الوديان التي تتخلل الأراضي الجبلية البعيدة عن الساحل كانت ودياناً غنية أخصبة. وفي هذه الوديان احتل الفرس منطقة تبلغ الأربعمائة ميل طولاً وكانوا أهل جبال أقوياء تغلب عليهم الفظاظة ويحيون حياة زراعية مستقرة لا توجد فيها آية منظمات جديرة بالاعتبار، ولم يكن لديهم فن أو كتابة أو أدب، ولكن أذهانهم كانت ملأى بذكريات ماضيهم، فبينما يقومون بحرث حقولهم أو رعي قطعانهم كانوا يقصون قصصاً يروون فيها أعمال أسلافهم وتقص تاريخ عقيدتهم القديمة التي يكانوا يؤمنون بها.

وقبلوا أن يكونوا تحت ولاية أبناء عمومتهم الميديين الذين كانوا يسيطرون على البلاد الواقعة في شمالهم الغربي، ثم جاء الوقت الذي نظمت فيه إحدى القبائل الفارسية التي كانت تقطن جبال عيلام أمورها تقريباً على سقوط نينوي كان يحكم أنشان ملك فارسي يدعى قورش Cyrus، استطاع أن يجمع شمل القبائل الفارسية الأخرى في أمة واحدة. وهكذا ثار قورش على حكم الميديين. فجمع جنوده الفلاحين واستطاع بعد ثلاث سنوات أن يهزم الملك الميدي وأن يجعل من نفسه سيداً لمناطق الميدية

بأسرها. ولفتت أعمال قورش أنظار الغرب وأخذوا يرقبونه وقلوبهم ممتلئة بالإعجاب والخوف.

كانت الحيوية المتدفقة في هذا الفاتح الجديد لا ينضب لها معين. أما حيوية جنوده الفلاحين فقد كانت متدفقة طاغية لا يستطيع صدها أحد، ويبدو أن الفلاحين الفرس كانوا رماة مهرة، وكانت الغالبية العظمى في الجيش الفارسي من الرماة، الذين كانت عاصفة سهامهم التي يطلقونها على العدو من مسافة كبيرة تغمر الأعداء قبل أن يلتحموا بهم ويقاتلوهم يدًا بيد. وبعد ذلك تتقدم فصائل الفرسان الفارسية المدربة، التي كانت تبقى حول جانبي الجيش، فإذا جاءت لحظة الهجوم هجموا وأكملوا القضاء على العدو، وقد تعلم الفرس هذه التنظيمات من الأشوريين، أعظمهم من عرفهم الشرق كجنود محاربين.

وعقدت الدول العظمى، بابل (كالديا) ومصر، وليديا، تحت حكم الملك كروسس Croesus في غرب آسيا الصغرى. وحتى إسبرطة في بلاد الأغريق، فيما بينها تحالفاً قوياً ضد هذا الخطر المفاجئ الذي ظهر وكأنه نور شهاب ثاقب في سماء الشرق. ولم يضيع قورش لحظة واحدة فباغت كرسس بهجوم مفاجئ في ليديا، لأنه كان صاحب الفكرة في إنشاء هذا الحلف، ثم تتابعت انتصارات الفرس فسقطت ساردس Sardes عاصمة ليديا عام ٥٤٦ ق.م ووقع كروسس أسيراً بين يدي قورش. واستولى قورش أيضًا على الشواطئ الجنوبية في آسيا الصغرى. وهكذا امتدت سيادة المملكة الفارسية الصغيرة فأصبحت في مدى خمس سنوات صاحبة

الصدارة في العالم الشرقي، وأصبحت تحكم المنطقة من جبال عيلام حتى البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك آسيا الصغرى أيضاً.

وعندما اتجه قورش شرقاً، لم يجد عناء في هزيمة الجيش الكلداني الذي كان يقوده ولي العهد الشاب "بلشاصر" Belshazzar، الذي ورد اسمه في سفر دانيال (الإصحاح السابع) وأصبح اسماً معروفاً لكل شخص في العالم المسيحي. أما الأسوار الضخمة العالية التي أقامها نبوخذ نصر لحماية بابل فإنها لم تدفع عنها غائلة الهجوم، وسقطت المدينة عام **٥٣٨** ق.م. أمام هجمات الفرس دون مقاومة تذكر.

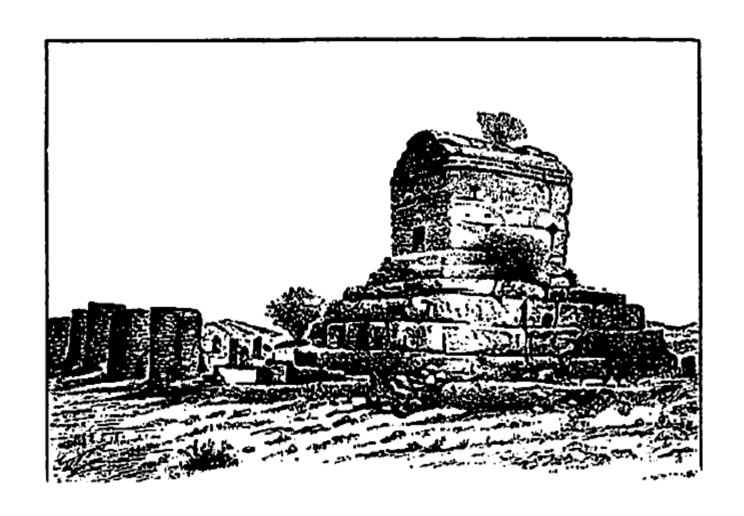
وهكذا، لم يمض على سقوط نينوي إلا أربعة وسبعون سنة فقط حتى نشب الصراع بين سكان الأراضي العشبية الشمالية وأهل الأراضي العشبية الجنوبية. وانهار الشرق السامي تمامًا أمام زحف القوى الهندو–أوروبية.

وأسس قورش عاصمته وأقام قصره عند بازارجاده Pasargadae حيث تم الكشف عن بقايا قصر هذا الفاتح العظيم. فنجد على إحدى الصور البارزة التي عثر عليها الجزء الأسفل من صورة الملك، وعلى طيات لباسه نرى نقشاً مكتوباً بالعلامات المسمارية نقرأ فيه الكلمات الآتية: "قورش، الملك العظيم".

وفي هذا المكان أيضًا أقام قورش معبداً للديانة التي نادى بها زرادشت الذي كان ما زال حياً في أيام قورش وبعد مضي تسع سنوات

على سقوط بابل، خر قورش، أول فاتح عظيم من الجنس الهندو- أوروبي، صريعاً في ميدان الوغي (عام ٥٢٩ ق.م) أثناء قتاله مع البدو القاطنين في شمال إيران، ووضع جثمانه بما يليق به من احترام وإجلال في مدينة بازار جادة في قبر ضخم يؤثر في نفس الناظر إليه بساطة عمارته، وقد رآه الإسكندر الأكبر في ذلك المكان بعد انقضاء مائتي سنة.

صار غرب آسيا بأسره في قبضة الملك الفارسي. وفي عام ٥٢٥ ق.م. أي بعد أربع سنوات فقط على وفاة قورش غزا ابنه قمبيز أرض مصر، وبعد انتصار الفرس على آخر دولة قوية في الشرق، أصبحت حدود الإمبراطورية الفارسية مشتملة على الشرق المتحضر كله من دلتا النيل حتى البحر الإيجي بما في ذلك جميع البلاد....



شكل ٧٨: مقبرة قورش في بازار جاده

من المحتمل أن يكون قورش نفسه شيد هذه المقبرة على مقربة من معبده وقصره، وظل جثمانه فيها ما يقرب من مائتي سنة عندما جاء الاسكندر الأكبر فوجد الجثة ملقاة على أرضية المكان بعد أن جردها السارقون مما كان عليها من حلي. وأمر الاسكندر، فوضعوا الجثة في مكانها وأغلق باب حجرة الدفن، ولكن اللصوص عادوا فنهبوها، وهي الآن خالية من كل شيء (عن رسم بالريشة للمصور جورج بلاومان George T.lowman).

..... التي حول الطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وامتدت من هذه الحدود الغربية صوب الشرق حتى كادت تصل إلى الهند، ولم يستغرق هذا العمل الضخم سوى خمسة وعشرين سنة منذ اليوم الذي قهر فيه قورش جموع الميديين. وقد كان للإمبراطور الأشورية الفضل في تمهيد الطريق لهذا العمل العظيم إذ أن الفرس بدأوا يقتبسون الكثير عمن سبقهم من الحضارات.

حضارة الإمبراطورية الفارسية

ورأى الفرس أن مدينة بابل كانت مدينة عظيمة فخمة وحولها أسوارها الضخمة التي أقامها نبوخذنصر والتي كانت تمتد من النهر إلى النهر. كما شاهدوا مبانيه الهائلة التي يراها الناس من مسافة بعيدة في السهل البابلي، وكانت هذه المدينة المركز التجاري الأول في غرب آسيا وكانت أعظم سوق عرفه الشرق القديم. أما على ضفاف النيل فقد حكم

الأباطرة الفرس المدن الرائعة التي تزخر بالآثار العظيمة التي تحدثنا عنها فيما سلف وكان لتلك الحياة المتحضرة التي رآها الفرس على ضفاف النيل وما رأوه أيضاً على ضفاف الفرات أثر كبير عليهم كما سيتضح لنا.

وكانت اللغة الآرامية وهي اللغة التي كانت يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأسواق البابلية، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره. وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمداد على أوراق من البردي، إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئاً فشيئاً، ولهذا رأي الموظفون الفرس أنهم مضطرون لتأدية أعمالهم الحكومية، مثل جمع الضرائب باللغة الآرامية في جميع أنحاء النصف الغربي للإمبراطورية الفارسية، وكانوا يبعثون برسائلهم الحكومية إلى بلاد النيل وغرب آسيا الصغرى باللغة الآرامية، لأنها كانت اللغة العالمية في جميع الأعمال الخاصة بالتجارة والإدارة.

ولهذا كانت حكومة الملوك الفرس، مثلها في ذلك الإمبراطورية الأشورية، حكومة ذات لغتين، أي أنهم كانوا يستعملون لغتين هما الأرامية والفارسية القديمة واستخدم الفرس في كتاباتهم للغة الفارسية حروفاً أرامية، كما يفعل اليوم من يكتبون الإنجليزية بحروف لاتينية بيد أن كان لهم إذ ذاك حروف هجائية مسمارية ربما أخذوا فكرتها عن الكتابة الأمراية.

ا

ب

شكل ٧٩: النقشان الفارسيان القديمان اللذان كانا أول النقوش التي حلت رموزها وقرئت

كان من عادة الكتاب الفرس أن يضعوا بعد نهاية كل كلمة شرطة صغيرة مائلة، ونرى في الرسم أرقاماً موضوعة فوق هذه الشرط للمساعدة على تحديد كل كلمة. وقدد لاحظ "جروتفند" أن بعض الكلمات تتكرر كتابتها في كل نقش من النقشين. فمثلاً نرى في النقش العلوي (ا) أن ٢، ٤، ٥، ٦ هي الكلمة نفسها. وفي النقش الآخر (ب) تتكرر الكلمة نفسها في ٢، ٤، ٥، ٧. ولما كان هذان النقشان فوق رسم ملوك من الفرس فقد ظن جروتفند أن هذه الكلمة التي تتكرر دائماً يجب أن تكون هي كلمة "ملك" ولما كانت في كل من النقشين تأتي في مكان رقم ٢ فتكون الكلمة الأولى أي رقم ١ هي اسم هذا الملك أي يكون بدء النص هو "دارا الملك" ووجد جروتفند بعد ذلك أن القلب ملوك الفرس كانت

معروفة في الوثائق الفارسية من العصور التالية. وكان ترتيب ورود هذه الألقاب مساعدًا لجروتفند على الظن بأن ترتيب النص كان كالآتي:

١	٢	٣	٤	٥
اسم الملك الفارسي	الملك	العظيم	ملك	الملوك
٦	٧	٨	... الخ أي أن	

٦، ٧، ٨ تعني "ابن الملك..."

وأخذ يجرب بعد ذلك أسماء ملوك الفرس وخاصة ما كان عدد حروفه يصلح لأن يكون في المكان المخصص للأسماء، ووصل إلى أن الاسم المحتمل لأن يكون في المكان رقم ١ من النص العلوي هو اسم "دارا" والاسم الذي في المكان رقم ١ في النص الأسفل هو "كزركس" وسنرى نتيجة ذلك في شكل ٨٠.

ا شا ر ا ى شا خ

شكل ٨٠: اسم الملك اكزركس في الفارسية المسمارية

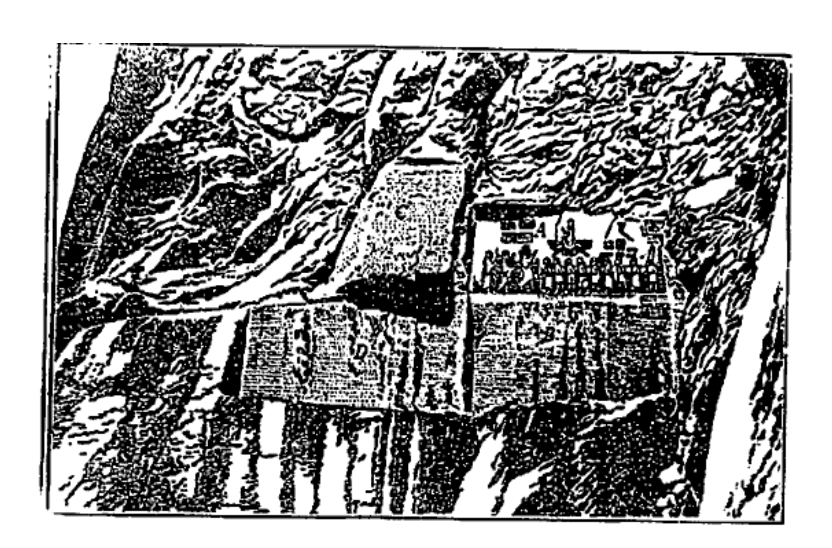
هذه الكلمة هي أول الكلمات في شكل ٧٩ ا ب ومعروف أن نطق الاسم اكزركس تحريف للنطق القديم "خشايارشا" ولهذا اعتقد جروتفند أن

هذه الحروف السبعة يجب أن تكون لاسم هذا الملك. ورأى أن بعض هذه الحروف توجد في الكلمة التي يجب أن تكون في "ملك" في الفارسية القديمة، ولهذا حاول أن ينطق الكلمة التي تدل على ملك.

ويستطيع القارئ أن يجرب ذلك بنفسه. ولينقل على قصاصة من الورق الحروف الثلاثة الأولى في الكلمة المظنون أنها تؤدي معنى "ملك" فخذ مثلًا كلمة رقم ٢ في شكل ٧٩، وقارنها بالحروف التي في اسم كركسيس فترى أن العلامات الثلاثة الأولى التي على الورقة هي العلامات الأولى والثانية والسابعة في كلمة اكزركس، فإذا حاولنا نطقها فإنها تكون حا– شا– ا. ولما كان لقب ملوك الفرس الآن هو "شاه" فإننا نستطيع أن ندرك أن جروتفند كان في الطريق الصحيح إلى حل رموز اللغة الفارسية المسمارية القديمة.

ولقد دلت البحوث الأثرية الأخيرة عند إكياتانا عاصمة الميديين على أن الميديين ابتدعوا حروفًا هجائية جديدة تبلغ تسعة وثلاثين علامة مسمارية، وكانوا يستخدمون هذه الحروف في كتابة اللغة الفارسية على الرقم الفخارية. كما استخدموها أيضاً كلما أرادوا أن يسجلوا حقائق تاريخية على المباني الحجرية. وهكذا بدأ الإيرانيون الذين ظلوا فترة طويلة دون علم الكتابة، يسجلون حقائق ووثائق تاريخية لتخلد بعدهم على مر الدهور، وتعتبر هذه الآثار أقدم ما وصل إلينا من وثائق ميدية أو فارسية.

وترجع أهمية المدونات المسمارية الفارسية إلى أنها هي التي مكنتنا من حل رموز وقراءة النقوش المسمارية في غرب آسيا، وذلك لأنه بعد أن احتلت الآرامية مكان لغة بابل وأشور جاء الوقت الذي لم يكتب فيه أحد من الناس أي رقم بالكتابة المسمارية، وآخر ما وصل إلى أيدينا رقيم عليه عبارات كلدانية يرجع تاريخها عام ٧ ق.م. أي أنه مضى نحو ألفي على آخر شخص كان يستطيع قراءتها، وهكذا ظل تاريخ بابل وأشور مدفوناً تحت أنقاض المدن التي قامت على ضفاف دجلة والفرات.



شكل ٨١: نقش النصر– نقش الملك دارا الأكبر على صخور يهستون– الذي يمكن تسميته بأنه حجر رشيد قارة آسيا

هذا الأثر الفخم هو أهم وثيقة تاريخية في آسيا. وهي مقسمة إلى أربعة أقسام–ا رسوم بارزة، أما ب، ج، ء فهي كتابات منقوشة على الصخور ونقش ب مكتوب في سطور يبلغ ارتفاع كل منها نحو ١٢ قدماً

ويسجل انتصار داريوس على أعدائه عندما أحدثوا ثورات واسعة النطاق بعد اعتلائه للعرش.

وهذا النقش مكتوب باللغة الفارسية بالأبجدية المسمارية الجديدة المكونة من تسعة وثلاثين حرفاً التي أوجدها الميديون على ما يظن. أما النقشان الآخران (ج، ء) فهما ترجمة للنقش الفارسي (ب). فأما النقش (ج) فهو باللغة البابلية في حين أن النقش الثالث (ء) فهو مكتوب أيضًا بالمسمارية ولكنه بلغة منطقة عيلام أي باللغة العيلامية.

وهكذا أراد "الملك العظيم" أن يعلن انتصاره وينشره على الناس مكتوباً بأهم اللغات التي يتكلمها سكان المناطق الشرقية، وأمر بوضع هذه النقوش في مكان قريب من بهستون على الطريق بين بابل والهضبة الإيرانية حيث تمر القوافل فيراها المارون منقوشة على واجهة الصخر على ارتفاع ثلاثمائة قدم، ونقشها الفنانون بحجم كبير لتسهل رؤيتها إذ تبلغ في ارتفاعها ٢٥ قدماً أما عرضها فهو ٥٠ قدمًا.

ومن الصعب جداً أن يصل الانسان إلى مكانها وقد خاطر السير هنري رولنسون (Sir Henry Rawlinson) بحياته عندما نقل هذه النقوش الثلاثة بين أعوام ١٨٣٥، ١٨٤٧. وعكف على دراستها فساعدته على حل رموز البابلية المسمارية القديمة. وبهذا تكون نقوش دارا هذه هي التي ساعدت العلماء على معرفة لغة وتاريخ بابل وآشور.

وقد أدت هذه النقوش لدراسات تاريخ ولغة غرب آسيا ما أداه حجر رشيد للدراسات المصرية (مرسوم من الصور الفوتوغرافية التي أخذتها بعثة المتحف البريطاني).

كانت الكتابة المسمارية الفارسية مكونة من تسعة وثلاثين حرفاً هجائياً ولهاذ لم تكن صعبة. وقد تمكن جروتفند Grotefond وهو مدرس ألماني، في أوائل القرن الثامن عشر أن يتعرف على اسم دارا واكزركس وبعض الألفاظ الفارسية الأخرى. ثم استطاع عدة باحثين أوروبيين آخرين أن يتوصلوا إلى معرفة أصوات أكثر الحروف الهجائية المسمارية في اللغة الفارسية، وأتم السير هنري رولنسون وهو ضابط بريطاني حل رموز الكتابة المسمارية الفارسية في عام ١٨٤٧ وأصبح العلماء منذ ذلك التاريخ يستطيعون قراءة النقوش التي كتبت باللغة الفارسية القديمة، ولكن عدد هذه النقوش كان ضئيلاً إذ ذاك وكانت الأهمية الكبرى لقراءة هذه النقوش الفارسية هي أنها ربما كانت وسيلة تساعدنا على معرفة قراءة الكتابة المسمارية البابلية.

فقد لاحظ الباحثون منذ أمد بعيد أن النقش الثالث في أثر بهستون Behistun العظيم للملك داريوس قد كتب بنفس الحروف المسمارية التي توجد على كثير من الرقم الفخارية وعلى بعض الآثار التي عثر عليها في بابل فاعتقد الباحثون أنه إذا أمكننا قراءة النقش الثالث في بهستون، يصبح في استطاعتنا قراءة الوثائق البابلية والأشورية القديمة ونجح رولنسون بعد ثلاث سنوات قضاها في دراسة نقوش بهستون من أن يحل رموز بعض

الكتابة البابلية أيضًا المكتوبة بالطريقة المسمارية وعند ذاك بدأت أطلال المدن البابلية وخرائب الدور الأشورية تفصح عما خبأته من أخبار، وتخبرنا رويداً رويداً عن العصور الثلاثة العظيمة في تاريخ بلاد الدجلة والفرات. وهي فترة تزيد على ألفين وخمسمائة عام من تاريخ الإنسان في غرب آسيا، كان العالم يجهلها جهلاً مطبقاً.

ويرجع الفضل في قدرتنا على قراءة المدونات المسمارية ومعرفتنا لهذه المعلومات الجديدة إلى الوثائق التي خلفها لنا ملوك الفرس.

وكان تنظيم هذه الإمبراطورية الشاسعة. التي تمتد من نهر السند حتى البحر الإيجي (تقرب من طول الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب)، ومن المحيط الهندي حتى صحراء بحر قزوين، عملاً جبارًا، كانت هذه الإمبراطورية تتطلب مجهوداً في التنظيم على نطاق واسع، أعظم من أي نوع من التنظيم حاول أي حاكم آخر أن يفعله من قبل. كان هذا العمل أكبر من أن يتم كله على يدي قورش الذي بدأه ثم أتمه دارا الأكبر (٥٢١– ٤٨٥ ق.م) الذي سيظل التنظيم الذي وضعه عملًا من الأعمال الخالدة المجيدة في تاريخ الشرق بل وفي تاريخ العالم كله.

كان حكم دارا حكمًا عادلاً رحيماً مستنيراً، ولكنه لم يكن لرعاياه من الشعوب أي صوت في الحكومة، وكان العاهل الفارسي يلقب بالملك الأكبر منذ أيام قورش، وكان مل ما يقرره الملك الأكبر يصبح قانوناً وعلى الشعوب أن تنحني أمام كلمته، ويقول دارا في نقش بهستون "لقد انصاعت

هذه البلاد لأوامري والحمد لآهورا مزدا، وكل ما أمرتهم بعمله كانوا ينفذونه" ونلاحظ هنا حقيقة هامة نستشفها من هذا النص ألا وهي أن هذا النظام لم يكن محاولة للحكم على نطاق أعظم مما عرفه العالم حتى ذلك الوقت فحسب، بل كان حكومة في قبضة رجل واحد. ولم ينس العالم القديم المثال الذي وضعته الإمبراطورية الفارسية الشاسعة التي حكمها فرد واحد.

وفي سبيل إتمام هذا التنظيم العظيم عمل دارا على أن يولي نفسه ملكاً فعليا على كل من مصر وبابل، ثم قسم باقي الإمبراطورية إلى عشرين ولاية، وكانت كل ولاية من هذه الولايات تعرف باسم "ساتربيه" Satrapy لأن كلاً منها كان تحت إمرة وال أو حاكم يدعى ساتراب Satrap بعينه الملك الأعظم. وأنه وإن كانت هذه التنظيمات شبيهة بما كان متبعاً في امبراطوريات الكلدانيين وآشور ومصر إلا أنها تعد خطوة تقدمية في نظام حكم الولايات تحت امرة الحكام. وفي الواقع كانت الإمبراطورية الفارسية بنظامها الجديد، المثال الأول في التاريخ لمجموعة من الشعوب الخاضعة التي تحكم كأقاليم، ويمكن أن نطلق على هذا النظام "أنه نظام إقليمي". وتمتعت الأمم الخاضعة أو بالأخرى الأقاليم الواقعة تحت الحكم الفارسي بقسط كبير من الاستقلال في إدارة شئونها المحلية طالما كانت تقدم للملك الأكبر الجزية المفروضة عليها، وطالما كانت ترسل لجيشه جنوداً. وقد عول الملك الأكبر في سبيل الوقوف على أسرار أي ثورة محلية ومنعها، كثورة حاكم أو شعب ضد الحكم الفارسي، على تعيين موظفين يقيمون في كل دولة من الدولة التابعة له. وكان يطلق على هؤلاء وفقاً لعادة مصرية

قديمة: "آذان الملك أو عيونه"، وكانت مهمتهم تنحصر في إبلاغ الملك أية قرينة على العصيان، وكانت كل هذه التنظيمات تحسينات أدخلها الملك الأكبر على نظام الحكم في الإمبراطورية الأشورية.

كانت الأراضي الزراعية مقسمة إلى إقطاعات شاسعة في حوزة نبلاء أقوياء، أو بعض ملاك الأراضي الأغنياء، فلم يكن هناك إلا عدد ضئيل من الزراع الذين يملكون آراضيهم، وكانوا جميعاً يدفعون ما عليهم، لتقدم مع الجزية التي كانت مفروضة على جميع أنحاء الإمبراطورية وكانت هذه الجزية تجنى عيناً في المنطقة الشرقية من الإمبراطورية، وذلك وفقاً للتقليد القديم.

أما في المنطقة الغربية من الإمبراطورية ولا سيما ليديا والمستعمرات الإغريقية في غرب آسيا الصغرى حيث كانت العملة المعدنية معروفة منذ عام ٦٠٠ ق.م. فإن الجزية كانت تدفع بالعملة. أما الأقطار الشرقية، مصر وبابل، وبلاد الفرس نفسها فلم تكن بعد قد اقتبست هذه الطريقة، وعلى أية حال فقد شرع دارا في سك عملة ذهبية كما سمح لولاته أن يسكوا عملة فضية، وكانت النسبة ١٣: ١ أي أن الذهب كان يعادل ثلاث عشرة مرة قيمة الفضة وكان للعملة المسكوكة فضل كبير في تيسير التبادل التجاري بين الأمم ولهذا أصبح استعمالها عاماً وأكثر انتشاراً في الشرق الأدنى خلال العهد الفارسي.

ويمكننا أن نقول بوجه عام أن دارا مثله في ذلك، كمثل اليابانيين في العصر الحديث، أظهر مهارة فائقة في اقتباس خير ما في الحضارات العظيمة التي تحيط به لكي يطبقها في حكومته، فلقد أدرك سريعاً الخير الذي يعود من استخدام التقويم المصري الذي ينقسم السنة إلى إثنى عشر شهراً كل منها ثلاثون يوماً، فأمر باقتباس هذا التقويم في الحكومة الفارسية، وأعجب دارا إعجاباً شديداً بما وصل إليه المصريون في الطب. فأمر بإعادة أحد رؤساء الكهنة الذي كان على جانب عظيم من المعرفة، وكان أسيراً في بلاد الفرس، فأصدر إليه تعليماته ليذهب إلى صا الحجر، وهي مدينة تقع في غربي الدلتا، وأن يعيد بناء مدرسة طبية مصرية كانت قد تهدمت مبانيها، ونحن نقرأ تلك القصة على قاعدة تمثال لهذا الكاهن أوامر دارا وأعاد بناء داري المدرسة، وكانت إحدى الدارين تختص بالمدرسة نفسها، أما الأخرى فيرجح أنها كانت المكتبة، وجمع لها الطلبة من أرقى العائلات ليدرسوا فيها، وهيأها بما يلزمها من "الآلات" التي كانت تستخدم على الأرجح في العمليات الجراحية. ويستطرد النقش قائلاً "لقد فعل صاحب الجلالة (أي دارا) ذلك لإدراكه قيمة هذا الفن (الطب) لينقذ حياة كل من أصابه السقم" وهكذا أسس هذا العاهل الفارسي الكبير أقدم مدرسة طبية كمؤسسة ملكية.



شكل ٨٢: جنود من الفرس

بالرغم من أن هؤلاء الجنود كانوا يحملون الحراب عند تأديتهم عملهم كحرس في القصر، إلا أنهم كانوا من الرماة كما نرى من كنانة السهام المعلقة فوق ظهورهم والقوس المعلق على الكتف اليسرى. وكان من عادة جنود الفرس أن يشرعوا حرابهم وهم ملتفون حول الملك في ساحة القتال، تأمل الملابس الفخمة التي يلبسها حراس القصر.

هذا الرسم مأخوذ من أصل زاهي الألوان على قوالب مزججة وهو فن اقتبسه الفرس عن الآشوريين واستخدموه في تجميل جدران القصور.

وفي عهد دارا. أيضاً قام عالم الكلداني "نبوريمانو" Naburimannu بأبحاثه الفلكية في بابل، كما أن هناك دراسات أخرى من هذا النوع قام بها "كينو" Kidinnu في عهد الحكم الفارسي أيضًا.

وليس أدل على حنكة دارا الأكبر السياسية من حرصه على أن يجعل من بلاد الفرس دولة ذات قوة بحرية عظيمة، ولم يكن يسيراً على أمة تقطن قلب اليابسة ومكونة من جماعات من الرعاة والفلاحين، وتفصلها عن الماء شواطئ صحراوية أن تسيطر على البحر وتسوده. واضطر دارا إلى استخدام ملاحين من الأجانب، ومن أعماله أنه بعث بملاح ماهر من ملاحي البحر الأبيض المتوسط يدعى "سكيلاكس" Scylax ليكتشف نهر السند في الهند. ثم أمره دارا بعد ذلك أن يبحر إزاء شواطئ أسيا من مصب نهر السند متجهاً صوب الغرب حتى خليج السويس: فكان سكيلاكس أول بحار غربي عرفنا أبحر بإزاء هذا الشاطئ الجنوبي لآسيا، ذلك الشاطئ الذي كاد أن يكون مجهولاً لدى الشعوب الغربية وكان ذلك حوالي عام ٥٠٠ ق.م.

وفي السويس أعاد دارا حفر القناة المصرية القديمة التي كانت تربط النيل بالبحر الأحمر، وكانت قد ملئت بالطمي والرمال منذ زمن غير يسير. وقد عثر على قطع متناثرة للوحات حجرية كبيرة، وكان دارا قدد أقامها على طول الطريق القديم لهذه القناة. وتحمل هذه اللوحات نصاً يتحدث عن إعادة حفر هذه القناة. وهذه هي بعض كلمات "الملك العظيم": "أمرت بحفر هذه القناة من مجرى الماء الذي يوجد في مصر

والمعروف باسم النيل حتى البحر (البحر الأحمر) الذي يمتد من بلاد الفرس، ثم حفر هذه القناة كما أردت، وأبحرت السفن من مصر إلى بلاد الفرس عن طريق هذه القناة، وذلك وفقاً لمشيئتي" ومن الواضح أن دارا كان يراوده أمل أثبتت الأحداث خطأه وهو جعل الشاطئ الجنوبي لبلاد الفرس يساهم في النشاط التجاري المطرد بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط.

فكما كانت بلاد الفرس فقيرة في صغار الملاك للأراضي كانت تفتقر أيضاً إلى التجار الصغار الطموحين الذين ربما ظهر منهم مغامرون ينهضون بشؤون التجارة.

وأحسن دارا معاملة المدن الفينقية، ولم يفعل ما فعله الآشوريون ونجح في إعداد أسطول حربي فينيقي ضخم. وسوف نرى أن ابن دارا "اكزركس Xerscus (خشيارشا)" استطاع أن يعتمد على المئات من السفن للأعمال الحربية وللنقل في شرق البحر الأبيض المتوسط، وعندما دعت الحاجة إلى استخدامها في غزو أوروبا. وهكذا حقق الملوك الفرس المستنيرون ما لم يحققه الأباطرة الأشوريون وأصبحت فارس أعظم قوة بحرية في آسيا.

وحافظ الأباطرة الفرس على طرق المواصلات بشقهم طرقاً صالحة تمتد في جميع أنحاء الإمبراطورية من أقصاها إلى أقصاها ولعل هذه الطرق

أسدت للإمبراطورية الفارسية ما تسديه لنا الآن السكك الحديدية ولكن على نطاق ضيق بالطبع.

وكان للرسل الملكيين نظام بريدي أدق وأسرع مما كان متبعاً في الإمبراطورية الأشورية، وكان هؤلاء الرسل يمتازون بسرعة مدهشة، ولكن نقل البضائع كان يحتاج إلى وقت أطول. فمثلاً من سوسا Susa أو برسبولس Persepolis إلى البحر الإيجي كان يتطلب من الوقت ما يعادل ما نحتاجه الآن لنطوف حول العالم ومما يدل على فائدة تلك الطرق انتشار ذلك النوع من القوت الذي ينمو في البيت ألا هو الدجاج. فقد كانت في الأصل دجاجة برية تعيش بين الأدغال في الهند ثم استأنسها الهنود الشرقيون ولم تصبح منتشرة في منطقة البحر الأبيض المتوسط حتى جاءت بها وسائل المواصلات الفارسية من الهند إلى البحر الإيجي.

كانت مدينة سوسا العيلامية القديمة التي تقع في جبال زاجروس هي العاصمة وفيها كان يقطن الملوك، بيد أن هواء بابل المعتدل اجتذب العاهل الفارسي أثناء الشهور الباردة في السنة فكان يرحل إلى قصور الإمبراطورية الكلدانية البائدة ليقيم بها. وقد حرص ملوك الفرس الأوائل على أن يقيموا في وطنهم الفارسي القديم، رغم بعده ولقد رأينا أن قورش قد أقام قصراً فخماً عند بازارجاده على مقربة من المكان الذي هزم فيه الميديون وأن دارا قد بنى أيضًا قصراً رائعاً عند برسبولس التي تبعد نحو الأربعين ميلاً جنوب قصر قورش. وبالقرب من أطلال برسبولس توجد

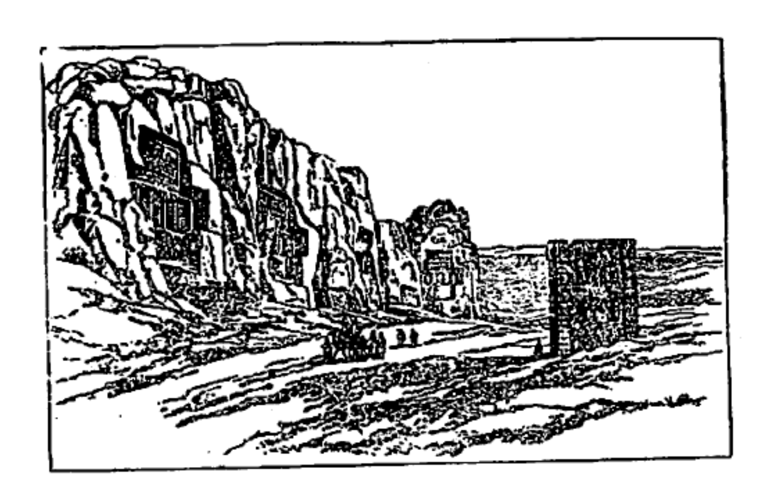
مقابر دارا واكسركسيس وغيرهم من الأباطرة المتأخرين. لأنهم كانوا حريصين على أن يدفنوا في موطنهم الأصلي في فارس.

وأخذ البناءون الفرس يتعلمون فن المعمار من الشعوب الشرقية القديمة التي أصبحت خاضعة لإمبراطورتهم. فاقتبسوا المدرجات الهائلة التي كانت تقوم عليها القصور الفارسية عن البابليين. كما اقتبسوا الثيران المجنحة التي تقوم أمام أبواب القصر والسلالم المؤدية إليها عن آشور. أما بواكي الأعمدة التي تمتد أمام القصور وتملأ أبهاءها والتي كانت أقدم ردهات ذات أعمدة بنيت في آسيا- فإنهم اقتبسوها من مصر إذا كانت تقوم على ضفاف النيل منذ أكثر من ألفين من السنين قبل ذلك التاريخ[1] وكذلك جدران القصور الزاهية الألوان والتي بنيت من طوب مزجج فإنها جاءت إلى بلاد الفرس من الغرب. وهكذا اندمجت الحضارة العظيمة التي حكمها الأباطرة الفرس في حياة إمبراطوريتهم.

وأدى اندماج تلك الحضارات القديمة التي نشأت في الشرق الأدنى تحت نظام شامل إلى إيجاد حالة جديدة لها خرها الكبير في تاريخ أوروبا فقد رأينا قورش وكيف وصلت انتصاراته إلى شواطئ البحر الإيجي ورأينا المدن الإغريقية التي تقع في غرب آسيا الصغرى وقد أصبحت تحت الحكم الفارسي. وهكذا امتدت تلك الإمبراطورية العظيمة على طول جنوبي أوروبا. وإذا تأملنا خريطة للعالم ووضعنا في أذهاننا أن نقدم الإمبراطورية

([1]) مما يلفت النظر أن الفرس لم ينقلوا العقد في البناء عن البابليين. فإن جميع الأبواب في قصر دارا تعلوها قطعة حجرية أفقية هي ما نسميها "العتب" وقد نقلوا ذلك من الأبواب المصرية.

نحو الغرب قد امتد في النهاية تحت حكم دارا فشمل الأراضي الأوروبية حتى نهر الدانوب، فإننا ندرك أن وقوع اصطدام حربي بين الإمبراطورية الفارسية وبين بلاد الإغريق أصبح أمراً لا مفر منه. وسيكون لهذا الموقف فيما بعد أثر أعظم، عندما يؤدي إلى اندماج أقوى بين حضارات الشرق الأدنى وبين الحياة في أوروبا الغربية إلى درجة لم تكن ميسورة من قبل ولم تكن تلك الحروب بين بلاد الفرس وأوروبا ذات أهمية كبرى بالنسبة لبلاد الفرس، ولكنها كانت العامل الأساسي في تطور تاريخ بعض الأمم الصغيرة مثل الإغريق.



شكل ٨٣: مقابر ملوك الفرس الأوائل على مقربة من مدينة برسبوليس (تخت جمشيد)

بعد موت قورش وابنه قمبيز، بدأ ملوك الفرس منذ عهد دارا الأول في نحت مقابرهم في واجهة هذا الصخر على مسافة يسيرة من مدينة برسبوليس. وهنا مقابر دارا الأعظم واكسركسيس ودارا الثاني وارتا كسركسيس الثاني وارتا كسركسيس الثالث ودارا الثالث وكلها منحوتة في

الجبل خلف قصور برسبوليس ولو أضفنا عليها مقبرة كورش (شكل ٧٨) يصبح لدينا مقابر جميع الملوك الفرس التسعة ما عدا قمبيز الذي غزا مصر فإن قبره لم يعثر عليه حتى الآن. وأمام كل مقبرة تقوم بضع أعمدة يفتح وسطها الباب. وفوق الأعمدة نرى مربعاً منحوتاً في الصخر فيه رسم الملك يتعبد للإله أهورامزدا أمام مذبح للنار وقد فتحت هذه المقابر وسرقت محتوياتها كما حدث لمقبرة كورش وجميع هذه المقابر لا تحوي شيئاً الأن اللهم إلا التوابيت الحجرية الضخمة الموضوعة في أماكن معدة لها في الجدران، تلك التوابيت التي دفن فيها دارا واكسركسيس وغيرهم من الملوك وعائلاتهم.

كان الحكم الفارسي بالنسبة للعالم الشرقي على وجه العموم فترة رخاء وسلم استمرت نحو قرنين من الزمان (انتهت حوالي **٣٣٠** ق.م).

ومع تقدم الزمن لم يعد ملوك الفرس في قوة قورش أو دارا أو مهارتهما، فقد أحبوا الترف وركنوا إلى الدعة وألقوا كثيراً من مهام الحكم على عاتق ولاتهم وموظفيهم، وترتب على ذلك أن أصبحت الحكومة في حالة فساد وعجز، وكان مصيرها إلى الضعف والاضمحلال.

وكتب المتأخرون وخاصة الإغريق عن الحكام الفرس وصوروهم لنا كطغاة شرقيين قساة القلوب غير متحضرين ولكن هذا الوصف ملئ بالتحامل وخاصة إذا تحدثنا عن الحكام الفرس الأولين. فللقد شعر بعض هؤلاء الأباطرة الفرس شعوراً عميقاً بواجبهم في أن يهيئوا حكومة عادلة

لأمم الأرض. فيقول دارا الأكبر في نقش بهستون "ولهذا مد مزدا يد المساعدة لي.. لإني لم أكن شريراً، ولم أكن كذوباً ولم أكن طاغية، وما كان أحد من أجدادي هكذا، لقد حكمت طبقاً لقواعد العدل".

ولا ريب في أن الإمبراطورية الفارسية. أعظم امبراطورية شهدها العالم القديم تمتعت بحكومة عادلة رحيمة لن تعدلها أي حكومة سبقتها في بلاد الشرق.

وتدل كثير من هذه التصريحات مثل تلك التي وردت في نقش دارا وأشرنا إليها منذ لحظة على أن الحكام الفرس كانوا أتباعاً مخلصين لتعاليم زرادشت. وقد ساعدتهم قوتهم على نشر هذه العقيدة النبيلة في جميع أنحاء غربي أسيا الصغرى.

وهنا ظهر متراس، الذي كان زرادشت ينظر إيله على أنه أحد أعوان أهورا مزدا ظهر على أنه بطل النور، وفي آخر الأمر إلهاً للشمس، وطغا اسمه على اسم أهورا مزدا شيئاً فشيئاً. وانتقل متراس من آسيا الصغرى إلى أوروبا، وزاد انتشار عبادته فيما بعد في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت بعد ذلك منافساً خطيراً للديانة المسيحية لأنه فيما يتعلق بالديانات، وبالنسبة لكثير من الأمور الأخرى، أتمت الإمبراطورية الفارسية تحطيم الحدود الدولية، وكان زهورها بداية فترة طويلة من الزمن تنافست فيها الديانات الرئيسية في الشرق لنيل مركز الصدارة بين جميع الأمم.

كانت بلاد الفرس أخرقوه عظيمة عرفها الشرق الأدنى القديم. وقد آن الأوان لنوجه أنظارنا صوب الغرب لنشهد تقدم الحضارة في بلاد أوروبا، ولكن لنقف هنيهة لنتذكر ما حققته الشعوب الشرقية القديمة. لقد اخترع الشرق الأدنى لأول مرة في التاريخ مجموعة كاملة من المخترعات التي لم تتفوق عليها مخترعات أخرى سوى مخترعات العالم الحديث. كانت الشعوب الشرقية أول من ابتدع الفن والهندسة والأدب والعلوم. وكان لدى الشرقيين أقدم القوانين المكتوبة وتمت بينهم أقدم عقيدة نادت بوحدانية الله ورعايته الأبوية لجميع البشر.

وإلى جانب ذلك فقد قبل الشرق دائماً فكرة الملكية كأمر طبيعي ولم يخطر في ذهن أحد أن يؤخذ رأي الناس في الطريقة التي يحكمون بها. ولم يعرف الناس ما نسميه الآن الحرية كما نفهمها في عصرنا الحالي، ولم يحلم أحد بالنظام الذي يجعل الناس أصحاب الكلمة في حكم أنفسهم وهو ما نسميه بالديموقراطية.

وكان قبل الشرقيون حكم الملوك بدون مناقشة فإنهم أمنوا بحكم الآلهة. فاعتقدوا أن أي عاصفة تثور تسبب فيها إله من الآلهة وأن كل كسوف للشمس كان من عمل إله غاضب أو روح شريرة، ولم يهتم الشرقيون كثيراً ليعرفوا الأسباب لحدوث هذه الظواهر ولهذا ام تتقدم بينهم العلوم الطبيعية تقدمًا ذا شأن، أما الديانة فشوهتها الخرافات وحرم الفن والأدب من بعض مصادرهما الأساسية اللازمة للتطور والالهام.

وكان ما زال أمام الناس أشياء كثيرة لا حصر لها، وكان عليهم أن يصلوا إليها، وذلك في إدارة الحكومة وفي التفكير في دينا الطبيعة، وفي إدراك ما في الطبيعة من غرائب وجمال، وفي التعمق في الفن والأدب وفي غيرها من الميادين وقدر لهذا التقدم أن يتم مستقبلاً في أوروبا، التي تركناها عند حديثنا عن العصر النيوليتي في آخر الفصل الثاني.

ويجب علينا أن نتتبع الآن الحضارة وهي تنتقل من الشرق الأدنى القديم مارة بشرقي البحر الأبيض المتوسط لتصل إلى سكان أوروبا، وذلك منذ أربعة آلاف وخمسة آلاف سنة.

الفهرس